عبد الرحمن سفر

أغلال عرفة

رواية

الدار المصرية للكتب

الكاتب: **عبد الرحمن بن أسامة سفر**

عنوان الكتاب: **أغْلَال عَرَفَة**

•••

تدقيق وتحرير: **رمزي بن رحومة**

مراجعة وتدقيق: **أسيل سقلاوي**

•••

تصميم الغلاف: عبد الفتّاح بوشندوقة

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

•••

ر.د.م.ك: 978-9938-74-901-4

الطبعة الأولى 2023

•••

دار رشم للنشر والتوزيع

السعودية - عرعر - حي المباركية

شارع الأمير فيصل بن خالد بن سلطان آل سعود

+ 966 54 709 470 9

rashm.ksa@gmail.com

rashm-store.com

@rashm_ksa

«ما منكم من أحدٍ إلّا وقد وُكِّلَ بِهِ قرينُهُ منَ الملائِكةِ وقرينُهُ منَ الجنِّ.

قالوا: وإيّاكَ يا رسولَ اللهِ؟

قالَ: وإيّايَ إلّا أنَّ تعالى اللهَ أعانَني عليهِ فأسلمَ».

حديثٌ صحيحٌ – رواية ابن تيميّة

(فَسَأَلَهُ يَسُوعُ قِائِلاً: «مَا اسْمُكَ؟»

فَقَالَ: «لَجِئُونُ».

لأَنَّ شَيَاطِينَ كَثِيرَةً دَخَلَتْ فِيهِ).

إنجيل لوقا، آية 30

«حيلة الشيطان العظمى هي إقناع العالم بعدم وجوده».

الشاعر الفرنسي شارل بودلير

«إذا تجاهلت مكنوناتِ باطنك، ستذعنُ لها حياتُك، وتلقّبُها بالقدر».

عالم النفس السويسري كارل يونج

مقدّمة المُحرّر

يعسُر عليّ تقديم هذا الكتاب، ولا أجد له وصفًا يسيرًا أستهلّه به ولا تصنيفًا مُحدّدًا أُعلنه مُطمئنًا... فمن الممكن أن يصنّفه بعض القرّاء أدبَ سجونٍ (وفيه كثير من ذلك)، وقد يُسمّيه آخرون «بيوغرافيا» (وهو كذلك ولو خالف السائد)، ويجوز أيضًا إلحاقه بأدب الفنتازيا (ولا حرج).

لكن أدقّ وصفٍ يُسعفني هو: «الأدب الجنائزيّ»، لما يرشح به المتن من مرارةٍ، وما يُضرّج الصفحات من أحزانٍ وخيباتٍ. وهذا الأدبُ المخصوص يشكّل صرحًا مهيبًا نشأ من ضرورةٍ، والأمثلُ ألّا يخوض فيه من أنس البذخ والرفاه... ومع أنّ جزءًا كبيرًا من قصّة «عرفة بن الإمام» يقتصر إطاره المكانيّ على زنزانةٍ يفنى فيها ببطء كدْهنٍ فاسدٍ على نارٍ خابئةٍ، تتجاوز أبعادها تلك البؤرة القاهرة الظالمة، على غرار قول الشاعر: «في غرفةٍ كلّما ضاقت اتّسع ما وراءها»، وتلك دقائق تخفى عن أمثالي، ولن يوفيها حقّها أيّ تحليلٍ أو تقريرٍ أو مقالٍ.

وإن وُفّقنا في سرد قصّته وتفاصيلها ومحيطها، سيظلّ أثرها مدموغًا في روح القارئ بالجمر والرماد.

***

أغلال السجن شديدةٌ،

لكنّ أغلالَ الحياة أشدّ وأقسى.

وعنها نتكلّم في هذا الكتاب.

تُقدّم الصفحات التالية توثيقًا لما عُرف باسم «سجلّات عرفة»، وهي باختصار سلسلة لقاءات السجين «عرفة» ومحاميه الذي وُكّل للدفاع عنه، وفيها تجلّى ما تجلّى، وكان ما كان.

سنتعرّف بين دفّتي الكتاب إلى «عرفة بن الإمام» وتجربته المُوحشة والأغلال التي كبّلته خلف قضبان الزنزانة وخارجها، في حياته، وفي مماته.

لمّا تسرّبت السجلّات إلى ساحة الرأي العامّ (وسآتي على ذكر تلك الأحداث لاحقًا حتّى لا نخرق تسلسل السرد)، ائتمنني المحامي عليها لتجهيزها بعد أن لاكتها الأفواه واخترقت خصوصيّة عرفة بمختلف الصور والأشكال (أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: مقابلات تلفزيونيّة، مقالات صحفيّة، مدوّنات خاصّة، شبكات اجتماعيّة، مدونات صوتيّة...) ولقد بلغني أيضًا أنّ مِنَ التخصّصات الجامعيّة المعنيّة بالصحّة النفسيّة ما نُقّحت بعضُ مقرّراته لتتضمّن «تدوينات الحاجب»، و«رسائل عرفة من خلف القضبان» (وهي المُعنوَنة هنا بـ: رسائل من السرداب) وكذلك التسجيل الصوتيّ المعروف باسم «حوار الثلاثين ثانيةً» بين «عرفة» ونظيره (وقد عنونه المحامي بـ:

ما حدث بعد الزيارة الخامسة)، وثمّة أخصّائيّون عمدوا إلى تحليل نبرات «عرفة» فتطرّقوا إلى الرعب في مشاعره والتموّجات في صوته مُحاولين سبر أغواره وتفسيره مُتسلّحين بترسانات علميّة ليست بالهيّنة. ومن اللافت أنّ بعض علماء الدين تناولوا تلك الملفّات نفسها، ولكن بمنظار مختلف، وخاضوا فيها وجادلوا جنود العلم بما لديهم من حُججٍ.

وتناهى إليّ كذلك أنّ «سجلّات عرفة» تُرجمت في إحدى ضواحي مدينة نيويورك، واقتُبست منها مسرحيّة صوتيّة دراميّة أذيعت عبر الراديو لأشهر مُتتالية. وأنّ مُخرجًا اتّصل بالمحامي وأعلمه ببدئه العمل على فيلم مستوحى من أحداث السجلّات.

ونظرًا لتضخّم الزخم وتراكمه حول السجلّات (بحسنه وشنيعه)، تحتّم الترتيبُ مع المحامي لعرض بعض تلك التداولات (وفي كثير من الأحيان: التطاولات) وفقًا لما هو مُناسب ومُنصف، وبذلك نُبيّن للقارئ الكريم بعض ما تداوله السواد الأعظم من أمر «عرفة» وحياته ومأساته، وقد اختلفوا في حالته: هل مسّه نفرٌ من الجنّ؟ أم مسّه ضربٌ من الجنون؟

والحالتان مُتقاربتان وصوفًا وأعراضًا، ويتشاركان الجذر اللغويّ نفسه!(1)

***

وأختم بلفت النظر إلى أنّي وفريق العمل القائم على هذا المشروع أزمعنا ألا نُظهر أسماءنا على أيٍّ من صفحات الكتاب، لئلّا نكون من المتسلّقين ظهر القضيّة المُقدّمة بين أيديكم، وتعاهدنا على تخصيص أرباح الكتاب للأعمال الخيريّة.

سأقدّم لكم «سجلّات عرفة» على حالها حين تلقّيتها من المحامي، وأدلي بدلوي حيث يُفيد وينفع.

باسمي وباسم فريق العمل، نتمنّى لكم قراءةً ممتعةً... ولو تضرّجت حروفها وكلماتها بالدمع والدم.

المُحرّر

رسالة المحامي

استفتاحًا باسمه، واستنجاحًا ببركته، واستجداءً لنعمه، ربّ العالمين، الله المُبتدئ المتفرّد بالقدم، الذي جلّ عن شبه المخلوقين وصِفات المحدثين، وليّ الحسنات، المُبرّء من السيّئات، الذي بعث بالحقّ محمّدًا بن عبد الله، فبشّر ومات بالحقّ، صلّى الله عليه وأصحابه وأهليه صلاةً تُرضيه، يتلوها عليه الثقلان، من آمن من الإنس والجان، وكلّ من ادّعى رسالةً من بعده دجّالٌ أشِر.

عزيزي المُحرّر،

لقد اقتضى واجبي من موقع الوكيل المُؤتمن على هذه القضيّة تدوينَ هذا النصّ وجعله جاهزًا بين يديكم، وأحيطكم علمًا بأنّني كُلّفتُ ما لا أطيق، وما كنتُ له مُريدًا. ذلك جُلُّ ما يجب أن تعرفه عنّي. وإنّي لمُعرض عن ذِكر اسمي، فلست بتوّاقٍ لتصدّر الأضواء وتوسّط المحافل ومخاطبة الحشود.

أدوّن هذه الذكريات والخبايا والوقائع (إن جاز الوصف) لأزيح عن كاهلي أمانةً أثقلته وأنهكته، ولو عُرضت على السماوات والأرض والجبال لأبينَ أن يحملنها. واعلم حفظك اللهُ أنّني خلال نقلي وتدويني لم يتوانَ لساني عن تلاوة المعوذات وترديد الأذكار. وإنّما أذكرُ تنويهي هذا آملًا أن تحذوَ حذوي، داعيًا الله العليّ العظيم أن يصونني ويصونك من وبالها وتبعاتِها. فاخلع نعليك ويمّم وجهك

شطر الله، فكلّ شيءٍ بين يديه، ومنه وإليه.

أدوّن هذه الذّكريات والخبايا والوقائع كما تجلّت لي من داخل السجن وخارجه. واعلم حفظك الله أنّني مُشفقٌ على حالي وحال من يقرؤُها؛ راجيًا المولى عزّ وجلّ ألّا يكون لها قارئٌ ولا مُستمعٌ ولا مُريد، فلا ينزغنّ قارئَها نزغٌ ولا يشوبنّ إيمانَه شوبةٌ تنجّسه، فيبتليه رجسٌ عظيم، أمّا وقد كان ما كان من تسرّبٍ وتأويلٍ وهتكٍ للأعراض، فإنّي حُقّ عليّ البلاغ ودرء الشبهات والمشوبات، مُفوّضًا أمري إلى الله فلا مردّ لي منه إلّا إليه. آملًا أن يصونَ مشروعي هذا المُتّهم «عرفة» من غُثاء النامّين وصفاقة الشامتين ودنس المُغرضين(2).

وكلّي يقين أنّ ما احتوته المُرفقات من أوراقٍ وتسجيلاتٍ لن يطيب لأولئك الذين لم يألفوا مكائد الحياة ولم تعرِكهم مصائبها، أو أولئك الذين أُلِفوا أجوبةً مُقولبةً متوارثة واستكانت إليها قلوبهم. وأجزم أنّهم سيمسّهم ضررٌ جسيمٌ. فالنص الذي ستقرَؤه مُروّعٌ ومسموم، مُثيرٌ للحفائظ والشبهات، ولا عجب وقد تجرّأ «عرفة» على نَكء موضوع شغَل السواد الأعظم من أبناء الأمّة:

«الجنّ بين الدين والعلم والدجل»

ولم يُقبِل «عرفة» على هذا التحقيق وما تبعه من مغبّات إقبالَ أصوليٍّ مُتشبّثٍ بحرفيّة النصوص القرآنيّة والأحاديث النبويّة، ولا

عمد إليه مُستعينًا بأفكار الملحدين -نسأل الله العفو والسلامة- مُتشدّقًا بأسفار العلم ومزاميره الجافّة مُتلهّفًا لقدحِ الغيبيّات الربانيّة وهتك السّنن المحمّديّة. لا يا سيّدي، لقد خاض «عرفة» في الأمر بقلبٍ سليمٍ ورغبةٍ صادقةٍ، مُحاولًا فهم الأحداث المهولة التي تنازعته ولم يملك لمجابهتها حولاً أو قوّةً، حتّى غشيَه جبروتٌ ظالمٌ مُستبدٌ، فتمزّق ولم تُسمع صرخاتُه، وتمرّغ داعيًا وما أجيبت دعواته.

والنصّ على أهمّيته قد يوصم بالتجديف والبهتان والباطل، ولا حرج على من ادّعى ذلك، ففي سعي «عرفة» لتبيان الحقيقة ومَعرِفَةِ الصّحِيحِ اختلطَ الحابل بالنابل، والصالح بالطالح. ومن الواردِ جدًّا أن تصعُب التفرقة بين ما يصنّفه القارئ دينًا أو علمًا وما يُصنّفه دجلًا، ومعلوم أنّ ما يعُدّه قارئ منطقًا سليمًا، يقدح فيه آخر وينفيه. والحقّ أنّي لم أعدّل في المكتوب شيئًا وما أضفتُ حرفًا أو شطبتُ كلمةً. بل نقلتُ ودوّنتُ ما عاصرت وعاينت، والسجلّات المُرفقة تشهد على ذلك.

ختامًا يا سيّدي المحرّر، إن كنتَ لهذه الأمانة قابلًا، فإنّك مُكلّفٌ بنشر النصّ الماثل بين يديكَ مُتضمِنًا هذه المقدّمة، مع تعديله حيث يجب، ولْتجتهد في جعله مُستساغًا سلسًا، وجانبْ تحوير محتوى السجلّات، وقائع كانت أم استنتاجات.

اللهم إنّي بلّغت، اللهم فاشهد.

المحامي

الجزء الأوّل

سجلّات عرفة

الزيارة الأولى

الإثنين، 5 محرم 1442ه

يقع سجن نوح خارج ضواحي المدينة الكائنة في أرضٍ صحراويّةٍ قاحلةٍ لم يُعرَف لها شجرٌ أو مرتعٌ ظليل، حتّى إنّك عندما تلوح لك أبعاده وأطلاله عن بُعد تكتظّ في داخلك مشاعر شتّى، فتلك المسحة الوحشيّة، الصخريّة، العسكريّة، الصحراويّة تُبلّد الجسد وتُؤجّج الأحاسيس. والمكان برمّته يُخيّم عليه صمتٌ يُثقلُ الآذان، ولستَ تَسمعُ فيه إلا رياحًا عاتيةً تخدشك شظاياها وتزلزل كيانك، كأنها أصواتُ احتجاج القابعين في الداخل بأفواهٍ مخيطة، فلا صريخ لهم ولا هم يُنقذون.

ويمتدّ سور السجن الحصين الرصاصيّ المتآكل مسافة يصعب حصرها كحال أزمنة البطش القاهرة... ويتجاوز ارتفاعه أربعة أمتار تستقرّ أعلاها سلسلة أسلاك شائكة. لكنّ جُزءًا من السور يكاد يتهالك، ويمكن الجزم بأنّ عوامل التعرية الفاتكة قد جرّدته من أيّ أملٍ لتقويمه. وإذا تأمّلنا المنطقة عمومًا ألفيناها خاليةً من أيّ خدمات تجاريّة أو محطّات نفطيّة تبعًا لخلوّها من السكّان، ولن يخفى عن الناظر ما وراء هذه العزلة من دلالات القمع والعدم والخواء، وهي

واقع مفروض لا على السجين فحسب، بل على أهله أيضًا.

بعد تجاوزي الثكنات العسكريّة تحت الشمس اللاهبة، بلغتُ السور المُتهالك وأوقفت السيّارة، وصَدَفَ أن فُتِحت البوّابة الصدئة ومرّت عبرها عربةٌ كبيرةٌ (صدئة أيضًا) مثيرةً حولها الغبار رغم انخفاض سرعتها. وإذ تمعّنتها وهي تبتعد بتمهّل عن السجن بدت لي شبيهة بعربات نقل الموتى. تقدّمتُ نحو صندوق خشبيٍّ مُتآكلٍ في داخله مكتبٌ متهالكٌ يجلس وراءه حارسٌ تبلّل قميصُه بالعرق عند الإبطين، ومن صدره حتّى بطنه، وفاحت منه رائحة السجائر الخانقة، وهو لا ينفكّ يستجدي نفحة هواء من مروحة صدئة بجانبه. ولقد عسُر عليّ استقراء ملامحه، فوجهه لا يُفصح عمّا يفكّر فيه، حتّى إنّي كنتُ كالناظر إلى بابٍ مغلق. سألته مُتشائمًا عن العربة الكبيرة التي غادرت فأكّد لي أنها عربة نقل الموتى، وإذ سألته أيضًا عن مراسم الدفن أشار إلى تلّةٍ قصيّةٍ مُسوّرةٍ بقضبان حديديّة، وأعلمني أنّهم إثر الجائحة صاروا يدفنون الموتى هناك احترازًا وتوقّيًا، فتجنّبت سؤاله عن حضور الأقارب وطقوس دفن الميّت وقد تكدّر قلبي من مرأى العربة العابرة.

تجاوزتُ بوّابة السور الثقيلة، ودلّني مرافقي على دهليزٍ شغَلَت جانبيه مجموعة مكاتب صدئة تُضيئها مصابيح كهربائيّة. وكان أوّل ما استقبلني هناك رائحة الغبار المتراكم التي انسلّت إلى حواسّي وجعلت عينيّ لا تكفّان عن السيلان، وكذلك أنفي. وسرعان ما انتابني شعورٌ خانق بأنّ الغبار يغلّف كلّ ما حولي: ممرّات الدهليز،

والجدران، والمصابيح المُضاءة والمُطفأة، والهواء، والروائح على اختلافها... حتّى روائح موادّ التنظيف الباهتة تشبّعت بالغبار فباتت تكتم الأنفاس. وبتواتر نظري إلى بعض العابرين بين الفينة والأخرى خطر لي أنّ الغبار لم يترسّب على وجوههم فحسب بل مرّ تحت جلدهم واختلط بدمائهم، كأنّما هو جزء من تكوينهم، وأنّ تلك الذرّات الشبيهة برماد الجمر أضافت إلى المُقدّر من أعمارهم أعوامًا وجرّدت ملامحهم من أيّ انسانيّة، حتّى ليحسبهم من يراهم عازفين عن الابتسام، فإذا ابتسم أحدهم بدا له شاذًّا كالحًا.

وإلى جانب الباب كُتب على لوحة خشبية ما يلي:

«عقاب المجرم واجب وحقّ ولو لم تكن له نتيجة غير جزاء العمل بمثله ومقابلة الإضرار بالإضرار. فإنّ العدل الربانيّ يأمر بأنّ من يُؤلم يتألّم ومن يُسِئ يُسَأ.

الخليفة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه»(3).

قادني مرافقي عبر دهليز إلى غرفة مكتبٍ مغلقة، وانتظرنا برهةً حتّى فُتح الباب وعبر منه حارسٌ عملاقٌ يدفع سجينًا يرتدي أسمالًا رماديّة بالية، وقد توزّمت قدماه فصار يمشي مُتلكّئًا، تاركًا خلفه آثارًا داميةً تمسح غبار الدهليز، وعلى وجهه أخاديد من الألم والضعف...

داخل الغرفة رأيتُ كرسيّين وطاولةً مستطيلةً، ومرآةً مكسورةً، وموقدًا كهربائيًا صغيرًا، وملفّات وأوراقًا وجرائدَ مبعثرةً بجانب الطاولة، ورقيبًا عبوسًا فاح مكتبه بخليط روائح امتزجت فيه عطور مختلفة، برائحة التبغ الرخيص، ورائحة الشاي المُغلّى زيادةً على روائح العرق والأرجل والدم. لقد شهدت جدران المكتب وأركانه ألوانًا من العذاب والتنكيل. فتراكمت تلك الروائح والمشاعر وهجمت على أنفي وعقلي كالمسامير باعثة فيّ رجفةً ورهبةً.

احتسى الرقيب رشفاتٍ من كوب الشاي على مهلٍ ثمّ ألقى أمامي أوراقًا لأوقّعها، وطلب منّي إفراغ ما في جُعبتي من أجهزة إلكترونيّة (مثل الهاتف الخلويّ ومفاتيح السيّارة) فناولته ما لديّ، وأظهرت له في الآن ذاته جهاز تسجيلٍ امتنعتُ عن تسليمه إيّاه، وإذنًا من «هيئة السجون والإصلاح العامّة» بإدخاله معي. وإذ شرع يُمحّص المكتوب وعلى وجهه المُغبرّ أمارات عدم الفهم أيقنت أنّه شبه أمّيّ، لكنّه ميّز الشعارات واللغة الصارمة فسمح لي بالعبور برفقة حارسٍ آخر قادني إلى نهاية الدهليز.

مع اقترابنا من البوّابة المُصفّحة اخترقت أنفي رائحة شنيعة أشعرتني بغثيانٍ شديدٍ، ورغبةٍ مُلحّةٍ في التقيّؤ، وبمجرّد أن عبرناها وعرفت مصدر الرائحة، فهمتُ حاجة الرقيب إلى تبخير مكتبه وتعطيره بكلّ تلك العطور.

والحقّ أنّ ما رأيته خلف البوّابة هالني وزلزلني.

كان هناك ممرٌ طويلٌ على يمينه قضبان حديديّة تبدو بلا نهاية، وخلف القضبان قاعة التوقيف المربّعة بأرضها الزفتيّة ودِكاكها الإسمنت وجدرانها الملطّخة بالحبر والدم والقيء، وكانت الأرضيّة الداكنة ذات برك نتنةٍ تراكم فيها بصاق ورذاذ بول وعلب ماء وبقايا طعام وقصاص شعر ومناديل قذرة، وبفعل القيظ اشتدّت روائحها وانهالت على أنفي كاللطمات فتفاقم سيلانه واسودّ، وانشدّت رئتاي كقبضتي الملاكم.

وعلى مرمى البصر توزّعت أفواج سجناء حفَرَ العرق والدمع شقوقًا في وجوههم المغبرّة، وكلٌ منهم يحمل بطانيّة بحرص، بعضهم مُقرفصٌ على الدكاك الإسمنت، والآخرون واقفون طوابير مُتباعدة، ويتحرّكون بتؤدة أمام عسكريّ جالسٍ خلف طاولة من الخشب يسجّل بياناتهم قبل أن يقودهم آخر إلى ركن حلاقة الشعر. وجميعهم سحناتهم متكدّرة، وجحافل البعوض والناموس ودود الأرض لا تنفك تُهاجمهم، والحرّاس يدورون حولَهم متربّصين، وفي أكثر من مرّة رأيتُ حارسًا يصفع قفا أحدهم أو إليته إذا ما تنحنح أو تحدّث. وكلّما تحرّكوا خطوة إلى الأمام يُسمع حفيف أقدامهم المتورّمة، وكأنّهم عيدان أراك مُصفرّة تتقاذفها الرياح كيفما شاءت. وكانوا جلّ الوقت صامتين، لكنّ صمتهم صاخب كقرع الطبول، يؤذي الآذان ويُجزع القلوب.

في طرف القاعة الكبيرة، رأيتُ غرفةً بلا باب فيها مرحاض مكشوف تناثرت حوله القاذورات من براز وبول، وقد اصطلت

بشمس الظهر فأطلقت أشنع الروائح وأعطنها وتكاثف فوقها الذباب. أمسكت بيد مرافقي راجيًا إيّاه أن نخرج بسرعة، فابتسم راثيًا لحالي وقادني إلى بابٍ حديديّ كبير، وفي اللحظة نفسها انفجرت خلفنا فجأةً عاصفة من الشتائم البذيئة أطلقها أحد الحرّاس تُجاه سجين انهار في موضعه، فلمّا أظهرتْ الامتعاض همس الحارس لي أنّ هؤلاء «النزلاء» وفدوا إلى هناك من سجون مختلفة في سياق إجراءات التخفيف من اكتظاظ السجون إبّان الجائحة، وأوضح أنّ قاعة الحبس تلك مؤقّتة حتى تستتبّ الأمور، كأنّه يطمئنني بافتراض أنّني لن أرى ذاك المنظر في زياراتي التالية، لكنّه كان مخطئًا، فعلى مدار ثمانِ زيارات، ظللتُ أعاني من عبور ذاك الدهليز وذاك الدرك.

تجاوزنا البوّابة الحديديّة إلى دهليز آخر طويل فتضاءلت الضوضاء، وقابلتنا على طرفي الممرّ غرف اللقاء المتلاصقة. وكانت بعضها مُواربة الأبواب فرأيت سجناء ينتظرون ممثّليهم القانونيّين. منهم من بدا ذاهلًا، ومنهم من غلبته دموعه، فضلاً عمّن اعتادوا الأمر.

وكان جلّ ما أعرفه عن عرفة بن الإمام آنذاك أنّه شابٌّ غضٌّ رقيقٌ، فلبثتُ أتساءل: «كيف واجه كلّ هذه المشاقّ والمحن؟» ثمّ أدخلني الحارس حجرةً وأغلق الباب ورائي فوقفت لأتأمّل مكاني، وإذا هو حجرة مستطيلة مقسومة في المنتصف بصفيحةٍ زجاجيّةٍ سميكةٍ توسّطتها ثقوبٌ مدوّرة مُفرغة جُعِلت لعبور الصوت والهواء، وعلى

كلّ جانبٍ من الصفيحة استقرّ كرسيٌّ حديديٌّ معظمه صدِئ. وقد فاح هواء الحجرة بعَطَنِ الدموع والقهر والآمال البائدة.

هناك، جلست على كرسيّي مُنتظرًا حُضورَ مَن عُهد إليّ الدفاع عنه.

***

- أهلًا عرفة.

- مرحبًا حضرة المحامي...

تبادلنا التحيّة وكلّ منّا يُمحّص الآخر ثمّ بادر عرفة بسؤالي:

- خيرًا؟

- أوّلًا أشكرك على قبول اللقاء و...

انتابني شيء من الارتباك وأنا أحاول ترتيب الكلام قبل إلقائه على مسامعه، ولم يفته ذلك فسألني بلهجة لا تخلو من الاستدراج:

- وثانيًا؟

- ثانيًا أنا متألّم لحالك ومشفق عليك فأنت على ما بدا لي من شهادات مَن عرفوك شخص طيّب الخُلُق حسن السلوك جدير بكلّ

خيرٍ، ولهذا لن أدّخر جهدًا في الدفاع عنك.

- لكنّي لم أطلب من أيٍّ كان توكيل محام للدفاع عنّي، فكيف وقع توكيلك؟

- ولِمَ لم تفعل؟

ألقيت عليه السؤال بتودّد خفّف من حذره فأجاب من دون تردّدٍ:

- لأنّي عالمٌ بجرمي، معترف بما اقترفت يداي، ولست مستنكرًا لعقوبتي. حتّى إن استنكرتها ستنالني يد العدالة لا محالة. ولك أن تعدّ هذا اعترافًا... حسن، لقد أزهقتُ روحًا وحُقّ عليّ القِصاص، وما دمنا بشرًا فنحن في جميع الأحوال فانون، وإلى التربة عائدون، فما الضير إن تقدّم الميقات؟

وبعد أن صمت برهةً وكأنّه تخفّف من عبءٍ ثقيلٍ عاود الاستفسار:

- حتّى الآن لم تقل لي من الذي كلّفك بالدفاع عنّي؟

- كلّ ما أستطيع قوله إنّه فاعل خير.

- فاعل خير؟!

- أجل، فاعل خير يأبى ذكر اسمه

- حسن، وما الذي جعل فاعل الخير هذا يمدّ لي يد العون؟

- لا أدري، والحقّ أنّي لم أسأله، ولكن دعني اسألك أنت، ما الذي حملك على لقائي ما دمت غير مقتنعٍ بجدوى دفاعي عنك؟

ما إن ألقيت عليه سؤالي ذاك حتّى اربدّ وجهه وازداد أسًى ولم يلبث أن قال وبصره زائغ كأنّه يُحدّثني ويُحدّث نفسه في الآن ذاته:

- لقد سألتُ نفسي السؤال عينه مُستغربًا عدم تردّدي في قبول اللقاء، وانتهيت إلى أنّ علّة ذلك هي رغبتي الجامحة في الفِرار من عتمة الوحدة والعزلة، وأملي أن يخفّف وجودي هنا من غمّتي. فهذه الحجرة الضيّقة، يُمكن عدّها من مظاهر الترف إذا ما قورنت بسردابي.

أشعرتني كلماته بالحرج فبادرت بإبداء أسفي قائلاً:

- يجدر بي أن ألتمس منك العذر عن تأخّر قدومي إلى هنا، فبسبب الجائحة اضطرّوا لتقنين الزيارات. أحسبك لا علم لك بذلك، ولا بأنّهم قرّروا دفن موتى سجن نوح المصابين بالوباء في مقبرةٍ نائيةٍ، من دون حضور أهلهم أو الصلاة عليهم...آه... اعذرني... لا أريد أن أفاقم همّك...

- لقد واجهت أهوالًا كثيرة على امتداد حياتي، والآن وقد جفّت

الأقلام وطويت الصحف لا أجد في نفسي أيّ اهتمام بما سيحدث بعد مماتي...

- حماك الله وعافاك، وأكرمك في محياك ومماتك. إنّما أردت إطلاعَك على ما قد يخفى عنك من المُستجدّات، واعلم أنّ كلّ لحظة أمضيتُها في انتظار الإذن لي بزيارتك اغتنمتها لمعرفة أطوار جُرمك وقصوده بحسب لائحة الاتّهام. وخلاصة هذه اللائحة، حتى تكون على بيّنة، اتهام مدّعي النيابة العامّ لشخصك بجريمة قتلِ العجوز المدعوّة حليمة، في بيت أهلها. ولا بدّ من القول إنّ الحريق الذي افتعلتَه لم يؤدِّ إلى وفاتها مباشرة، فالحقيقة أنّها أُصيبت بحروقٍ جسيمةٍ استوجبت نقلها إلى قسم العناية المركّزة ثمّ تُوفّيت هناك بعد أيّامٍ معدوداتٍ.

- إيه...

- أليس لديك تعليق على هذا؟

- وماذا بقي في جعبتي لأقوله؟ ووضعي هذا لا ينفعه ندم ولا أسف... حتّى إنّي لأستغرب أن يُكلّفك فاعل الخير المزعوم بالدفاع عنّي والكلّ يعلم أنّي أقررت بصنيعي للمحقّق وزبانيته، فبصّمني على إفادتي وأدانني بها...

- لقد حثّني من وكّلني على غربلة المعطيات وإحقاق الحقّ، ولأجل ذلك عليك أن تروي لي ما كان من أمرك قبل حبسك، عسى أن أجد

بين ثنايا كلامك ما به أهتدي في صوغ مرافعتي، ويُوفّقنا الرّحمن إلى إسقاط الحكم الأقصى.

- يبدو لي من كلامك أنّ صاحب الاسم الخفيّ حريص حقًّا على إنقاذي، ولم يقصدك كَرهًا أو على مضضٍ، أليس كذلك؟

- بلى.

- مُحال إذن أن يكون أبي، فذاك قلبه كزبرة الحديد لا يرقّ ولا يرحم، وطوال حياتي لم أتلقّ منه إلّا الازدراء.

ألقى عرفة جملته الأخيرة مطرق الرأس وكأنّه بصدد استعادة صور من الماضي ثمّ رفع نظره إليّ وسألني:

- ألا ترى فيّ مُجرمًا جلب العار والهوان لنفسه ولكلّ من عرفه ويستحقّ القصاص؟

- ربّما هذا ظاهر حالك، لكنّ مراجعتي ملفّك أوضحت لي خلوّ تاريخك من السوابق، زد عليه أنّ كلّ الذين أدلوا بشهادتهم ممّن عرفوك أشادوا بك وبسيرتك... وقد يُسعفنا ذلك في تأسيس لبنة أولى للدفاع عنك.

- لكنّني مُتّهمٌ بقتل امرأة عجوز، ألا يجعلك ذلك تزدريني أنت أيضًا وقد أصبح اسمي مضغة تلوكها أفواه الشامتين؟

- أنا مُحامٍ وواجبي يقتضي أن أتبيّن حقيقة ما نُسب إليك من أفعال، فإن كانت لا تحتمل الدحض انصرفت إلى تمحيص حالك إبّان إتيانها، لعلّي أجد قرينةً تُرجّح براءتك، أو على الأقلّ تُفيد في التخفيف من عقوبتك.

- أليس توقيعي وبصمتي على الإقرار كفيلين بوصد باب الاستئناف أو النقض؟

- في معظم الأحيان نعم، لكنّ ثمّة أربعٌ كلّهنّ كره: السجن والضرب والوعيد والقيد، وأخالُك عانيت منها ما عانيت. والنبيّ عليه الصلاة والسلام قال: «وُضع عن أمّتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه..» وهذا ينطبق عليك. فهلّا حدّثتني عن حالك في الداخل؟

- لا أحسبك قلت هذا جُزافًا، أهالك مظهري الرثّ؟ أم آذتك رائحتي؟ حسن، سأجيبك. في الماضي كنت شابًّا بهيّ الطلعة موفور الصحة، ذا بنيان حسَنٍ، وظهرٍ مستقيمٍ. أمّا كلوحي الظاهر الآن فمن شدّة كربي في هذا المنفى، وقد أصابني ما أصابني فتخلّل شعري الأسود القذى والبراغيث والقمل، وتورّمت عيناي وتآكلت أسناني وتقشّر جلدي. وكيف لا تكونُ الحالُ الحالَ وأنا أقبع في سرداب صغير كأنّه أتون يُلهبه الصيف فيتحرّقُ فيه بدني الوسِخُ وتنبعث منه روائح الجيف المتفسّخة؟ حتّى رئتاي نخرهما الهواء الفاسد. وفي دركي الأسفل ذاك ما انفككت أتقلّب على جمار الحيرة والترقّب واليأسِ، وقد وُئد النور ونُكس الرّجاء. يتآكلني الندم والسؤال: كيف

آل حالي إلى ما أنا عليه؟ أي أقوالٍ تقوّلها الناس عنّي... أنا عرفة بن الإمام؟ وبأي النعوت نعتوني؟ وكم مرّة ذكروا سيرتي وجريمتي؟ ويحي! كأنّ أعينهم وأفكارهم تجتازُ أسوار السجن فتخزني وتنفذ تحت جلدي لتلتهم قلبي.

لقد جرّتني عُزلتي في السرداب إلى طرق الويل والوبال...

- هوّن عليك، عسى أن يُقيّض الله لك خلاصًا من كلّ ذلك.

- خلاصًا! من ماذا يا حضرة المحامي؟ أمن سردابٍ لا يزيد طوله وعرضه على مترين، أرضه إسمنت خشن، يتجاور فيها المرحاض والدكّة التي عليها أنام؟ أم من الطعام الذي تعافه الكلاب وأتناوله صاغرًا في دورقٍ بال؟ أم من نتانة رائحتي جرّاء قلّة الماء وشدّة الحرارة؟ أم من سطوة الوحدة وهواجس الذنب؟ تخيّل أن تحيا في مكان يُغلّفه الصمت طوال الوقت حتّى إنّك لا تكفّ عن رصد أي نأمة قادمة من العنبر المجاور، ولكن هيهات! فمن يجرؤ على رفع صوته تناله سياط السجّانين وتركله أحذيتهم الثقيلة، ونتيجةً ذلك المحتومة صيام الجميع عن الكلام. والأدهى من كلّ ما سلف هو التدهور المستمرّ لصحّتي، وبالأخصّ بصري المتأرجح بين خفوت الضوء وغيابه التام، والمحروم من إمكان تشييعه إلى البعيد، وأنفي المتأذّي من تواتر الروائح الكريهة: الخشب المتفسّخ، والغبار الرطب، وبخار المرحاض. لا أعلم ماذا بقي من عرفة الذي كان لكنّي أعلم الكثير ممّا تغيّر فيه، لقد أصبح لعابه أبيض كالبهاق وصوته متحشرجًا وعميقًا كأنّه آت من بئر. واكتسب قدرةً على

استشعار مَقدَم زبانية العنبر قبل أن يحدث، بشمّه عرق جلودهم وتبغ سجائرهم... أما سجناء العنبر المجاور الذين يتوق إلى سماع أصواتهم فهم أنفسهم مصدر بلاءٍ دائم له، إذ يطوّقه سفهك(4) أبدانِهم العفنة وقيئِهم وبولِهم. وكلّما احتلم بعضهم أو احتلبوا استجلابًا للنوم، وفاحت رائحة المنيّ فبلغته، استبدّت به التساؤلات عن فتور شهوته وأشواقه.

- ما بالك تدلك كتفك مرارًا وتكرارًا؟

- الوجع فيها يكاد لا ينقطع... والأرجح أنّ نومي على الدكّة الإسمنت هو سبب الأذى، فتلك البطّانية لا تسمن ولا تغنِي من جوع، ولكن يجوز أيضا أنّه من مُخلّفات الهجمة...

- هجمة؟

- آه... إنّها من بركات الشيخ وثوره، لقد مكّنه منّي فهتك بدَني هتكًا...

- أعوذ بالله! ماذا حدث؟

- خلال يومي الأوّل في الحبس، أي قبل أن أعرف دستور العنبر وآدابه، تلقّيت درسًا لا يُنسى. كنت لحداثة عهدي بالمكان القميء قد استوحشت وظللت ساهرًا الليل كلّه، حتّى إذا اقتربت ساعة الفجر

أخذتني غفوة من فرط تعبي وإنهاكي فلم أصحُ للصلاة، وبينما أنا نائم تلقّيت ركلة أيقظتني مذعورًا، وإذا سجّان العنبر «الشيخ إدريس» واقفٌ عند رأسي. وهو رجل ماقت، ممقوت، لئيم، أعيته سمنته وبلادئه... ومن دون مُقدّمات أعلمني بأنّه الآمر الناهي في العنبر، وعندما يقيم الصلاة لا بدّ أن يصطفّ السجناء في زنازينهم. وعبثًا شكوتُ له تعبي وقلقي، فوالله لو شكوت لطوب الأرض لكان ذلك أجدى وأسلم. لقد وبّخني اللعين قائلًا إنّ الفرض لا يُؤخّر، فغلت الدماء في رأسي ورددتُ عليه بأنّ ذاك شأني مع خالقي، وكم استغربت اكتفاءه بالنظر إليّ من أسفل إلى أعلى قبل أن يُوليني ظهره ويذهب تاركًا إيّاي أتنفّس الصُعداء، لكنّه شرعان ما عاد وبرفقته رجلٌ مدكوكٌ كالثور، أشدّ ما أرعبني فيه أنّه غطّى وجهه بكيسٍ من الخيش مُلطّخ بالدم ومثقوب عند الأنف والعينين! وحتّى والوجه محجوب استشعرت من جسده ووقفته قسوةً حيوانيّةً وحشيّةً وهو يُنقّل بصره بيني وبين الشيخ الذي توجّه إليّ بكلمات كالسمّ الزعاف خرجت من فمه وأنفه معًا: «لا أحد يسودكم في هذا العنبر سواي، كلّكم تحت قدميّ». وفي تلك المرّة ردعني منظر الثور المتربّص بي فالتزمت الصمت. ولم يخف ذلك عن الشيخ وهو يستطرد مزهوًّا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ وأتبع قوله بلكز رأس الثور الواقف بجانبه فاندفع صوبي وركّل بطني ركلةً أردتني أرضًا وأنا غير واعٍ بما يحدث، وإثر سقوطي، تمكّن منّي تمامًا فطحن صدغي بركبته ولكم صدري وبطني وخصيتيّ ونهشني من كلّ موضعٍ بغير تمييز... ثمّ أخذ يشدّ شعري ويعضّ كتفي، وألمي يتفاقم ويتراكم وقد احتبست

أنفاسي وتشنّجت رئتيّ حتّى خلتهما ستنفجران. ولمّا حاول البهيمة غرز أصابعه في وجهي نهره الشيخ ادريس صارخًا: «لا تمسّ وجهه!» وركله في دبره فأفقده توازنه وحرّر رأسي من يديه، ولا أدري أخيرًا فعل بي أم شرًّا، إذ نجم عن صنيعه ذاك وابل من الركلات سدّدها وحشه المفوّض إلى جسمي احتجاجًا على حرمانه النيل من وجهي، وكان مع كلّ آهة أطلقها أو شهقة أشهقها جزاء انقطاع الهواء عن رئتيّ، يزداد اهتياجًا وتوحّشًا... ما زلت أذكر أنفاسه الحارّة القذرة، وشخيره الحيوانيّ، وبالأخصّ تلك اللحظة التي رأيت فيها الشيخ يُشعل سيجارة وهو يُتابعنا صامتًا نشوانَ، وأظنّه لم يُكملها إلّا وأنا مُغمى عليّ... وبعد مدّة ما هي بالقصيرة أيقظني عطشٌ حارقٌ وطنين في إحدى أذنيّ وألم مضنٍ مستشرٍ في جميع أنحاء بدني، فوجدت نفسي مُلطّخًا بالدم والدموع والتراب، مسدوحًا مدحورًا في بركةٍ من عرقي وبولي... ثمّ علمت لاحقًا من رفاق العنبر أن الذي ضربني سجين مثلي، أمّا تغطية الرأس بكيس من خيش فحيلة ابتدعها الشيخ الخبيث منذ زمنٍ، ليَخفَى المعتدي عن مساجين العنبر و«يضيع الدم بين القبائل». وأكّد البعض همسًا أنّني لن أغنم أيّ فائدةٍ من تحرّي هويّة ذاك السجين المجبور، فما هو إلّا عبدٌ مأمور، ككلّ زملائه في العنبر. وأفهموني أنّ الشيخ يترفّع عن ضرب مخالفيه بنفسه تجنّبا لإنهاك جسمه وإبلاء ملابسه وهو في غنى عن ذلك... وانتهى الأمر بأن يئست من وجود صديق حقيقيّ هناك يُعتمد عليه، وحين وقع نقلي بعدئذٍ إلى حبس فرديّ أدركت قيمة الوجود بين الناس حتّى لو كانوا مجرّد غرباء.

- أعدك أن أزور إدارة السجن وأبلغهم بما رويته لي فذلك لا يُسكت عنه...

- إيّاك أن تفعل! أرجوك!

- لماذا؟ وما بالك انزعجت على هذا النحو؟

- لأنّ ذلك الشيخ الكريه لن يردعه رادع، بل سيزيد أذاه وبلواه، ولا أحد سيتدخّل، صدّقني، ستعدَم أيّ دليلٍ ضدّه، ولن يتحدّث أيّ من مساجين العنبر بما يعرفه لأنّه سيعاني، فتقلّ مؤونته ومياهه ويحرم رسائل أهله ومعونتهم. لن يضحّي أحد بتلك النفائس دفاعًا عنّي... أرجوك... اعدل عمّا نويته فما كان حديثي إليك إلّا جوابًا عن سؤالٍ عارضٍ، وتخفّفًا من بعض كربي...

- لا حول ولا قوّة إلا بالله...

- خذ بنصيحتي ودعك من هذا، ولنركّز على ما نحن بصدده الآن. خبّرني، كيف تنوي الدفاع عنّي وقد أطبقت كمّاشة القانون عليّ؟

- عليك التحلّي بالإيمان والتضرّع لربّ العالمين طلبًا لرحمته، وعليّ الأخذ بالأسباب لأجد منفذًا بإذن الله.

- آهه... ما أخطر ما تقوله... فشتّان بين أحكام الله والرسول وما يفرضه النظام والقانون، والأمل في مثل حالي ضرب من التوهّم...

لكنّ كلامك أشبه بواحة بهية لضائعٍ في بيداء رمضاء. فمنذ أن زُجّ بي هنا وأنا أُذكّر نفسي لئلّا يزعزع الحبس إيماني بالمولى عز وجلّ وثقتي به وبتمام عدله سبحانه، فداومتُ على الصلاة وتلاوة ما تيسّر من القرآن. ولطالما استوقفتني آيات الصبر والاتّكال وأجّجت صدري وعيني... ما بالك تنظر إليّ باستغراب؟ آه! ألأنّي ذكرتُ الله مُسلّمًا؟ أخالك تحدّثت إلى والدي فاتّهمني بُهتانًا بالإلحاد، أليس كذلك؟ كيف لي أن أداوي ما يعتمل في صدرك وتفضحه تقاسيمك؟ إنّ أبي على الأرجح يكره إلحادي أكثر من جريمتي. وهو فوق ذلك مُصرّ على وصمي به رغم إنكاري، وقد دأب الطعن في إيماني قائلاً: «حتّى الحمار لا يقول أهلاً بالنار». حسن، أؤكّد لك أنّني مؤمنٌ مُسلمٌ شاهدٌ أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا عبده ورسوله، وأنّي أُصلّي، وأقرأ القرآن، وأصوم رمضان. أمّا الشبهة التي ألّبت عليّ أبي فسأتحدّث عنها لاحقًا.

أرى بحوزتك جهازَ تسجيل. أحسنت، فلديّ الكثير لأدلي به... آه اللعنة على كتفي! كم تؤلمني!... اعذُر تشتّت أفكاري وحديثي، إنّها لعنة العزلة والصيام عن الحديث تدفعني لاستفراغ ما في نفسي ولو بغير نظام. لقد مررتُ بأوقاتٍ زيّنت لي نفسي فيها فكرة التظاهر بالجنون لعلّهم يُقدّرون أنّ مصحّةً نفسيّةً أنفع لي من السرداب... وفي مرّات عديدة أخرى كنت قاب قوسين أو أدنى من الانتحار!

- تعوّذ من إبليس يا عرفة!

- إن هي إلّا أفكار سوداء تمرُّ بخَلَد أيّ سجين يا حضرة المحامي،

وما ذكرتها إلّا لأتخلّص منها، فهي ابنة الوحدة والعزلة. حسن، سأقلّل من استطراداتي تجنّبًا للإطالة فالوقت محدود. تفضّل، أنا طوع أمرك؟

- أرجو أن تُعرّفني بنفسك... حدّثني بكل صغيرة وكبيرة، ولا تسقط أيّ أمر ولو بدا لك تافهًا فقد يكون فيه خلاصك من دون أن تدري.

- لطالما وجدتُ صعوبة في الحديث عن نفسي، فما أنا إلّا شابٌّ بسيطٌ أنهى دراسته الجامعيّة من دون أيّ تخطيط للمستقبل، سليلُ عائلةٍ صحويّة سلفيّة النهج، ميسورة الحال، والدي إمام مسجد الحيّ حاسم الآراء قاطعها، وحلمه الذي لا مندوحة عنه أن يرث ابنه الإمامة من بعده، حتّى إنّك إذا رأيته وهو يتغنّى بها متطاوسًا خلته يتحدّث عن خلافة الأندلس... وقد ترتّب عن ذلك أن سلبني حرّيّتي في استكشاف سُبلٍ أخرى غير التي ارتآها لي، ولمّا سألني ذات يوم عن مستقبلي وأخبرته بميلي إلى التاريخ والأدب اشتاط غضبًا وسخطًا، مؤكّدًا أن لا وظيفة أقرب إلى الصراط من وظيفته، وأنّ الصواب أن أرث عنه ما ورثه عن أبيه، ثمّ دفعني دفعًا إلى حلقات القرآن ومجالس شيوخه، ومن فرط سذاجتي حاججته بأنّ جبران ينهى عن هذا النوع من التربية(5)، فشتمه وشتم أمّه وأعضاءها التناسليّة... ولكنّ لنقمة أبي أسبابٌ أخرى سأخبرك بها في الوقت المناسب.

- لِمَ لا تذكرها الآن؟

عقب طرحي السؤال لبث عرفة لحظات يُمحّص تخميناته التي أعلنها من قبل ثمّ قال وعيناه ترصدان تعابير وجهي:

- لقد حادثته بنفسك، ألم يخبرك بما كان؟

- صحيح، لكن أفضّل سماع كلماتك وروايتك الخاصّة للتفاصيل.

- لا ضير من تأجيلها قليلًا، دعني أكمل... آه... ماذا كنت أقول؟ حسن... لقد كسر نفسي باستبداده، وألجأني قسرًا إلى حياةٍ رماديّةٍ بينَ بين، فعشت في دارنا كالغريب اللاجئ، وجوهر المُعضلة أنّي منذ حداثة سنّي كنت توّاقًا إلى حياةٍ غير تلك القائمة، لكنّ ذلك عسير، ومُقوّضٌ للسكينة، فالإنسان إمّا يحظى بالحرّيّة أو بالطمأنينة، وقلّما يحظى بكليهما. وكي لا أكون حمارًا يحمل أسفارًا ارتضيت الحرّيّة المقترنة بالشقاء، مُفضّلاً السؤدد في الجحيم على العبوديّة في النعيم.

- كان الله في عونك.

- وتبعًا لكلّ ما سلف قرّرت أن أصونَ عقلي وقلبي من الرخائص التي خضع لها أقراني، وأعتزلَ صحبتهم، لأسمو في عزلتي مُصغيًا إلى وجداني، مُغرضًا عن اللغو والغيبة والتآمر. وبذلك أُتيح لقدراتي أن تنمو خارج دائرة المُلاحظة، كما ينمو الشعر أثناء النوم. وألوذ بالفنّ والمعرفة من سطوة حياة التفاهة والاجترار.

- جيّد أن ذكرت كلّ هذا، لكن دعنا نخوض في التفاصيل التي قادتك إلى حيث أنت... باختصار: كيف انتهى بك الحال من شاب سويّ السلوك إلى قاتـ... أقصد إلى مُتّهم.

- سأسرد الوقائع كما جرت، وَلْتؤوّل أقوالي لاحقًا. وأحسبك تعلم أنّي لن أسعى إلى تبرئة اسمي، بل سأروي ما رأيت وما سمعت وما خضت، متجاوزًا العموميّات -كما طلبت- إلى الأحداث التي صنعت مآلي. ولك مُطلق الحرّيّة في سؤالي عمّا قد أُسقطه سهوًا لتكون على بيّنةٍ من أمري. لكن أعلمني أولًا كم تبقّى لنا من الوقت لأُحسن الاختيار والاختصار.

- خمس دقائق

- ليست كافية! لكن لا بأس.. سأقتصد وأرسم لك الخطوط العريضة وأوصيك بعض الوصايا لعلّك إذ تقوم بتحرّياتك تصيب قبسًا من علمٍ.

بدأ كلّ شيء بمكالمة هاتفيّة من شابّ متحمّس اسمه «حمدي وائل» أخبرني أنه مدير مجلس «ثلوثيّة الثقافة» الأسبوعيّ الذي يُعقد كلّ ثلاثاء (وهذا بيّن من الاسم). والحقّ أنّه بدا لي لزجًا ثقيلًا غير ذي فكرٍ أو نهج، رغم قناعته بعكس ذلك. وفي استطراداته الكثيرة كشف لي حداثة عهده بالقراءة، واصطفاءه من العلوم علم الطاقة وأسرارها، وطفق يصف التخاطر الفكريّ والذبذبات الروحيّة

وخباياها البادعة وتسخيره إيّاها لخدمته، ثمّ قال إنّه حالما اعتزم طرح موضوع الأفلام في إحدى الحلقات بلغهُ اسمي وضلاعتي في المجال، والتمس منّي الحديث أربعين دقيقة ونيف، فادّعيت كاذبًا أن الدعوة تشرّفني وأوضحت له في الآن ذاته أنّي لست من مُحترفي المجال بل مجرّد عاشق للسينما يُدلي بدلوه فيها عفويًّا، لكنّه أكّد لي أنّ ذاك عين مراده، لاقتناعه بضرورة حضور شخص من عامّة الناس يتحدّث إليهم بلا تنظير، ويبدي رأيه في الأفلام من دون التخصّص فيها، فوقعت في يده. واتّفقنا على الثلاثاء الثالث من الشهر. ولم أكن أُحبّ مخاطبة الحشود، سواء منهم العشرةُ والمئةُ. لكن من رحمة ربّي أنّ الحديث ليس في مكان عامّ بل عبر الأثير الافتراضي، وذلك ممّا اقتضته التدابير الاستثنائيّة منذ ظهور الجائحة. المهمّ أنّي شرعتُ في إعداد المحتوى كيفما يجب و... هاه! بسم الله! ما هذا الصوت؟

- لا تجزع، إنّه الحارس، لقد انقضى وقت الزيارة.

- آه، أعوذ بالله، ما أعنف طرقاته! إنّه أبو حمزة! ذاك بالذات لن يُمهلنا ولو دقيقةً أخرى! حسن، ستجد العرض كاملاً في الشبكة العنكبوتيّة، ابحث عن قناة اسمها «ثلوثيّة الثقافة»، وشاهد الحلقة قبل زيارتك المُقبلة، فجُلُّ ما خضته استُهِلّ في ذاك المساء.

مع السلامة، وبلّغ فاعل الخير تحيّاتي.

المُلحق الأوّل: لائحة التهم

لائـــحـــة دعـــوى عـــامـــة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيّد الأنبياء وخاتم المرسلين،
فإنّه وبصفتي المدّعي العامّ، في اليوم الثاني عشر من شهر ذو الحجة لعام 1441 الراهن، أدّعي على/

الاسم	**عرفة بن [redacted]**	**الجنسيّة**	[redacted]
العمر	29 سنة	**مكان الإقامة**	مدينة الدار، حي القبلة
المؤهّل التعليمي	مؤهّل جامعي	**الوظيفة**	تقني صوتيّات - أعمال حرّة في مجال الميديا والدعاية

وهو موقوف منذ اليوم الخامس والعشرين من شهر ذو القعدة لعام 1441، وذلك لارتكابه الجرائم التالية:

- اقتحام منزل المدرّس [redacted]، في حين [redacted]، ما أدّى لزعزعة أمن المنزل وقاطنيه.
- إشعال الحريق في منزل المدرّس [redacted]، ما أدّى إلى أضرار جسيمة وتخريب بعض الممتلكات (موثّقة بالصور في ملحق المحضر)
- إلحاق أضرار جسديّة بالضحيّة حليمة [redacted] (أم المدرّس [redacted]) أدّت إلى وفاتها بعد ثلاثة أيّام تحت العناية المركزة في مشفى "رسالة السماء".
- وقد قُبض على المتّهم المذكور بالجرم المرصود في شقّة المدرّس [redacted] بالتاريخ المشار إليه أعلاه.

وانتهى التحقيق بتوجيه الاتّهام إليه بما أُسند إليه وتبيّن منه. وبناء على ما تقدّم، أطلب أنا المدّعي العامّ ما يلي:

- يُحكم على المُدّعى عليه عرفة بن [redacted] بالعقوبة القصوى المتمثّلة في الحبس مدى الحياة.
- يتكفّل المدّعى عليه عرفة بن [redacted] بدفع تكاليف جبر الأضرار والتخريب في شقّة المدرّس [redacted]، وإذا عجز عن الدفع، تكفّل بذلك ذووه، وإذا عجزوا يُمنعون من السفر حتّى تتوفّر لهم المادّة اللازمة لتغطية التكاليف المستحقّة.
- يتكفّل المدّعى عليه عرفة بن [redacted] بدفع غرامة ماديّة للمدرّس [redacted] وعائلته نظير ما أُلحق بهم من ضرر نفسيّ وعاطفيّ، وإذا عجز عن الدفع، تكفّل بذلك ذووه، وإذا عجزوا يُمنعون من السفر حتّى تتوفّر لهم المادّة اللازمة لتغطية التكاليف المستحقّة.

والله وليّ التوفيق

يوم العرض
الثلاثاء، 15 ذو القعدة 1441 ه

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

أهلًا وسهلًا بضيوف ثلوثيّة الثقافة مُجدّدًا، ومرحبًا بكم في سلسلة مُحاضراتنا الافتراضيّة، كلّكم تعرفونني، أخوكم حمدي وائل، آمل أن تكونوا وأهلكم آمنين وسالمين في هذه الظروف الصعبة. حمانا الله وإيّاكم. طبعًا معظمكم يعلم متطلّبات الوضع الراهن، واضطرارنا لإلغاء الجلسات الحضوريّة(6) رغم أنّنا نفتقدها ونفتقدكم. لكن كما قلت لا يخفى عليكم أنّ للضرورة أحكامًا، ويجب أن نظلّ إيجابيّين حتّى نتجاوز عنق الزجاجة كأمّة واحدة وجسدٍ متماسك، فذلك هو السرّ العظيم الذي يزوّدنا بقوت يومنا. وبما أنّنا أعددنا سلسلة من المحاضرات قبل الجائحة سنحاول أن نلتزم بها. وسيقوم فريقنا بمنتجة المحاضرة بعد اللقاء ورفعها على القناة.

أعرّفكم بضيفنا اليوم، الأستاذ عرفة، إنّه إنسان لطيف تطوّع مشكورًا للتواجد معنا في برنامج هذا الشهر. وإليكم نبذة سريعة عنه: هو مهتمّ بالأدب والفلسفة بالإضافة إلى الأفلام كما سنرى بعد قليل. أما احترافه فهو تسجيل إعلانات ومذكّرات صوتيّة، وذاك يعني أنّنا اليوم سنستمع لنستمتع بخامة صوتيّةٍ خطابيّةٍ باذخةٍ. وحينما سألت ضيفي عن عنوان المحاضرة ومحتوى العرض أجابني

باقتضاب:

«الاستحواذ: مُقدّمة وجيزة في تاريخ العفاريت السينمائي»

لن أطيل، وسأقدّم له المنصّة، اكتبوا أسئلتكم في مساحة الدردشة، وسيجيب عنها عرفة متى استطاع، وسنَتلي حديثه فقرة أسئلة وأجوبة في نهاية اللقاء. تفضّل أستاذ عرفة».

«بسم الله الرحمن الرحيم، صوتي واضح للجميع؟ جيّد، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أولًا: أوجّه شكري لفريق الثلوثيّة على الفرصة الكريمة، ثانيًا، أشكر السادة الكرام على متابعتنا. أرى أنّ العدد بلغ حتّى الآن خمسين شخصًا. جيّد جدًا!»

«أستاذ عرفة... اعذرني على المقاطعة... في الواقع أردتُ أن أسألك سؤالًا عامًا قبل أن تخوض في تفاصيل محاضرتك...».

«تفضّل أستاذ حمدي».

«لماذا نشاهد أفلام الرعب؟ ما هي فائدتها؟ وما هي رسالتها؟»

«أوف! سألتني أمرًا عظيمًا! هممم، الحقّ أنّي لم أحضّر إجابةً دقيقةً لهذا السؤال. لكنّه يُفضي إلى مَبحثٍ مهمٍّ شغل جهابذة العلم والسلوك النفسيّ والسينمائيّ. وفي العموم من المنطقيّ جدًا أن نسأل: «لماذا نحرص على مشاهدة ما يبعث فينا تقزّزًا أو خوفًا أو

قلقًا قد يحرمنا النوم والسكينة؟» وهناك حالات مُوثّقة لجمهور أُغمي عليه أو استفرغ وهو يُتابع بعض أفلام الرعب في السينما... نعم السؤال وجيه... ويُتناول على أوجهٍ عديدةٍ، وأعتقد أنّ ذاكرتي ستخونني ولن أستطيع حصرها كلّها. حسن، أوّل ما يتبادر إلى ذهني هو أنّنا ونحن نشاهد أفلام الرعب ينتابنا ذاك الإحساس نفسه الذي يجعلنا نُخفّض سرعة السيّارة حين نرى حادثًا على الجانب الآخر من الطريق، ما هو ذاك الدافع المجهول؟ أهو الشماتة؟ أم الامتنان لأنّ القدر اقتنص غيرنا؟ لا أعلم، لكن لعلّ ذلك ما يخطر لنا حين نشاهد فيلم رعب آمنين في غرفتنا أو في قاعة السينما. وثمّة دافعٌ آخر هو الفضول، نعم، فضول الإنسان عامل مهمّ في اختيارات حياته، سواء وعى به أم لا، والعلم يقتل مصادر الفضول باستمرار، بالمشرح والمجهر والمعادلات، وكلّ همّه أن يُفسّر التجارب التي نخوضها ويُشرّحها ويختزلها إلى ذرّات وأنزيمات وكيمياويّات وما شابهها.... لذلك يثير فضولنا البدائيّ أن نشاهد أفكارًا عجز العلم عن تفسيرها فنعيش تجربة المجهول وغير المتوقّع، وليس من الصدفة أنّ أحد أشهر أنماط قصص الرعب المعروف باسم «الكوزميك هورور»... وترجمته الحرفيّة «الرعب الكونيّ»، من الممكن أن نُترجمه أيضًا -حسب رأيي- بلفظ «رعب المجهول»، فهو الرعب الذي لا تفسير له ولا فرار منه. ولقد نشأ هذا النوع في مطلع القرن العشرين حين أخذ العلم يشرح الأساطير والخرافات والخيال وحصرنا في تفسيراته الجافّة. واشتهر على يدي كاتب الرعب الأمريكيّ اتش بي لافكرافت، ولا بدّ من التنويه بأنّه كان تلميذًا نجيبًا لكاتب الرعب الأشهر إدجار آلان بو، الذي كتب قصيدةً مشهورةً بعنوان «سوناتا... إلى العلم»

افتتحها هكذا:

«أيَا العِلْمُ! أنْتَ الإبْنُ الحقِيقُ للزَّمَنِ الغَابِر،

يا مَنْ تُخْضِعُ كُلّ شَيْءٍ لعَيْنَيْكَ المُحَدَّقَتَيْن!»

وأحسب أغلبنا سمع عبارة: «الرهيب في أفلام الرعب لا يحتاج إلى تفسير، حسبنا أن تكون مصنوعةً بحرفيّة وإتقان!» إذن، نحن البشر في مستوى غير محسوس، نستأنس بفوضى الفضول والمجهول، أو ما وصفه فرويد بكلمة Das Unheimliche (داس أونخلايمتش)، وأتمنّى أن أكون نطقتها نطقًا صحيحًا! وهي كلمة تُحيل على التجارب العجائبيّة أو المخيفة، وبعضنا يجدها في ملاهي الرعب، أو في ألعاب الفيديو، والبعض الآخر يبحث عنها في الأفلام... وفضلًا عن كلّ ما ذكرته ثمّة إجابات كثيرة لا أستطيع حصرها هنا».

«كفيت ووفّيت أستاذ عرفة... لكن ممّا لاحظته عنك، وأنا لا أعرفك بالقدر الكافي، أنّك لا تقف عندها، أعني أنّك تبحث في خفايا الأمور وتحبّ أن تفسّر ما عسُر تفسيره!»

«طُوبى للمتناقضين! أولئك الذين يسألون ويبحثون ويجيبون ثم يقوّضون كلّ ذلك بحثًا عن الإجابة السامية! وتلك لعنتي الشخصية ففضولي هو بلواي!»

«لكن ألا ترى يا أستاذ عرفة أنّ هذه الأفلام تنمّي طاقةً سلبيّةً قد

تنعكس على حياتك؟»

«الحقّ أنّ كلّ شيء في الحياة سلاحٌ ذو حدّين، وللمرء أن يقرّر أيّ طاقةٍ يبتغيها ويتبعها، ولستُ ضليعًا ملمًّا بأمور تسخير الطاقة، لذا سأكتفي بهذه الإجابة».

«شكرًا جزيلًا، باشر العرض رجاءً...».

«طيّب، نتوكّل على الله. لقد تأمّلتُ كثيرًا في بنية ما سأتحدّث عنه، وهممت بتجهيز عرض تقليديّ، لكنّي عدلت عن ذلك ودوّنتُ نقاطًا تقودُ حواري، وراجعتُ بعض أفلام الرعب الكلاسيكيّة. والآن أودّ جسّ نبض الحضور، اكتبوا رجاءً في قسم الحوار فيلمكم المفضّل من كلّ أفلام الرعب، أو آخر فيلم رعب شاهدتموه... آه... جميل، أرى بعض الإجابات! كتب أحدكم «ذا شاينينج» المبنيّ على رواية ستيفن كينج، وأجزم أنّه يقصد نسخة ستانلي كوبريك العثمانيّة الكلاسيكيّة، وليس ما أجرمه ستيفن كينج حين كتب بنفسه سيناريو ثلاثيّة التسعينيّات. «بارانورمال أكتيفتي»؟ أبغُض تلك السلسلة كلّ البغض! فقد استُهلِك نمط «الكاميرا المحمولة» ولن يرقى في نظري أيّ فيلم أبدًا إلى مستوى «ذا بلير ويتش بروجيكت». أمّا فيلم «ساو» وأشباهه فلا يجوز تصنيفها في قائمة الرعب، بل تُصنّف جميعها أفلام غموض وإثارة مع شيء من القرف. وما أبغض ذاك النمط المسمّى في هوليوود «إباحيّة التعذيب». وماذا عن أفلام السلاشرز؟ أو المُقطّعين؟ أمثال مايكل مايرز وفريدي كروجر وسفّاح تكساس؟ لا تستهويني كثيرًا.. و«ذا رينج»؟ حسن،

أراه فيلمًا أنيقًا وجميلًا، لكنه لا يرقى إلى قائمة العشرة الأفضل لديّ، وهو يحظى بمكانة خاصة في هوليوود لأنّه أحد الأفلام المُستوردة من الشرق الأقصى وتُرجم بحرفيّة وإتقان. أرى من كتب «ذا أوْ مان»! آه! ما أقربه إلى قلبي! وأقصد طبعًا نسخة السبعينيّات الأصليّة.

أستغرب خلوّ إجاباتكم من الأفلام غير الأمريكيّة. ألم يُشاهد أحدكم سلسلة أفلام «سِجّينِ» التركيّة؟ أو فيلم «ريك» الإسباني؟ أنا مثلاً أعشق الفيلم الإيراني «أندر ذا شادو»، فهو يمتحن صبرك في بدايته، لكنه يُجبرك على إضاءة الحجرة في الجزء الختاميّ، أي «الثيرد آكت» بحسب تسمية جهَابِذَة السينما المتحذلقين! ولقد وجدته شبيهًا بفيلم الرعب الأسترالي «ذا بابا دوك بوك». ولكم أن تُضيفوا الفيلم الكوري «ذا وايلينج» إذ كان محبوكًا مُعقّدًا يدعك الأعصاب من بدايته حتّى النهاية. وباختصار كلّ هذه الأفلام التي ذكرت استمتعت بها.

ألا تستغربون خُلوّ الشاشة العربيّة من أفلام الرعب؟ فتاريخنا زاخر بقصص الجنّ والعفاريت قبل البعثة وبعدها، لكنّ الشاشة العربيّة تفتقر إلى ذلك الزخم. سأتجاهل ذكر أحدكم لمسلسل «جنّ» الأردني، فوقتنا محدود هنا ولا أودّ شرح عيوب المسلسل. وإذا أردتم رأيي في الخبر الذي ذاع مؤخّرًا عن اعتزام المخرج عمرو سلامة تصوير أعمال الطبيب أحمد خالد توفيق عليه رحمة الله، أقول وأنا المحبّ للطبيب الراحل وبطله الطبيب رفعت إسماعيل، «لا يسعني

إلّا التشاؤم!»

لو حاولتُ التطرّق إلى أنواع الرعب المختلفة لمرّ الوقت قبل أن أوَفيها حقّها، لذلك سأحدّثكم عن فيلم الرعب المفضّل لدي، وهو «ذا إكسورسيست»، أو «طارد الأرواح الشرّيرة»، وإنّي لأعُدّه الأب الروحيّ لعهد الرعب الهوليوديّ الفضّي. وأذكر أنّي اكتشفت هذا العمل عن طريق المرحوم السابق ذكرُه أحمد خالد توفيق حين كان يشير إليه في أعماله. ولقد تجنّب الدكتور الروائي طرح موضوعات الجنّ وحالات المسّ (أو الاستحواذ) خلال كتابته سلسلة «ما وراء الطبيعة» على امتداد 21 سنة، لما يحفّ بها من الجدل الدينيّ، وللسبب نفسه رفض الحديث عن رواية «طارد الأرواح الشرّيرة» للمؤلّف اللبنانيّ الأمريكيّ «ويليام بيتر بلاتي»، ولم يترجمها في سلسلته الأخرى «روايات عالميّة للجيب» رغم ولعهِ بالعمل وإشادته المستمرّة به خلال مسيرته في الكتابة. وأظنّه تجرّأ مع مرور الزمن، وإلّا ما كان خصّ الفيلم بفصل في كتابه «أفلام الحافظة الزرقاء» واحتفى به أيّما احتفاء.

ما أهميّة الفيلم؟

يُعدّ «ذا إكسورسيست» رائدًا في مجاله بالنظر إلى جرأة الفكرة والموضوع والطرح. حتّى بعد خمسةِ عقود لا يزال كذلك. ويجب الانتباه إلى أنّ موضوع الفيلم شذّ عن المعتاد في هوليود آنذاك، إذ اقتُبِست أفلام الرعب في مطلع القرن العشرين من قصص الرعب الكلاسيكيّة مثل دراكولا، ووحش فرانكنشتاين، والرجل الخفيّ،

وشبح الأوبرا، وغير ذلك. ثمّ تغيّرت الطروح بعد الحرب العالميّة الثانية مع تفشّي الخوف من الغزو الشيوعيّ البارد والخفيّ، فظهرت في الأفلام وحوش وكائنات فضائيّة تتجوّل بين البشر وكأنّها منهم. ووقع التركيز على فقد الإحساس بالأمان في الأماكن الحضريّة المعتادة مثل عمارة فيلم «طفل روزماري»، والمنزل والسوق في سلسلة أفلام «ليلة الموتى الأحياء»، وهكذا قدّمت تلك الأفلام رُعبًا واضحًا قوامه شرّ يشتهي التهامك أو احتِلالك. أمّا أن تشاهد مراهقةً يعذّبها رجيمٌ وتقفز فوق سرير غرفتها، وتُبرح أمّها ضربًا، وتقتُل، وتُثير الرعب والوجل في قلوب من حولها فأمر مُختلف. ماذا عن مشهد الصليب؟ لعلّه من غير اللائق نقاشه في جلسة كهذه، لكنّي سأتجرّأ وأقول لقد كان شاذًّا، مُؤلمًا، فريدًا، وآسرًا، يطمس الضوء في قلوب مشاهديه ويقمع الأملَ، فيلتهمُ الظلامُ مكنونات أرواحهم. حتّى إنّي حين هممت بمشاهدته أوّل مرّة حذّرني أحدهم قائلًا: «سيمسّك عفريت في الحال!»

ولأجل السائل عن قصّة الفيلم سأحاول أن ألخّصها من دون إفسادها: هي عِراك بين قوى الخير وقوى الشرّ على روح فتاة مراهقة في إحدى ضواحي واشنطن دي سي. عراك بين الدين والعلم، والقديم والحديث. وقد أجاد ويليام بيتر بلاتي استدراج المُشاهد إلى عالمه الأسود القاسي عن طريق تطويع مراحل النشاط الشيطاني الشهيرة:

الاجتياح (وهي Infestation)

الاضطهاد (وهي Oppression)

الاستحواذ (وهي Possession)

ويقترن الاجتياح باستشعار حضورٍ خفيّ، عبر سماع صوت همساتٍ ورؤية أجسادٍ في ركن العين، والقشعريرة فجأة والتنميل بغير سبب، وخلاله يُطبق العفريت أصابعه على روح الضحيّة بتأنٍّ كما يحيك العنكبوت خيوطه حول ضحيّته، فيُبقِيها مُعلّقة، مشلولة، ولا يلتهم جسدها بل يُدمّر كيانها. ويلي ذلك الاضطهاد، أي العبث المباشر حتّى تدمى الروح وتنكى، وتُصبح مهيّأة كالمُنوّم مغناطسيًّا إذ يفقد سلطانه على نفسه. ويُختتم الأمر بالاستحواذ والسيطرة والهيمَنة، فيسود الخبث والابتلاء في العلنِ والخفاء. ولستُ أعلم أفعل ويليام بيتر بلاتي ذلك عمدًا، أم استوحاه عفويًّا! ومهما يكن الأمر فإنّ هذا الفيلم العبقريّ لا يُلقّمك أيّ رسائل مسمومةٍ ولا يُنظّر لسيادة العلم ودونيّة الدين أو العكس. بل جاء صراع شخصيّاته الرئيسة بين الاثنين. وهذا لا ينفي اعتقاد بعض النقّاد أنّه يُروّج للكنيسة الكاثوليكيّة وقسّيسيها بأسلوب غير مباشرٍ. والرأي عندي أنّ ذلك العراك العَقَديّ الذي ابتُليَ به القسّيس داميان كاريس من أجمل ما شاهدت. ومن مزايا الفيلم أيضًا أنّه يخلو من الأجوبة الجاهزة ويدفعك للتفكّر في الطيّب والشنيع، ويزخر في الآن ذاته بالنظريّات والمقاربات التي جعلت مناخه أسطوريًّا. وحتّى يومنا هذا لم يقارب أيّ فيلم مكانة «طارد الأرواح الشريرة» جودةً ورعبًا وأثرًا. ولا أبالغ إذ أصنّفه فيلمًا مثاليًّا!

والآن لنعد إلى البداية. قد يغيب عن البعض أن هذا الفيلم، المؤسّس على رواية، أحداثه مُستلهمة من وقائع حقيقيّة عرفها المؤلّف أثناء دراسته في جامعة جورج تاون، أواخر أربعينيّات القرن الماضي، بحسب زعمه. وعندما أقول إنّه استلهمها من أحداثٍ حقيقيّةٍ فأنا أعني ذلك! إي نعم كثير من أفلام الرعب ادّعت اقتباسها أحداثًا حقيقيّةً ثمّ تبيّن بُطلان ذلك حتّى أصبح هذا السطر مادةً تقليديّةً ترويجيّةً، ومن ذلك أن انتهجت سلسلة أفلام «آميوتيفلي هوررور» و«ذا كانجُرنج» الحيلة الرخيصة نفسها! ولكنّ مصدر إلهام وليام بيتر بلاتي في رواية «طارد الأرواح الشريرة» ذكرته الجرائد آنذاك، وهو مراهق وقع ضحيّةً للاستحواذ فحاول قساوسة الكنيسة تطهيره منه. ووفقًا لما وصلنا، تيستر لوليام بلاتي أن يطّلِع على مذكّرات أحد القساوسة الذين حضروا الطقوس واستوحى منها الكثير في عمله.

ويقول بعض المُغرضين إنّ أثر بلاتي، في الرواية كما في الفيلم، يستمدّ أهمّيته من إثارة رعبٍ دينيٍّ نسيه الأمريكان، فأمريكا حينئذٍ كانت قد تخطّت رعب الحرب العالميّة الثانية، وخاضت مرحلة الكابوس الشيوعيّ الذي اخترق الكيان الأمريكيّ وزرع فيه خشية الجار جاره، والزوج زوجته والزميل زميله. وقد أشرتُ إلى ذلك في مقدّمة حديثي ولا داعي لتكراره. وممّا يستحقّ الإشادة أنّ بلاتي ومخرج الفيلم ويليام فريدكن لم يستغلّا قصّة استلهامه من وقائع حقيقيّة دعائيًا وتجنّبا ذاك التسويق الرخيص.

وماذا عن أثر الفيلم؟ سأتجاوز الكثير من المعطيات لضيق الوقت ودسامة المادّة، وأوجز بالقول إنّ الفيلم ترشّح لتسع جوائز أوسكار إن لم تكن عشرًا، وحظي باثنتين منها، وهو أوّل فيلم رعبٍ يفوز بتلك الجائزة. ولكم أن تُشاهدوا الوثائقيّات عنه وتُعاينوا حشود الجماهير التي حضرته، وما كان من تجهيز بعض دور السينما عربات إسعاف لأصحاب القلوب الضعيفة الذين يصعب عليهم تحمّل وحشيّة العرض.

وكأيّ فيلم فائق النجاح أُلحق «طارد الأرواح الشرّيرة» بجزءٍ ثانٍ كاد يدنّس مجد الفيلم الأصليّ، ثمّ بجزءٍ ثالثٍ أخرجه وليام بيتر بلاتي بنفسه فنال مكانةً مهمّةً لدى عشّاق أفلام الرعب، لكنّه لم يُضاهِ الجزء الأوّل ولا شك. وفي مطلع الألفيّة الثالثة ظهر فيلم «طارد الأرواح الشرّيرة: البدايات»، وقد وصفه وليام بيتر بلاتي بأنّه «أنيق»، وأخال هذا الوصف يُشبه ما يصدر عن أمّ تُجامل زوجة ابنها البغيضة بالقول إنّها «مستورة»!

أوه! الأستاذ حمدي يشير إليّ أنّ وقتي انتهى. حسن، كما قلت من قبل، أستطيع الحديث ساعاتٍ عن هذا الفيلم ولا أوفيه حقّه. آمل أن أكون قد زرعت فيكم بذرة فضول لمشاهدته. شكرًا لكم!

***

- «شكرًا لك أخ عرفة، فعلاً الشغف واضح في صوتك، وأعتقد أنّ أغلبنا سيشاهد الفيلم هذا المساء، رغم أنّنا في ظلّ الجائحة قد

نفضّل مُشاهدة ما هو ألطف وربّما أسخف! ما زال لدينا بعض الوقت لبعض الأسئلة، طيّب، لنمنح الكلمة أولًا للسيّدات يا جماعة! تفضّلي أستاذة ميساء، نستمع إليك».

- «السلام عليكم، لقد شاهدت مثلك الكثير من أفلام التطهير الروحيّ أستاذ عرفة، وما أثار استغرابي هو إجماع تلك الأفلام على أهمّيّة معرفة اسم الجنّيّ، فلماذا يُعدّ ذلك مُهمًّا بحسب رأيك؟»

- «نقطة مهمّة! ومن أمثلة ما تفضّلت به ذكر إيميلي روز أسماء الشياطين الستّة الراتعة داخلها، وتمكّن لورين وارين من هزيمة الشيطان فلاك بمعرفة اسمه! والحقّ أنّ هذه النقطة لطالما أثارت فضولي، فهي أساسيّة في ما يمارسه القساوسة خلال جلسات الرقية، أو التطهير الروحي كما قلت للتوّ. وإبّان إعدادي هذه المادّة بحثت في الأمر لكن ما وجدته غير كافٍ، إذ ذكر أحد القساوسة ببساطة أنّ ذلك من متطلّبات الممارسات الرومانيّة الكاثوليكيّة، ولم يستطرد أكثر... وأشار قسّيس سويسريّ إلى أنّ الله عندما خلق آدم، علّمه الأسماء كلّها، ورافق ذلك لونٌ من ألوان السلطة والسيطرة، فإذا أفصح الجنّيّ عن اسمه ضعُف وخضع للسلطة التي منحها الله لآدم ونسله. وقد ذكّرني ذلك بقصّة عدم تمكّن مصّاص الدماء من الوصول إلى ضحيّته إلّا إذا دعته بنفسها، وهي فكرة لم أجد لها أيّ تفسير لكنّها في جميع الأحوال ركنٌ رئيسيّ في التعامل مع مصّاصي الدماء(7). ولقد تجاهلت في حديثي كل التبريرات المقدّمة لأنّها لم تُقنعني».

- «السؤال التالي، تفضّل عكرمة».

- «أستاذ عرفة، ألا ترى أنّ جمال أفلام الرعب قوامه أنّها توقظ مخاوفنا المكتومة إذ تُحاكي، ولو رمزيًا، مخاوف إنسانيّةً تتجاوز الزمان والمكان؟»

- «سؤالٌ من العيار الثقيل أستاذ عكرمة! وما طرحتَه هممتُ بالخوض فيه لمّا أجبتُ الأستاذ حمدي في مطلع الجلسة... مؤكّد أنّ أفلام الرعب تُلامس ألوانًا مختلفةً من المشاعر البشريّة، ومهمّتها توظيف هذه العقد الكامنة لتغدو مصدرًا للرعب. ولذا يمكن عدّها مدخلًا مناسبًا لفهم النفس البشريّة، ففي إمكاننا أن نستبدل المشاكل المنزليّة التي تحرم طفلةً صغيرةً من النوم بوحش الخزانة أو العفريت، إذ ربّما كان أبواها في مرحلة طلاق وخوفها ممّا ستؤول إليه الأمور في المستقبل يحرمها النوم، لكنّها عاجزة عن ترجمة مشاعرها الدفينة، فتتوهّم ما يسمح لها خيالها به. ونستطيع أيضًا استبدال أخٍ متسلّطٍ عدائيٍّ يغار من عاطفة أبويه تجاه أخيه الصغير بالشبح المجهولة دوافعه، والأمثلة لا تُحصى».

- «السؤال التالي، تفضل أستاذ زين».

- «مرحبًا عرفة.. اعذرني، فأنا لا أجيد الحوار العامّ بعد، واعذر تتتـ...تطفّللي، لكن يبدو أنك تسـ...تمتـع بمشاهدة أفلام الرعب وأنت مدركٌ لأثرها عليك، سسـ... سؤالي: هل ذلك رغبة مازوخيّة لَلـ...دَيك،

وهل خخخ...خُضت صدمةً في طفولتك جعلتك تجد لـ..لَذّةً في هذا الرعب؟»

- «أشكرك على سؤالك زين، وتسرُّني جرأتك وشجاعتك. والحقُّ أنّ سؤالك مهمّ، فأنت تتحدّث عن سرداب الذاكرة المكبوتة بغباره ورماده... حيث تلك الرغبات والغرائز والمخاوف التي يطمسها العقل ويتناسى أمرها لسببٍ أو لآخر. وإذا لم يتقبّل المرء ذاته ومكنونات سردابها فإنّها ستطفح ذات يوم وتُعيق حياة المرء، وهذه مسألة متشعّبة الأبعاد... أمّا إجابتي عن السؤال فهي لا، لا أذكر أنّني خضت تجربةً مريرة تقود لما ذكرت، لكن من منّا تخلو طفولته من مُعايرةٍ أو فشل أو توبيخٍ؟»

وعقب تلك الإجابة الأخيرة أنهى الأستاذ حمدي اللقاء قائلاً بلهجة تنمّ عن الرضى:

- «وبهذا نختم أمسيتَنا! شكرًا أستاذ عرفة على وقتك وعلمك، وأحبّ أن أبلغ الحاضرين أنّك رحّبت بفكرة التواصل معك سواء عبر الهاتف أو عبر الإيميل، وهذا طبعًا موجّه إلى كلّ المهتمّين بالتوسّع في النقاش. في إمكانكم الاتّصال بي إذا ما رغبتم في ذلك. شكرًا لكم وعمتم مساءً».

الزيارة الثانية

الإثنين، 4 صفر 1442ه

- تبدو مُتعبًا يا عرفة، عيناك مُقلتان، ما الأمر؟

- آه، هل هذا بادٍ عليّ؟ كان أسبوعًا عسيرًا يا حضرة المحامي... فقد أُصيب أحد المساجين بلوثة أو ربّما هي حمّى، وما انفك يصرخ ويزعق بلا انقطاع، ومع كلّ صرخة يضرب قضبان الزنزانة بأيّ معدن تطاله يده، فيدوّي الطرق في قلوبنا، ويُقال إنّ هيئة السجون والإصلاح العامّة منعت استلام الرسائل أو إرسالها، توافقًا مع التدابير الاحترازية المُحدثة منذ ابتلتنا الجائحة فجُنّ الرجل وتوحّش وصار يصرخ بصوت أجشّ من خلف القضبان: «لماذا تقبلون مُعاملةً لا تليق حتّى بالحيوانات؟ لماذا تتركونهم يسرقونكم ويضطهدونكم؟ لماذا لا تطالبون بحقوقكم؟ طبقًا للائحة السجون، لكل واحدٍ فيكم سرير ومرتبة وملاءات وبطاطين وأدوات طعام وطقمان من الملابس الداخلية والخارجيّة صيفًا وشتاءً لكنّكم لا تحصلون إلّا على فتاتٍ وخردةٍ». وطبعًا حاول حرّاس العنبر ردعه، وصرخ فيه أحدهم مرّةً مهدّدًا بالدخول عليه في الزنزانة الفرديّة وتعليمه الأدب.

- ذكّرتني، في المرّة الفائتة أردت أن أسألك: لماذا وضعوك في زنزانة فرديّة؟

- كما تعلم حدث ذلك بعد تعرّضي للضرب من قِبل الرجل الثور لكنّ الأمر مُرتبط أيضًا بالجائحة، فمنذ ظهورها قرّر المُشرفون على السجن التخفيف من أعداد المساجين في كلّ زنزانةٍ جماعيّةٍ، حتّى إنّهم حوّلوا مكتبة السجن والصالة الرياضية إلى مجموعة زنازين إضافيّة ليتمكّنوا من إعادة توزيع السجناء وفقًا لمقتضى الحال، وكان لزامًا عليهم في الوقت ذاته استغلال الزنازين الفرديّة استغلالاً كاملًا، فلمّا حدث ما حدث بيني والشيخ وتابعه سارعوا بنقلي إلى زنزانةٍ فرديّةٍ ضاربين عصفورين بحجرٍ واحدٍ.

المهمّ إذن أنّ ذلك السجين ظلّ يصرخ بلا انقطاعٍ حتّى كبّله زبانية الحرس وكمّموه، وتقرّرَ ألّا يُفكّ وثاقه إلّا في أوقات تناول الطعام. ورغم ذلك ما زلت أستيقظ مفجوعًا من صوت الطرق، كأنّ صداه يرفض أن يغادر صدري. والآن، لنعد إلى قضيّتي، أخال قلبك يضجّ بالأسئلة! ومؤكّد أنّك شاهدت اللقاء ولم تفهم علاقته بجُرمي، أليس كذلك؟ آه... هذا ما توقّعته... سأخبرك...

- قبل أن نخوض في موضوعنا... اسمح لي أن أُبدي إعجابي بسعة اطّلاعك وعمق معرفتك، ولا أقول هذا لإلمامك بالأفلام فحسب، بل أيضًا لقراءة خطابك في مجلسنا الأوّل وفي يوم العرض... ومن الواضح أنّك تفوق من هم في مثل عمرك مستوى... كيف بلغت هذا الحدّ؟

- أظنّ أنّي....

- ما بالك متردّد ووجهك بصدد التعكّر؟ هل أزعجك سؤالي؟ نستطيع تجاوزه إذا كنت تُفضّل ذلك.

- لا... لا بأس... لكنّك نكأت جُرحًا قديمًا... حسن، لقد قضيت سنوات عمري في تنمية علمي ومعارفي بحرصٍ ونهمٍ...

- وكيف تيسّر لك ذلك؟

- هههه... اعذرني على ضحكتي التعيسة، فشرّ البليّة ما يضحك... أتذكّر قصة الجاحظ وخاتم الشيطان؟

- أتقصد حكاية المرأة التي قادته إلى دكّان الصائغ(8)؟

- بالضبط. سمعتُ تلك القصّة أوّل مرّة من أحد أساتذتي في المدرسة، ولمّا أنهاها التفت إليّ وقال: «لو رأتك تلك المرأة لفضّلتك على الجاحظ». وضحك فضحك أقراني وهزأوا بي... ثمّ لازمني لقب الجاحظ فترةً غير قصيرة... والمحصّلة أنّ تجريحهم جعلني أعزف عن صحبتهم، وقبحي جعلهم يعزفون عن صحبتي، فانزويت وانطويت.

- قبحهم الله! كم كان عمرك وقتئذٍ؟

- كنت في بداية فترة المراهقة... ولمّا شكوتُ إلى والدتي

طمأنتني مؤكّدةً أنّي حسن المُحيّا، فطيّب كلامها خاطري، لكنّي علمتُ لاحقًا أنّ القرد في عين أمّه غزال... أمّا والدي فظلّ يستمع إليّ صامتًا ويتأمّلني كمن يراني أوّل مرّةٍ حتّى بدا لي أنّه يميل إلى رأي المدرّس، ثمّ علّق على الأمر قائلاً إنّ جمال الوجه سمةُ الرقعاء والمخنّثين... وإنّ الذين حظوا بوجوه مثل وجهي كرّسوا أنفسهم للعلم النافع ورفعوا راية الملّة... ورفض توسّلاتي من أجل الانتقال إلى مدرسة أخرى، مبرّرًا قراره بأنّ وجهي وتنغيصه عليّ قدَرٌ لا مهرب منه... فاقتنعت بذلك، وما رسّخ قناعتي هو أنّ كلّ فتاةٍ غضّةٍ ترى سحنتي تلوذ بالفرار... وهكذا استعضت عن صحبة الأقران والأصدقاء بالكتب والأفلام، مُعزّيًا نفسي بأنّ كانط وشوبنهاور ونيتشه ذوو وجوه قبيحة كوجهي(9)... فقرأت كلّ ما بلغته يدِي من أمّهات كتب الأدب والعلم والروايات، ثم انكببتُ على تعلّم اللغة الإنجليزيّة بشغفٍ ونهمٍ حتّى أختلف عن قطيع البهائم وما يقرؤونه.

- لعلّي لم أوفّق في سؤالي... اعذرني...

- لا عليك...

- حدّثني عن الرابط بين يوم العرض وما أنت عليه اليوم...

- آه... ذاك اليوم الأسود المقيت... ما زالت كوابيسه تدميني، وما زلت أتجرّع مرارته... لماذا ابتليتني يا ربّ العالمين؟ من يعلم لو نمت مُبكّرًا ذاك المساء، أو لم ألاحظ الرسالة... هل كان ذلك سيجعلني الآن

أفضل حالًا؟ تلك الخاطرة تمخُر مخّي كلّ يومٍ، وكلّما تذكّرت ذاك المساء نخَرَت مسامير الندم جمجمتي في عتمة سردابي، وانصبّت على قلبي عصارة الحزن والظلم والوحشيّة، فأنا لم أجهض حياتي فحسب، بل حياة أسرتها وأسرتي أيضًا... قبرتُ سعادتي وسعادتهم... كيف للقدر أن يعبث بي هكذا؟ لم أُضمِر نوايا فاحشةً أو خبيثةً... كانت نيّتي نبيلةً ساذجةً... وددت الاستماع وتقديم العون.. آهٍ... بماذا أهرف؟... لِمَ اللفّ والدوران؟ لا فائدة من الكذب. الحقّ أنّي كنت أنوي تمضية الوقت في تلك العزلة، متكاسلًا عن تقديم يد العون...

- علينا ألّا نقفز فوق الأحداث، قُصّ عليّ من البداية.

- مساء اليوم الذي تلا العرض، انتابتني حالة غريبة نقلتني من نشوةِ الأمس إلى ملل الحاضر، حتّى إنّي قضّيت ساعات ثقيلةً طويلةً أحدّق في الفراغ، تائهًا بين اليقظة والمنام. وما كنت قبل الجائحة أبغض الوحدة والعزلة بل أحبّذهما، لكنّ الحال تغيّر... صحيح أنّ حجرتي ليست ضيّقةً، لكنّها أيضًا ليست مبهجةً، فبرغم ألواح الخطوط العربيّة الفنّيّة التي زيّنت جدرانها، ومكتبتي المكتظّة، وأدوات عملي، والأشياء المبعثرة على مكتبي صارت الغرفة تبدو لي مُصمَتةً، خانقةً، مملّةً... وكلّ محاولاتي لقراءة كتابٍ ما أو مشاهدة عملٍ يروق لي باءت بالفشل... وكانت نافذتي تطلّ على زقاقٍ ضيّقٍ فحرمتْ من ضوء الشمس ومن رؤية غيوم السماء، وما عددتُه طوال حياتي سكينةً انقلب عندي صمتًا مقيتًا، كأنّ أذنيّ تفتقدان ضجيجَ الشارع وأصواتَ السيارات وزعيقَ الطيور... ولا

داعي للإطالة في وصف رتابة الحال وثقة ولا شك مئة أحمق كتبوا مقالاتٍ بعنوان «الملل في زمن الجائحة». لكن من الضروريّ القول إنّ العزلة التي فرضها عليّ أبي في حجرتي زادت من رتابة الحال... لا تقاطعني! وسأشرح كلّ شيء في أوانه...

في ذلك اليوم نفسه الذي قضّيت منه ساعات محدّقًا في الفراغ ارتجّ هاتفي فجأة برسالةٍ مكتوبةٍ. وإذ طالعتها علمتُ أنّها من فتاةٍ كانت قد حضرت الثلوثيّة. وتضمّن محتوى الرسالة تعريفَ المُرسِلة بنفسها وشرحها كيفيّة حصولها على رقمي ثمّ سؤالاً عن مدى استعدادي لحوارٍ سريعٍ. وكان من الطبيعيّ أن أتردّد قليلًا في أمرٍ كهذا، بالأخصّ وأنا أعيش في كنف أبي، لكنّ شعوري المُمضّ بالوحدة والملل مع وطأة الجائحة على الحياة جعلا نفسي تُراودني فأتساءل عن الفتاة ومقدار جمالها... وما إن حاولتُ تخيّلها حتّى أحسستُ بخضّة في قلبي، ومزّق تيّارٌ من أعلى ظهري وانساب بين فخذيّ يداعب وتدي. ورغم ذلك تمالكتُ وكتبتُ: *«أهلًا ومرحبًا، كيف أخدمك؟»*. وكم استبشرتُ حين سألتني أوّلًا ما إذا كان الوقت مناسبًا، فذلك عندي من أمارات الكياسة وحسن التقدير وما أندرهما في من يُقاربونني سنًّا... وعلى ضوء ذلك أجبت بـ«نعم» فسارعتني بأنّها استشعرت بعض الأمور عندما رأتني بالأمس وسمعتني أتكلّم، ولا أخفي عنك حضرة المحامي أنّ ما كتبَته أرقص القلب وهيّج الحواسّ بلذّةٍ عارمةٍ ما كان لي أن أحلم بها في حالتي تِلك. ثمّ أضافت الفتاة أنّ بعض ما قُلته شجّعها على إعلامي بأمرٍ خاصّ، وأنّ حدسها أنبأها بإمكان ائتماني عليه، فازددتُ غبطةً على غبطةٍ وأنا

أنتظر حتّى كتَبَتْ مُجدّدًا: «*قبل الاستطراد، لديّ سؤال لم أستطع طرحه عليك مساء أمس*». فهممت بكتابة عبارة: «*ما هو؟*» لكنّي لم أجد نقطة الاستفهام في لوحة الجوّال إلّا ورسالتها الجديدة تقفز في وجهي: «*هل تؤمن بالاستحواذ؟*».

صدمني السؤال كمن لفحته رياح عاتية، لأنّي لم أتوقّعه ولم أتمنّاه، وكي أكسب بعض الوقت للتفكير أجبت مُتظاهرًا بالاستيضاح: «*تقصدين أن يمسّ جنّيّ إنسيًا؟*» فجاءني الردّ سريعًا مُقتضبًا: «*نعم*».

وعندئذ وجدتُ نفسي مُضطرًّا إلى تقديم جوابٍ مُخاتلٍ، فحمدت الله على عدم وقوفي ذاك الموقف في الليلة السابقة أمام خمسين غريبًا، وكتبتُ: «*لي تحفّظات كثيرة على الفكرة*». والصدق أقول لك يا حضرة المحامي حالما قرأت ردّها الجافّ المكوّن من خمس كلمات: «*هذه ليست إجابةً أستاذ عرفة*». شعرتُ بكدرٍ يغشى قلبي وامتدّت أصابعي إلى الأحرف تنقرها أسرع من المعتاد: «*أقصد أنّي لا أملك رأيًا في الموضوع..... آه كدت أنسى، لم أعرف اسمك بعد*». وكما أردتُ بالضبط جاء الجواب عن سؤالي من دون أيّ تعليقٍ على ما سبقه: «*اسمي شميّة ..*» فكتبتُ: «*تشرّفت بمعرفتك يا شميّة ..*» و..

- اعذر مقاطعتي يا عرفة، هل هي سميّة حفيدة حليمة؟

- نعم هي، ضحيّتي ومرآة جرمي. يا الله... رحمتك وغفرانك ... ماذا اقترفتُ؟ ليتني متّ وكنتُ نسيًا منسيًّا... ماذا اقترفتُ في حقّ

تلك الفتاة الهشّة وجدّتها وعائلتها؟ لعنة الله عليّ...

- استهد بالله يا عرفة... قدّر الله وما شاء فعل...

- ماذا حلّ بها؟ بعد أن... بعد أن...

- لم يسمح لي أبوها بلقائها بعد...

- هلّا أطلعتني على حالها إذا عرفت شيئًا؟

- حاضر... تفضّل أكمل...

- عمّ كنت أتكلّم؟ آه نعم... بعد أن سألتني سميّة عن إيماني بالاستحواذ وراوغتها ثمّ سألتها عن اسمها وأجابتني، كتبت لي: *«سأخبرك بأمرٍ ابتُليَت به عائلتي منذ بضعة أسابيع، واعلَم أنّي لا أحبّ كشف الأسرار العائليّة، لكنّك بالأمس ذكرت أمرًا شوّش ذهني..»*، فسألتها: *«أيّ أمرٍ؟»* وثبّتّ عينيّ المتحفّزتين على شاشة الجوّال حتّى إذا ظهرت الإجابة شرعتا تلتهمان المكتوب: *«مراحل الاستحواذ الثلاثة. كلّ ما أريده منك أن تسمعني قبل أن تحكم. اتّفقنا؟»* وكان من سوء حظّي أن اقترن مُرادها منّي بتلك المراحل الثلاثة(10) التي ذكرتها في عَرَضي، فمعلوماتي عنها لا تعدو ما يُحصّله أيّ شخص ببحثٍ سريعٍ على الإنترنت من دون توسّع أو تعمّق، وإنّما تعمّدتُ ذكرها لأضفي هيبةً على حديثي. وطبعًا لم أجد

بُدًا من إرسال عبارة «*اتّفقنا*». وإثر كلمتي تلك كشفت لي سميّة في رسالتها التالية ما يلي: «*منذ ثلاثة أسابيع أو أكثر بقليل، ألمّ بجدّتي حليمة مرض عجيب غيّرها تمامًا، حتّى إنّ أبي ما انفكّ يؤكّد إصابتها بمسّ، ورغم محاولتي رفض ذلك، بدأت أقتنع برأيه... وصرتُ... خائفةً*».

وكي أدفعها للاستطراد سريعًا وقد استبدّ بي الفضول كتبتُ: «*أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! ماذا أصابها؟*» فجاءني الردّ -على غير المتوقّع- برسالةٍ صوتيّةٍ بدت فيها مُحدّثتي مشحونةً وهي تقول: «*كلّ تفاصيلها تغيّرت. صوتها، وجهها، أخلاقها، حتّى رائحتها. نعم، جدّتي القرويّة النحيلة ذات اليدين الواهنتين المعروقتين والجدائل الرماديّة الطويلة ما عاد لها وجود، جدّتي ذات السترة الجوزيّة القديمة، والرائحة الحميمة، والحضن الرؤوم ما عادت هنا، تلك الملاك الطاهرة الوديعة، صارت فجأة هيكلاً عظميًا متآكلًا، كأنّها جثّة قديمة. طال شعرها حتّى غطّى كتفيها وظهرَها وصدرَها القصبيّ. وتحجّرت أظافر يديها ورجليها وتخثّر الدم تحتها... ونخل وجهها واصفرّ... والأدهى أنّها امتنعت عن الاستحمام وكرهت النظافة كما كرهت الضوء فنتنت حجرتها، كأنّ جيفة تعفّنت داخلها... ولمجابهة ذلك تناوبنا أنا وأمّي على تنظيف الحجرة، وتحميم جسد الجدّة النحيف فوق سريرها، ومداواة جروحها المتقيّحة وهي شاخصة البصر كأنّها في عالم آخر. ورويدًا رويدًا ما عادت أمّي تستطيع التحمّل، فصارت تنفجر فَجأةً بنوبات بكاءٍ وتشقّياً بلا انقطاعٍ، ومن فرط تأثّري بحزنها وخرقتها فقدتُ زمام نفسي وصرتُ أبكي معها...*

ولك أن تتخيّل يا أستاذ عرفة كيف انقلب بيتنا مأتمًا وليس فيه ميّت. وكلّما طلبنا من أبي استدعاء طبيبٍ يُعاين الجدّة ويُنهي شكوكَنا، تهرّب متحجّجًا بالجائحة».

كدت أتوجّه إليها أنا أيضًا برسالةٍ صوتيّةٍ تستشفّ منها مواساتي لها لكنّي عدلت عن ذلك وكتبت: *«لا حول ولا قوّة إلّا بالله... وما هي الأعراض الأولى التي أثارت انتباهكم؟»* فجاء ردّها في رسالةٍ مكتوبةٍ: *«أذكر جيّدًا أنّ ما نبّهنا إلى تغيّر حالها هو تكرّر شكواها من الأرق ومن ثِقلٍ في ساقها اليسرى وارتفاعٍ في الحرارة حتّى خفنا أن تصيبها جلطة... ولذا بعد عرضك مساء أمس سارعت بمشاهدة فيلم الكانجورينج».* أرسلت إليها مُصحّحًا وأنا أتظاهر بالاستفسار: *«ذا كانجرنج؟»* وأظنّها لم تُلاحظ ذلك وهي تكتب لي مُجيبةً: *«أجل، وبحسب تفسيرك، تلك المرحلة هي الأبرشن».* فصحّحت لها مرّة أخرى ولكن من غير مداراة: *«أوبريشن»* والمضحك أنّي حالما قرأت تأكيدها بـ *«نعم، هو الاضطهاد. ومن يدري كم كانت فترة الفيستيشن!»* عاودت التصحيح للمرّة الثالثة: *«إنفيستايشن».* والحمد لله أن كتَبَت مُسلّمة من دون أن تُشير إلى تحذلقي: *«ذاك ما قصدته».* وحين طلبت منها أن تصف لي حال الجدّة المستجدّ بمزيدٍ من التفصيل لجأت مرّة ثانيةً إلى تسجيل صوتيّ قالت فيه بأسى:

«من أغرب ما طرأ عليها أن أصبحت تؤذي نفسها، فتخدش وجهها، وتصرّ أسنانها، وتقضم أظافرها وتنتف شعرها الرماديّ الطينيّ وقد تشعّث وتبعثر على كتفيها الضامرتين، وما عادت تأكل البتّة حتّى

اضطرّت أمّي إلى إطعامها غصبًا لكن بلا جدوى، فشرعان ما تردّى حالها واشتدّ وهنها، كأنّ جسدها يأكل نفسه داخليًا... يا لذاك الجسد كيف تقلّص! الصدرُ كأنّه قصبة، وفقرات الظهر البارزة كأنّها لمومياء! وما زاد الطينة بِلّة أنّها بينما كنت أحمّمها في إحدى المرّات انسلخت قطعة من جلدها المهترئ وظهر لحمها تحتها. ثمّ تكرّر الأمر بعد ذلك فصارت تفوح منها رائحة سمّيتُها رائحة الموت... وأحسبها ناجمة عن تيبّس القيح والدم والبول... وذات فجرٍ بعدما فرغتُ من الصلاة مررتُ بغرفتها لأطمئنّ عليها فوجدتُ أبي هناك وقد أراح رأسها على فخذه ووضع راحته اليمنى على جبينها واسترسل يقرأ عليها القرآن والأذكار. وكانت عيناها الواسعتان حمراوين من التعب والبكاء. ولم تلبث أن بالت على نفسها ولوّثت ثيابها وثياب أبي ومِفرش سريرها وبكت كطفلٍ رضيع لخسرانها كرامتَها في خريف عمرها. وما يرعبني يا أستاذ عرفة أنّنا لاحظنا الموضوع منذ حوالي ثلاثة أسابيع، والله وحده يعلم كم من الوقت مرّ عليها وهي تُعاني!».

سردت سميّة الحقائق بمرارة أثارت فيّ شجونًا لكنّها في الآن ذاته حفّزتني للبحث عن حلّ فكتبت إليها سائلاً: «*هل العائلة كلّها تؤمن بأنّ جدّتك ممسوسة؟*» ولمّا قرأت كلمة «*نعم*» اليتيمة التي اقتصر عليها ردّها حدستُ مشاعرها في تلك اللحظة، هي ولا شك مُنهزمة ومكلومة. كم أمقت ذاك اليقين الأعمى وتلك الأحكام الرثّة الجائرة. وفي ظلّ عائلةٍ كعائلة سميّة يؤمن كلّ أفرادها -عداها هي- بتلك الترّهات من المحتوم أن تسوء الأمور. وكي أدعمها وأحصّنها من الوهم أرسلت إليها ما مفاده أنّ ما أصاب جدّتها حليمة ليس

بالضرورة مسّا، بل الأرجح أنّه الخرَف، فعاودَت الردّ برسالة صوتيّة:

«حاولت أن أُقنع نفسي بهذا الرأي لكنّي لم أُفلح. وأنّى لي أن أقتنع وأنا أرى ذلك التدهور المرعب والغريب لحالها ولا أجد لعلّتها شبيهًا في ما عاينته طوال حياتي أو حتّى سمعت به؟! وكيف لا ينقبض قلبي اليوم كلّه وجدّتي تُمحى أمامي حيّة؟! في ما مضى، كانت تقرأ الأذكار قبل الإفطار وتلثم جبيني قبل خروجي إلى الدوام... وتذهب لرفيقاتها في الندوة فيقرأن القرآن ويصلّين على الرسول ويردّدن الأذكار. كانت جدّةً كالتي يُقدّمونها في كتب المدرسة وفي قصص الصالحين. كم أشتاق إلى رائحتها الطيّبة، وإلى طبعها الوديع الودود، لكنّ كلّ ذلك تغيّر، أوّلاً كفّت عن مُجالستنا واعتزلت، ثمّ بدأ صوتها يخشوشن، ثمّ تجعّد جلدها وتشقّقت شفتاها ونتنت أنفاسها، كأنّها حيوان مسعور، وتصاعدت من حجرتها رائحة شنيعة مثل... مثل... رائحة زريبة تعفّنت فيها أحشاء دجاجٍ ميّتٍ. وهو ما حتّم على أبي نقلها وكلّ ما يخصّها إلى حُجرةٍ معزولةٍ يفصلها عن باقي أجزاء البيت ممرّ طويل وردهة، ولا يُجاورها سوى غرفةٍ صغيرةٍ جدًّا لتخزين الأمتعة القديمة وما لا يُحتاج إليه من الأدوات إلّا نادرًا. ورغم ذلك الإجراء لم تختف الرائحة الكريهة تمامًا بل خفّت حدّتها فحسب، وظلّت تصلنا منها نفحات تؤذي أنوفنا في الليل والنهار... وكلّما حاولَت صديقاتُ الجدّة الاتّصال بها للاطمئنانِ عليها، ادّعينا أنّها تتعبّد أو ما شابه ذلك من المزاعم... لكن إلى متى الكذب والمماطلة؟ حتّى بعد أن عوّذها أبي بكلمات الله التامّة وحصّنها لأيّام، وسقاها ماءً مقروءًا عليه، لم يتحسّن حالها بل ازداد سوءًا».

ومع انتهاء الرسالة الصوتيّة شعرت بالعجز عن فهم حقيقة ما يجري، لكنّي عمدت إلى كتابة جملةٍ حاولت أن أبدو من خلالها أوثق ممّا أنا عليه: «*قد يكون التفسير السليم لحالتها طبّيًا*» فردّت عليّ كتابةً: «*لقد لجأنا إلى ذلك. فبعد عراكنا المرير مع أبي استدعت أمّي عمّي مرزوق ليعاينها*».

ولم أستطع أن أعلّق على ما ورد وأنا أجهل مؤهّلات العمّ مرزوق الطبّيّة والنفسانيّة لإجراء الفحص اللازم، فاعتزمت تقديم رأيٍ عامٍّ. وبينما هممت بصياغة فقرة فحواها أنّ إيمان الإنسان بفكرة ما (حتّى إن كانت من وحي خياله) يجعلها تتغلغل داخله وتتجذّر بمرور الوقت كالسرطان والطفيليّات فيصعب اقتلاعها، ألحقت محدّثتي برسالتها المكتوبةِ أخرى صوتيّة قالت فيها:

«*أكّد لنا العمّ مرزوق أنّ جدّتي سليمة، وأوصانا بقراءة القرآن وتبخيرها بقشر الرمان واللبان الذكر وسقيها ماءً بحبّة البركة، فلمّا شربت الماء المذكور فقدت القدرة على ابتلاع أيّ مضادّات. وها قد مرّت الأيّام وهي مستمرّة في الذبول والانعزال، فكيف لا يتفاقم أسى قلبي وغمّه وأنا من الأساس لا أثق بالرجل ولا بتوصياته؟ أشعر بافتقادي إيّاها وهي بيننا فيضيق من الحرمان صدري. صدّقني لقد بدأت أقلق على نفسي بقدر قلقي عليها ولا أكفّ عن التساؤل: متى ستحين ساعتها؟ فيكتمني الضيق ويخنقني... أريد أن أصرخ... أن أنهار... كم أخشى الهجران والفراق! آه يا أستاذ عرفة! كم أكره حالي! كم أكره هذا الألم... اعذرني...*».

وكان من آثار تلك الكلمات الأخيرة أن تبادلنا بعدها مجموعةً من الرسائل المكتوبة السريعة بتآلفٍ أكبر: *«لا بأس عليك... ما تشعرين به طبيعيّ. ابكِي... لا تخجلي... أنتِ بأمانٍ معي».*

«يداي مُكبّلتان! وجدّتي تعيش مأساة ومَظلمةً معًا..».

«إنّما يبتلي الله عبادَه الصالحين يا سميّة... لا يتزعزعنّ إيمانك... صدّقيني... لن يمرّ وقت طويل حتّى نعرف علّتها..».

«ما تخوضه جدّتي ليس علميًّا أو طبيعيًّا».

«أرفض تصديق ذلك..».

«لديّ دليل!».

فاجأني ما قالته، وقبل أن أطلب منها الاستطراد أضافت:

«كنت إذا جنّ الليل وعمّ السكون واقتربتُ من حجرتها لأطمئنّ عليها أو لأقدّم لها الطعام والماء أسمع همساتٍ كأنّها فحيح. وفي بداية الأمر خمّنت أنّها تردّد الأذكار أو تقرأ وردها، لكنّني سرعان ما استبعدت ذلك، فدأبها أن تقرأ بصوت عالٍ حتى يبحّ حلقها. وطبعًا ظلّ ما سمعته منها يُحير قلقي».

«وماذا فعلتِ؟»

«خبأت في حجرتها جهاز قراءة أصوات، وليتني ما فعلت ذلك...».

«ماذا تقصدين بجهاز قراءة أصواتٍ؟»

«هو جهاز إلكتروني دقيق جدًا، يسجّل الكلمات الشفويّة ويرسلها إلى بريدك الإلكتروني...».

«نعم أعرفه فأنا تقنيّ صوتيّات وأظنّك سمعتِ ذلك حين قدّمني الأستاذ حمدي، وإنّما سألتك مُستغربًا حصولك عليه».

«وجدته في متجر أجهزةٍ بسعرٍ رخيصٍ... والمهمّ أنّي خبأت الجهاز تحت سريرها. يا الله! لن أنسى ما شعرتُ به في تلك الليلة».

«وماذا سجّل الجهاز؟»

«سأرسل لك الملفّ».

لم أعلّق واكتفيتُ بانتظار ما وُعِدت به فما مضت سوى لحظات حتّى استلمت ملفًا احتوى جدولاً طويلاً سجّل فيه اليوم والساعة والدقيقة، وأمام كلّ دقيقة إمّا كلمات أو مجموعة من النقاط.

اسم مالك الحساب	سمية سلامة
التاريخ	27 شوال 1441هـ
الوقت	النص
23:34	بسم الله الرحمن الرحيم وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ
23:35	إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا
23:36	وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا
23:37	...
23:38	هلُمّي ولا تتباطئي هلُمّي إلى جنّات النعيم
23:39	حاضر يا مولاي، حاضر يا مولاي
23:40	هلُمّي ولا تتباطئي يا عبدتي
23:41	بسم الله الرحمن الرحيم وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ
	وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ والنَّجْمُ الثَّاقِبُ

٢٧٠٧٩٥١٣١١

23:42	... إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ
23:43	إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ
23:44	...
23:45	آسفة، آسفة... سأعيد من البداية، مرهقة... أنام *نص غير مفهوم* لا، لا، سأحاول من جديد، أرجوك، لا تحرمني
23:46	بسم الله الرحمن الرحيم وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ
23:47	إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ
23:48	...
23:49	...
23:50	إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ
23:51	... إِنَّهُ لَقَوْلٌ
23:52	...
	فَصْلٌ ٢٧٠٧٩٥١٣١١

23:53	وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا
23:54	هيء هيء هيء... أسمعه! إني أسمع الطرق! أسمع الدك! مرحبًا بالطارق! لقد أتيت أخيرًا! اجعلني معك من الفائزين، اشفع لي يوم الحساب... هيء هيء هيء
23:55	...
23:56	نعم، سأواصل القراءة، شكرًا لك... شكرًا لك يا أيها الطارق... شكرًا يا مولاي... هيء هيء هيء...
23:57	بسم الله الرحمن الرحيم وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ
23:58	إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا
23:59	وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا
0:00	* نهاية التسجيل*

آه يا حضرة المحامي لو رأيت حالي بعد أن قرأت ما قرأت! لقد اقشعرّ بدني وانتابني شعور امتزج فيه التوتّر بالتوجّس والريبة حتّى إنّي صرت ألحق السؤال بالسؤال وسميّة تُجيب وتُجيب:

«لماذا لم تستخدمي جهاز تسجيلٍ؟ هذا الجهاز لا يسجّل كلّ شيءٍ...».

«صدّقني... لقد حاولت... لكنّ الجهاز كان يُصدر تشويشًا ...».

«تشويشًا؟»

«نعم، لقد حاولت بضع مرّاتٍ استمرّ فيها التشويش كما هو».

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! هل سجّلتِ المزيد؟»

«نعم، لكن لا شيء مثير للاهتمام...».

«من هو الطارق؟»

«علمي علمك».

وعوض أن تُهدّئ تلك الأجوبة ما يعتمل في نفسي زادتني فضولًا وارتيابًا، ففحال أن يكون مع العجوز رجل غريب في حجرتها. وكان أفضل ما يمكن فعله أن أسأل سميّة عن سلامة مدارك جدّتها، لكنّ ذلك بدا لي فجًّا فاستفسرت بلباقة: *«ما الأشياء الأخرى التي لاحظتموها في بداية الأمر؟ ومتى حصل التدهور؟»* وكما فعَلَت من قبلُ كلّما أرادت الإسهاب ردّت برسالة صوتيّة قالت فيها:

«زيادة على ما ذكرته لك من معاناتها الأرق والحمّى لاحظنا في الأسابيع الماضية أنها تركّت قيام الليل وصارت تقضي وقتها في قاعة الجلوس تُشاهد برامج التلفاز بعينٍ ذاهلةٍ حتّى ساعات الفجر، كمن يعاني حمّى سوداء... وعبثًا حاوَلَت إخفاء الأمر بالعودة إلى

غرفتها مع الشروق، فقد كان النعاس يغلبها مرّة فوق سجّادة ومرّة على أريكة فنجدها هناك وتنتابنا الحيرة. أمّا أكثر ما صدمنا فهو تحوّلها من حليمة الرحيمة إلى امرأة حادّة تزجرُ وتلعن! وبعد طول انتظارٍ صارحتنا بكلماتٍ محدودةٍ وعينين مجهدتين بما أصابها. لقد تملّكتها كوابيس لا تذكر أيًّا منها لكنّها كانت سببًا في سهرها المستمرّ... وأعتقد أنّ أشدّ ما يُرهقها هو تفاقم الطرق والدك...».

استفزّتني عبارة سميّة الأخيرة فكتبت مُتسائلًا: «*طرقٌ ودكّ! ومن الطارق؟*» فأجابتني برسالة صوتيّة أخرى:

«لا أعرف... فهي ترفض الحديث عنه، لكنّني سمعتها تغمغم كلمات عن الطَرَقَات أكثر من مرّة... ولا تنسَ أنّني بحسب المُفترض لا علم لي بموضوع الطارق. لكنّ ما أستطيع تأكيده أنّها إن نامت حاصرتها الكوابيس وإن سهرت أضناها الطرق والخبط. وسأظلّ أذكر ما حييتُ ذلك اليوم الذي سمعتها فيه تبكي بصوتٍ مكتومٍ فلمّا دخلتُ عليها وجدتُها تُذيب شمعًا في أُذنيها لتسدّهما، وبمجرّد أن تصدّيتُ لها صفعتني! ثمّ حاولت أمّي أن تُخفّف عنها بادّعاء أنّ تلك الأصوات لهزّات طبيعيّة في بيتنا القديم، وحاول أبي تنظيف الأنابيب والمواسير المحيطة بنا، وبطبيعة الحال ما كان الطرق ليتوقّف وهو غير موجودٍ إلّا في أُذني جدّتي ورأسها!»

ويعلم الله يا حضرة المحامي كم بذلتُ من الجهد بحثًا عن كلمات مناسبة أواسي بها مُحدّثتي بعد ما سمعته منها لكنّ ذهني تبلّد وبديهتي خذلتني فلبثتُ مُطرقًا صامتًا حتّى تلقّيت رسالةً صوتيّةً

أخرى استطردت فيها سمية بلَوعة أشدّ:

«استمرّ الوضع في التدهور، وذات يوم استيقظت في ساعات الصباح الأولى على صوت خبطٍ قادمٍ من حجرتها القصيّة فجزعت وتوتّرت أنفاسي، وشرعتُ أطرق بابها لكنّ الخبط لم يتوقّف، حتّى إذا فتحتُ الباب وأنا أرتعش من الخوف وجدتُها واقفةً بجانب سريرها تدقّ المرآة بجبهتها غير مكترثةٍ بالدم المتقاطر منها ولا بجلدها المنزوع. وسمعتُها تردّد بلا انقطاع: أين أنت يا مولاي؟ لماذا هجرتني؟ لماذا حرمتني؟ يا لذلك المشهد! لقد جمّدتني المفاجأة لحظةً، ثمّ نفضتُ ذهولي وناديتها مرارًا، ولمّا أيقنتُ أن لا إجابة اقتربتُ منها ورجوتها الكفّ عن صنيعها لكنّها لم تستجب، فمددتُ يدي إلى كتفها بتوجّس وحالما مسكتها تصلّب جسدها كلّه وسقطت أرضًا، وعيناها المفتوحتان تحدّقان فيّ بشراسةٍ وحِقدٍ! ثمّ تشنّجت أنفاسُها والتوَت أطرافُها وأخذت أسنانها تتطاحن وهي تخور حتّى سالت من جانب فمها رغوة بيضاء فحسبتها ستموت! آه يا أستاذ عرفة! ما أحسسته يومئذ لم أعرِف مثله طيلة حياتي. كنت مبلبلةً لا أدري ما أفعل غير مناداتها لعلّها ترد عليّ، وبينما أنا كذلك إذ صرختْ صريخًا صامتًا! أعرف أنّ كلماتي تبدو غريبةً، لكن ما قصدته هو تلك اللحظة التي برزت فيها عيناها إلى أقصى حدّ ممكن وفمها مفتوحٌ مشدود من دون أن أسمع لها صوتًا! وبعدها غرقتُ في البكاء والنحيب ولم أنتبه إلا حين دخل أبي وأمّي مذعورين. والأعجب أنّ دخولهما اقترن بوقوعها مُغمىً عليها».

كانت تلك الرسالة الصوتيّة الأخيرة أشبه بحبل من المرارةِ التفّ حول نفسي، فمكثت أحدّق في شاشة الهاتف وقد أدركث عجزي عن محو تلك المشاهد من ذاكرة سميّة ووجدانها، ثمّ عاودت الكتابة إليها بروح المهزوم: «*ماذا ستفعلون؟*» فجاء ردّها مكتوبًا أيضًا: «*لا نعرف، هي الآن سجينة في حجرتها، تذوي وتنحل في صمت رافضةً الخروج والطعام والنظافة. ونحن من حولها نكاد نُجنّ، ولم يبق لنا إلّا الإكثار من الدعاء والصلاة والتناوب على رعايتها*». ولمّا سألتها مرّة أخرى «*وماذا عن الأخذ بالأسباب؟*» أجابتني بكلمات قاطعة لكنّها لا تخلو من الودّ «*أيّ أسباب وأبي يرفض أن يمسّها طبيب؟! العلاج الوحيد المُتاح في بيتنا هو الرقية. وها إنّ أمّي قد ملأت البيت بخورًا وما فتئت تدهن جسد الجدّة بزيت قرأ عليه أبي ونفث فيه. آه يا أستاذ... بل يا عرفة، فبعد هذا الحديث الخاصّ الطويل ما عُدت شخصًا غريبًا، وبغضّ النظر عن نتيجة حوارنا إصغاؤك إليّ وتأسّيك لمصابي هوّنا عليّ. شكرًا لك، عمت مساءً*».

مشيتُ في غرفة نومي تائهًا شاخصًا، أتنفّس ببطءٍ آملًا أن تخبو حرارة الجمر داخلي، وما كان في إمكاني البوح لأمّي أو لأبي بما بلغني... ولا لي خليل يحمل عنّي. كم تمنّيت وقتئذٍ وجود شريكةٍ بجواري تحتويني وتخفّف من روعي لكنّي كُتب عليّ أن أجابه الحياة وأطوارها وحيدًا، فقبعت على سريري أجترّ ما سمعته.

***

- وماذا حدث بعد ذلك؟ أقصد في ما يخصّك، فمن الواضح أنّ

المحادثة كانت ثقيلةً على عاتقك...

- نعم كانت محادثة ثقيلةً ولا شك... لكن سرد كلّ هذا الآن أنهكني أكثر منها، هل من الممكن أن نواصل حديثنا في وقت لاحق؟

- طبعًا، بارك الله في مسعاك وقوّاك...

- أراك الأسبوع المقبل بإذن الله.

- مع السلامة.

- لحظة... قبل أن تمشي... لم تخبرني بعنوان فيلمك المفضّل...

- «الغاضبون الاثنا عشر».

- جيّد.

- عمت مساءً يا عرفة.

- عمت مساءً يا حضرة المحامي.

الملحق رقم 2: «ترتيلة عرفة»

بحث علميّ بقلم

الفيلسوف والمُحلّل النفسيّ

إرنست دانيلوسكي

عضو فخريّ في جامعة تورنتو

مُقدّمة

يهدف هذا المقال إلى رسم خطوطٍ تُمكّننا من فهم شخصيّة «عرفة بن الإمام»، وكنّا قد تعرّفنا إلى شخصيّته وقصّته بعد تسرّب «سجلّات عرفة» التي أشرفت على ترجمتها إلى اللغة الإنجليزيّة «جمعيّة علم النفس الأمريكيّة» مطلع هذا العام، وستكون مرجعًا رئيسًا لفهم نفسيّة عرفة المتشابكة وتحليلها باستخدام أدوات ومناهج الفلسفة وعلم النفس والأدب.

في السجلّات، وهي مدخلنا الوحيد إلى وعي «عرفة» المُعقّد، نكتشف شخصيّةً مثيرةً للاهتمام، ويتبدّى ذلك جليًا من خلال خِطابه المنمّق المُقنّن، وانتقائه الحريص لكلماته ومصطلحاته وصياغته لجُمله. وكذلك ثقافته وفلسفته التي تتجاوز عمره،

فتجده يستشهد بفردريك نيتشه وفيودور دوستويفسكي وجون ميلتون ونجيب محفوظ وكارل سايجن وغيرهم بمنتهى السلاسة والأريحيّة(11).

ويخبرنا «عرفة» في خطابه أنّ العالم عديم المعنى وصفته الأبرز هي العدميّة. وهو ما يجعل شخصيّته ووعيه جديرين بدراسة أعمق.

كلمات مفتاحيّة: عرفة، سجن، أزمة وجودية، فلسفة، عدمية، أدب، روائيين.

الجريمة، والعقاب، وعرفة:

ألّف الروائيّ الروسيّ فيودور دوستويفسكي من جُملة ما ألّف الرواية الخالدة «الجريمة والعقاب»، فنُشرت أوّل مرّة في شكل سلسلةٍ أدبيّةٍ بحلقاتٍ مترابطةٍ لمدّة 12 شهرًا على صفحات المجلّة الأدبيّة «الرسول الروسي» عام 1866م. وهي تُعدّ ثاني أطول روايات دوستويفسكي بعد عودته من منفاه في سيبيريا وأفضل مؤلّفاته خلال فترة نضجه الأدبيّ.

وفي هذه الرواية قدّم لنا دوستويفسكي شخصيّة روديون راسكولينكوف الطالب الجامعيّ السابق القابع في العوز وكيف سوّلت له نفسه جرّاء ضعفها وخوضها صراعًا داخليًّا متقلّبًا قتل المرابية العجوز إيفانوفنا وسرقة أموالها بُغية التحرّر من قيود الفقر

الذي يكبّله وأسرته، لكنّه بمجرّد ارتكابه الجريمة، عاش معاناةً نفسيّةً فككت مبرّراته الأوليّة تباعًا وأدخلته متاهاتٍ عقليّةً وجسديّةً حاول المؤلّف من خلالها ربط الظروف الاجتماعيّة التي قد تدفع الشخص لارتكاب الجرائم بالحسابات المعقدة لفلسفة العقل البشريّ.

ولكن سبر أغوار أسطر الرواية يُبيّن لنا أنّ الحاجة الماديّة لم تكن الدافع الوحيد الذي حضّ راسكولينكوف على ارتكاب جرمه، ففي الفصل الخامس نكتشف مقاله «عن الجريمة»، الذي نُشر في جريدة «القول الدورية». وفيه يشرح الفروق بين الأشخاص «العاديّين» و«غير العاديّين». وإليكم مقتطفات من الحوار الذي دار بين راسكولينكوف والمحقّق بورفيرى عن هذا المقال:

- المحقّق بورفيرى: «وقد أردت أن تقول، إذا كنت تتذكّر، إنّ على الأرض أناسًا يستطيعون... لا يستطيعون فحسب... بل لهم كذلك حقّ مطلق في أن يرتكبوا جميع أنواع الأفعال الشائنة والجرائم، وإنّه لا قيمة لأيّ قانونٍ عند هؤلاء الناس [...] والمسألة في تلك المقالة هي أن الناس فئتان: فئة العاديّين، وفئة الخارقين. فأما «العاديّون» فيجب أن يعيشوا طائعين خاضعين، وليس لهم الحقّ في مخالفة القانون، وذلك لأنهم عاديّون. وأمّا «الخارقون» فيحقّ لهم أن يرتكبوا جميع أنواع الجرائم وأن يخالفوا جميع القوانين، وذلك لأنّهم «خارقون». أكان هذا رأيك أم تراني مخطئًا؟»

- راسكولينكوف: «ليس هذا ما أردت أن أقوله على وجه الدقّة، لكنّني أعترف بأنّك عرضت فكرتي عرضًا أمينًا [...] والفرق الوحيد

أنني لم أقطع بأنّ جميع الخارقين يجب عليهم أن يرتكبوا دائمًا جميع أنواع الجرائم كما تقول. ولو فعلتُ ذلك لمنعت الرقابة نشر المقالة على ما يُخيّل إليّ. كلّ ما أوحيت به هو أنّ الإنسان الخارق يملك الحقّ... لا الحقّ الرسميّ بل الحقّ الشخصيّ في أن يأذن لضميره بتخطّي بعض الحواجز... وذلك في حالةٍ واحدةٍ هي الحالة التي يتطلّب فيها تنفيذ فكرته هذا التخطّي (وهي فكرة قد يتوقّف عليها سلام النوع الإنسانيّ) [...] وفي رأيي لو أنّ اكتشافات كبلر أو نيوتن، بسبب تظافر ظروفٍ معيّنةٍ ليس لها أن تتحقّق إلّا إذا ضُحّي في سبيلها بحياة فردٍ أو عشرة أفرادٍ أو مائة فردٍ بل بحياة عدد أكبر من الأفراد يُعيقون تحقيقها أو يقفون حائلًا دونها، يكون من حقّ نيوتن بل ومن واجبه... أن يزيح أولئك الأفراد العشرة أو المائة في سبيل أن ينفع الإنسانيّة باكتشافه [...] وجميع المؤسّسين والمشرّعين في تاريخ الإنسانيّة، من أقدمهم إلى أحدثهم، مرورًا بأمثال ليسورجوس وسولون و.... ونابليون وغيرهم يمكن أن يوصفوا جميعًا بأنّهم مجرمون، لأنّهم حين أقاموا قانونًا إنّما خالفوا بذلك قانونًا قديمًا كان يُعدّ مُقدّسًا، وكان موروثًا عن الأسلاف، وليس لهم طبعًا أن يمتنعوا عن سفك الدم (مهما يكن بريئًا في بعض الأحيان، ومهما يكن قد بُذل بذلًا بطوليًا في سبيل القانون القديم) مادام ذلك يُسهّل مهمّتهم، بل يُستحسن أن نلاحظ أنّ أكثر هؤلاء الروّاد الذين أحسنوا إلى الإنسانيّة وأصلحوا المجتمع إنّما كانوا أناسًا شاذّين دمويّين [...] الخلاصة: ها أنت ذا ترى أنّه ليس في ما قلته حتى الآن شيء جديد كلّ الجدّة [...] الرجال ينقسمون، بحكم قوانين الطبيعة، إلى فئتين، بوجهٍ عامّ: فئة دنيا هي فئة العاديّين

الذين لا وجود لهم إلا من حيث أنّهم موادّ إن صحّ التعبير، وليس لهم من وظيفةٍ إلّا أن يتناسلوا، وفئة عليا هي فئة الخارقين الذين أوتوا موهبة أن يقولوا في بيئتهم قولًا جديدًا... والسمات المميّزة التي تفصل هاتين الفئتين قاطعة. فأمّا الفئة الأولى، وهي فئة الموادّ، فإنّ أفرادها، على وجه العموم، أناس، (خُلقوا محافظين)، أناس معتدلون يعيشون في الطاعة ويحلو لهم أن يعيشوا في الطاعة. وبحسب رأيي عليهم أن يطيعوا، لأنّ الطاعة هي ما كُتب عليهم، وليس في طاعتهم ما يُسيء إليهم أو يذلّ كرامتهم. وأما الفئة الثانية فهي تتألّف من رجال يتميّزون بأنّهم جميعًا يكسرون القانون، وبأنّهم جميعًا مُدمّرون، أو بأنّهم جميعًا ميّالون إلى أن يصبحوا كذلك بحكم ملكاتهم. وجرائم هؤلاء الرجال تتفاوت خطورتها وتتنوّع أشكالها طبعًا. وأكثرهم يريدون، بأساليب متنوّعة جدًا، تدمير الحاضر في سبيل شيء أفضل. فإذا وجب على أحدهم، من أجل تحقيق فكرته، أن يخطو فوق جثّة، أو فوق بركة دم، فإنّه يستطيع (في رأيي) أن يعزم أمره على أن يخطو فوق الجثّة وفوق بركة الدم مرتاح الضمير [...] إنّ الجمهور يضطهدهم ويشنقهم (كثيرًا أو قليلًا) وهو في هذا يُمارس حقّه، ويقوم بوظيفته كجمهورٍ محافظٍ، رغم أنّ الأجيال اللاحقة من هذا الجمهور نفسه ستخلّد ذكر أولئك المضطهدين المعذّبين فتُقدّسهم (كثيرًا أو قليلًا) فالفئة الأولى من الرجال هي سيّدة الحاضر، والفئة الثانية هي سيّدة المستقبل».

ويمتدّ الحوار المُعقّد بإسهاب وتفصيل ويأخذ أبعادًا فكريّة وفلسفيّة ولاهوتيّة لا يُمكن حصرها في هذا البحث المُختزل(12).

لقد أدرجنا هذا الحديث لمحاولة خلق خطوط متوازية بين شخصيّة راسكولينكوف وشخصيّة عرفة كما عرفناه من خلال السجلّات، فإذا تجاوزنا الفوارق الواضحة (تشابه الأعمار وقت ارتكاب الجريمة، والأزمة الوجوديّة العدميّة، وحالة الإحباط والاكتئاب، وقتل امرأة عجوز)، نجد أنّ كلًّا منهما عانى من هيمنة شخصيّة نرجسيّة حاضرة في حياته (أمّ راسكولينكوف ووالد عرفة)، وكلاهما بذلا جهدًا لرؤية نسلهما ينجح حيث أخفقا. وقد يسهل علينا معالجة حالة عرفة مع أبيه من منظورٍ فرويديٍّ بحت، بالنظر إلى الحضور الواضح لـ «عقدة أوديب»، ولو بصيغةٍ جديدةٍ، ففي خبايا خيالاته السرّيّة، كان الارتباط العاطفيّ الوحيد في حياته ذلك المثلّث الدرامي في فترة الرضاعة عندما يتنافس الابن والأب على الجدارة بحبّ الأمّ. فيمثّل الأب السيّء الحظّ التدخّل الراديكالي الأوّل من واقع آخر في الحياة الأرضيّة السعيدة المكافئة لكمال الحياة في رحم الأمّ. وتبعًا لذلك يُعدّ عدوًّا، وتُحوّل إليه فورًا شحنة العداء الأوّل التي كانت موجّهةً في الأصل إلى الأمّ «السيّئة» أو الغائبة (وذاك نهجٌ علميّ قد عفا عليه الزمن) فيما تبقى الرغبة في الأمّ «الملائكيّة» أو الحاضرة الحامية التي توفّر الغذاء، موجّهة كما هي إلى الأمّ، على الأقلّ في الحالة الطبيعيّة (سيغموند فرويد - تفسير الأحلام)، أمّا ونحن في حقبة «ما بعد فرويد» فإنّنا نُفضّل منظور البحث الصادر من كليّة هربرت هـ. ليمان في جامعة مدينة نيويورك (2021) لعمقه ورصانته، ولنا أن نقرأ منه ما يلي:

«بسبب عجز عرفة عن تمييز نفسه بوصفها كيانًا مُنفصلًا عن الأب،

تنشأ داخله مشاعر كره لذاته عميقة الجذور، ويؤثّر ذلك على تجارب حياته المستقبليّة. فيخشى الهجران والعدم، وتنمو هذه المشاعر وتتغذّى بفضل نرجسيّة الأب. ويوجّه الغضب إلى ذاته، فذلك آمنٌ له. وتبعًا لما تقدّم يقضي بقيّة حياته يحاول التكفير عن خطيئته المزدوجة: غضبه على أبيه لعدم إرضائه. وأنّه الطفل الجبان الذي لا يستحقّ سوى البؤس».

لا يُقرّ عرفة بدوافع جريمته بوضوح كما رأينا من خلال «سجلّات عرفة»، لكن في إمكاننا استقراء اعترافه إذا ما قرأنا اعتراف راسكولينكوف لسونيا (بائعة الهوى):

- راسكولينكوف: «سونيا، إن لي قلبًا شرّيرًا... أنا جبان... جبان!... نعم، هكذا جرت الأمور، هكذا جرت حقًا! اسمعي كيف جرت: لقد أردت أن أصبح نابوليون، ومن أجل ذلك قتلت... لقد أحسست يا سونيا أنّ السلطة لا توهب إلّا لمن يجرؤ أن يُطأطئ ليتناولها. تكفي الجرأة: الجرأة كلّ شيء! ... أردت أن أجرؤ فقتلت! إنني حين قتلت لم أرد يا سونيا إلّا أن أجرؤ! ذلك هو السبب الذي جعلني أقتل!... حين فعلت ما فعلت لم أشأ حتّى أن أكذب على نفسي: أنا لم أقتل في سبيل أن أساعد أمّي! لا! لا. ولا في سبيل أن أصبح محسنًا إلى الإنسانيّة بعد أن أملك وسائل الإحسان إليها. لا، لقد قتلت لنفسي، لنفسي وحدي!»

يقدّم لنا راسكولينكوف مدخلًا ممتازًا إلى نفسيّة عرفة ودوافعه، فنحن كما أشرنا سابقًا لا نملك الكثير لفهمه عدا السجلّات. وسنعتمد

أسماء أخرى تُعيننا على فهم عرفة خلال هذا البحث، وهم شخصيّات أدبيّة سنأتي على ذكرها في الوقت المناسب(13).

الزيارة الثالثة

الإثنين، 2 ربيع الأول 1442ه

- نوّرت المكان يا داعمي المجهول مصدره... اعذرني على عدم استطاعتي منحك ما تُريد معرفته دفعةً واحدةً فأنا لا أُجيد التلخيص ولا أحبّه، وكما تعلم الشيطان يكمن في التفاصيل. لذا عليك أنْ تتحمّل استطراداتي وثغربلها لعلّك تجد فيها مُرادك، أمّا مرادي فهو الحديث نفسه. ولكن ذكّرني أين توقّفنا؟

- لا بأس عليك، أراك في حالٍ أفضل.

- إن هو إلّا مفعولٌ وقتيّ لقُرصٍ مُنشّطٍ أهدانيه أحد السجناء بمناسبة إعادة إدماجي في العنبر.

- أعلم مدى احتياجك إلى هذا، لكن حاول ألّا تُكثر من استعمال تلك الأقراص لأنّ انتهاء مفعولها يُخلّف انتكاساتٍ صحيّةً ونفسيّةً. في لقائنا السابق تطرّقنا إلى أمورٍ كثيرةٍ، واحتجت إلى مراجعتها وتدوينها كما يجب... وأهمّها حوارك الأوّل مع سميّة... لكن قبل أن نخوض في ذلك، طمئنّي: ماذا حلّ بذاك السجين الذي فقد صوابه؟

- آه... لقد توفّي يوم الجمعة.

- إنّا لله وإنّا إليه راجعون، كيف حدث ذلك؟

- بمجرّد أن نزعوا عنه الكِمامة بعد انقضاء فترة العقوبة عاد إلى نوباته وصراخه، وفي إحداها أهاب بالسجناء أن يُطالبوا بحقوقهم ليصلهم طعامٌ أكثر، فحاول بعضهم تهدئته وإقناعه بالاستكانة والعدول عن التحريض، لكن بدا جليًّا أنّ الجوع والقهر عصفا بذهنه فصار يزعق بلا انقطاع: «طبقًا للائحة السجون لكلّ سجين الحقّ في اثنتي عشرة وجبةً أسبوعيًّا، لكنّكم لا تحصلون إلّا على فتاتٍ تشمئزّ منه الحيوانات، أنتم بهائم لا ترون أبعد من أنوفكم، سأصوم عن الطعام حتّى يستمعوا إليّ ويحقّقوا مطالبي».

وظلّ مُضربًا عن الطعام والشراب مُداومًا على الطرق والزعيق حتّى أثار جنون الشيخ إدريس، وهو بالذات فاحش في جوره، وحشيّ في جبروته كما تعلم، فاقتحم وزبانيته زنزانة الرجل وأبرحوه ضربًا، وكنّا من مواقعنا نسمع صوت ارتطام العظام بالإسمنت والزفت ونترجّى السجّانين أن يتركوه حتّى خرجوا لاهثين مُتعرّقين، وأطلقوا أشنع السباب وأقذعه على السجين. ثم زعق إدريس: «تهنْ بصيامك فلن يصلك منّي رغيف!» وحاول المساجين المحاذون لزنزانة المضروب أن يطمئنّوا عليه ويرموا إليه الطعام، لكنّه لم يصدُر منه سوى الأنين والنحيب، ثمّ أُشيع أنّ إدريس حطّم فكّه، وما أيّد تلك الرواية لاحقًا انقطاع صوته أيّامًا عديدةً، كلّ ما كان يبلغنا خلالها من جاره أنّ جسده يتحرّك. وذات صباحٍ فوجئنا بصوت انتفاضةٍ مُتشنّجةٍ وشخيرٍ خرج من حنجرته كشخير الخروف

المذبوح، ولمّا خفّ الصوت واختفى، أعلن جاره بصوتٍ كالموت نفسه: «المسكين أعطاكم عمره..»، فسمّرنا الذهول من الفاجعة وبكينا في صمت متسائلين كيف أمكن للسجّانين وإدارة السجن تقبّل ما حدث؟ وكيف رضيت ضمائرهم بما اقترفوه؟ فلمّا بدأ أحد رفاق الحبس يتلو القرآن جاءنا الجواب من تلاوته:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وردّدنا معه حتّى هدأت قلوبنا ثم نادينا الشيخ القميء إدريس لنُعلمه بما كان، لكنّه لم يول الموضوع أيّ اهتمامٍ، وعبثًا توسّلنا إليه قائلين إنّ أبسط حقوق الميّت دفنه بسرعةٍ كي لا يمرّ عليه سوى غروبٍ واحدٍ. فبدل الخشوع لهيبة الموت زعق فينا قائلًا إنّ الميّت لن يغادر الزنزانة، وإنّ عليه انتظار عربة نقل الموتى، وألزَمنا الخرس إلى ذلك الحين. وبسبب تأخّر وصول العربة حتّى الظهر تقريبًا، ظللنا نتلو القرآن واجمين وأجفاننا ترفّ، وبعضنا غارق في دموعه، وكيف لا وبيننا ميّت، قتيل... بل شهيد. حسبي الله ونعم الوكيل...

- لا حول ولا قوّة إلا بالله، رحمه الله وغفر له، يبدو أنّ الموتى في هذا السجن ليسوا من ضحايا الجائحة فحسب كما ظننتُ يوم زيارتي الأولى عندما اعترضتني العربة المخصّصة لنقلهم.

- اللهم آمين، على أيّ حال، الحيّ أبقى من الميت.

- صحيح، فلنكمل من حيث انتهينا.

- حسن، بعد الحديث الأوّل الذي دار بيني وسميّة بقيث مشغول البال بها وبحكايتها بضعة أيّام وبينما أنا أحاول طردهما من ذهني إذ اتّصلت بي هاتفيًا لتطلعني على المستجدّات وأهمّها أنّ والدها منذ أكّد له العمّ مرزوق سلامة والدته عضويًا ونصحه بقراءة القرآن عليها وتبخيرها بما يلزم لم يتغيّر اعتقاده في جدوى النصيحة ولا شكّكه فيها ما كان يشهده من تدهورٍ مستمرٍّ لحالة الجدّة. وحين سُئل عن ذلك أجاب بأنّ المشكلة ليست في العلاج بالرقية بل في مقدار تمكّن الراقي، وأعلن أنّه سيستنجد براقٍ محترف لمعالجتها ولم يستطع أحد إثناءه عمّا نواه. ولقد روت لي سميّة ذلك بتأسّف قائلةً: «*لكَم حزّ في نفسي أن أُغرّض والدي وهو مدرّس العلوم عن الطبّ وعلم النفس وتمسّك برأي العمّ مرزوق... وفوق ذلك خاض في شأن جدّتي مع إمام مسجد الحيّ وهو رجل يحتقر العلم الحديث. وبطبيعة الحال ما كان منه إلّا أن زكّى له راقٍ اسمه عبد الجبّار الميمون...*» ولسببٍ ما، اعترتني حيرة غريبة، فقد بدا لي الاسم مألوفًا، وحاولت أن أتذكّر أين سمعته لكنّ سميّة استطردت قائلةً: «*والتقى أبي هذا الميمون في مجلسه المزدحم بالمرضى رغم ما تقتضيه ضوابط مجابهة الجائحة من تباعدٍ، واختلى به وناقش وإيّاه الحالَ والأعراضَ، فأقنعه بضرورة معاينته جدّتي ليرى حالها بأمّ عينه ويعالجها بما تيسّر من العلوم المحجوبة الخفيّة. عرفة، قلبي يكاد يتوقّف من قلقي على جدّتي. قد يحصل لها أيّ مكروهٍ إذا*

خضعت لتلك الممارسات الغريبة المنافية للعلم والمنطق! لقد بحثتُ عن الرجل في شبكة الإنترنت لكنّني لم أجد أيّ معلوماتٍ ذات قيمةٍ عنه. أرجو أن تُساعدني في ذلك. المفترض أنّه سيزورنا بعد غدٍ، وأودّ لو أجد حُجّةً تُقنع أبي بالعدول عن استقباله». استغربت عدم توصّلها إلى أيّ معلوماتٍ في عالم أساسه سهولة تحصيل المعلومة، وخمّنتُ أنّ في الأمر سرًّا لكنّي في الآن ذاته سعدتُ لاستنجادها بي وتحمّستُ لمساعدتها.

- وهل كان ذلك مروءةً لا غير أم هناك سبب آخر؟

- إممم... أظنّ أنّ دوافعي عديدة. منها المروءة طبعًا، ومنها أيضًا الرغبة في الشعور بأنّي شخص مفيدٌ وذو قيمة.

- فقط؟

- فهمت ما ترمي إليه. حسن، لا أُنكر أنّي أردت الاقتراب منها وتوطيد علاقتي بها وأنا الغارق في وحدتي طوال الوقت.

- أفهمك. المهمّ، كيف جرت الأمور بعد ذلك؟

- ما إن بدأت البحث حتّى أدركت أنّي ظلمتها. لقد كانت مُحقّة، لا توجد على الشبكة العنكبوتيّة أيّ مادّةٍ مفيدةٍ عن الرجل... لا محاضرات، ولا مقالات، ولا حسابات في مواقع اجتماعيّةٍ، وأيضًا لا وجود لأيّ معلوماتٍ عن تعليمه الرسميّ... أمّا الصور فقليلة جدًّا

وجودتها ضعيفة، وكلّها صور جماعيّة، لا تُفيد في تحديد هويّته، وهو ما أثار حنقي وارتيابي في الآن ذاته.

- لماذا؟

- لماذا ماذا؟

- لماذا شعرت بالحنق والارتياب؟

- لا أدري بالضبط، ولكن أعتقد أنّي مُفرط الحساسيّة من النصّابين الذين يستغلّون جهل العامّة وفقرهم ويحولون بينهم وبين العلم الحديث باستقدامهم إلى مجالسهم. فترى سطوتهم في حارات المحرومين... أو في الحلقات العاجّة بالمريدين... أو على قناة فضائيّة أعيى مشاهديها الدجل والادّعاء. والأدهى والأمرّ أنّ هذه الآفة تسلّلت إلى دواليب الدول حتّى إنّ إحداها، بحسب ما قرأت في مقال صحفيّ، ادّعت أنّها اعتمدت في استراتيجيّتها العسكريّة القوميّة دعم الجيش الوطني بجيش من الجنّ المؤمنين. وما يُسهّل تفشّي هذه الخُزعبلات وفرة مداخيلها، لذا لم أستغرب حين علمتُ أنّ حلّاقًا في حارة ترك صنعته والتحق بركب الرّقاة لتحسين دخله، فلطالما كان التكسّب من سذاجة الآخرين مُجزيًا. يكفي الواحد من الدجالين أن يُجيد مخاطبة البلهاء واستغفالَهم لينال مُراده وأكثر.

- وماذا فعلت إزاء شحّ المعلومات عن عبد الجبّار هذا؟

- لقد راودني إحساس بأنّي أعرف اسمه، فشرعت أهرش ذاكرتي هرش الأجرب جسده، ورغم التوتّر والانزعاج اللذين تملّكاني جرّاء استعصائها ظللتُ أحاول وأحاول... وبينما أنا على تلك الحال سمعتُ صوت باب حجرتي يُفتح، ثمّ دخلت أمّي حاملةً صينيّة الطعام ووضعتها على مكتبي وقبّلت رأسي بحنان لم تبخل به عليّ يومًا، لكنّي والحقّ يُقال بقدر حاجتي إليه لطالما احتجت إلى وقوفها معي في مواجهة إملاءات أبي وهو ما لم تستطعه قطّ. وبعد أن تفحّصتني بعين القلق والارتياب سألتني: «ما الذي يشغل ولدي؟» فأجبتها وكلّي حرص على إخفاء القسم الأهمّ من الموضوع: «لقد مرّ بي اسم بدا لي مألوفًا وأكاد أجزم أنّي أعرفه ولكن لا أذكر أين، ولن يهدأ لي بال حتّى أتذكّر من يكون هذا المدعو عبد الجبّار الميمون» وكم أدهشني أن ردّت على الفور: «آه، مؤكّد أنّك سمعت اسمه من أبيك فهو من خاصّته في المسجد».

- ماذا؟!

- أنا أيضًا يا صاحبي ذُهشتُ دهشتك هذه وُقلتُ ما قُلتَ بالضبط، فجاءني ردّها قاطعًا: «نعم هو من أصحاب أبيك ما في ذلك شكّ، وأظنّه نائبه في الإمامة على ما أذكر...» ومن سرورها بأنّها قدّمت لي المعلومة التي أريد قبّلت جبيني مرّةً أخرى وأوصتني بأكل الطعام قبل أن يبرد ثمّ غادرت وتركتني غارقًا في أفكاري واستنتاجاتي: أبي يعرف عبد الجبّار، وأبو سميّة استشار إمام مسجدٍ، وإمام المسجد هذا يبغض العلم الحديث ويؤمن فقط بالعلوم الدينيّة، وفي

نظره الرقية هي الدواء، وهو من دلّ والد سميّة على عبد الجبّار، وعبد الجبّار من خاصّة أبي، فلِم لا يكون أبي هو هذا الإمام الذي قصَدَه والد سميّة؟ استلقيتُ على السرير وقد غدت أفكاري ذئابًا تنهش عقلي، فعلاقتي بسميّة تجاوزت إطار الثلوثيّة وأبي على ما يبدو قدّم نصيحةً قد تتسبّب في وفاة جدّتها، وهي مُحتاجة إلى عوني لجمع معلوماتٍ عن عبد الجبّار ثُثني أباها عن استقدامه لرقي الجدّة، لكن مادام والدها على شاكلة أبي في قناعاته وعناده فالأمر مقضيّ ولا سبيل للخلاص. هكذا حدّثتُ نفسي، لكنّي شرعان ما خطر لي خاطر فتساءلتُ: «أولستُ أدّعي انعدام الجدوى تجنّبًا لمواجهة أبي؟» وبدا لي ذلك منطقيًا ومعقولًا، فعلاقتي بوالدي بلغت من التأزّم أنّني إذا وجدتُ نفسي أمامه صدفةً في البيت أو خارجه وسلّمت عليه يُشيح بوجهه عنّي كأنّي وصمة عارٍ، ويردّ السلام بصوتٍ خافتٍ لوجوب ذلك لا أكثر وليس لجدارتي به، فأنّى لي أن أسأله عن عبد الجبّار؟

- وأنت تُريد التمسّك بأيّ طرف خيط يوصلك إلى ما تنشده من معلوماتٍ؟

- نعم، لأنّ سميّة في أمسّ الحاجة إليها.

- وأيضًا لأنّ حصولك على تلك المعلومات مبرّر جيّد للاتّصال بها.

- حسن، أنا في المعتاد لا أقبل هذا الأسلوب الشبيه بالاستجواب، لكن ما دمتُ أعدّك صديقًا أجيبك. نعم، كنت أتحرّق شوقًا للاتّصال

بها.

- وماذا فعلت؟

- بعد تفكيرٍ عميقٍ انتهيتُ إلى حتميّة استدراج أبي وسلبه ما أحتاج إليه من معلوماتٍ بذكاءٍ. ولمّا كان يملك مجموعةً من كتب الفقه والتفسير يقول إنّها نادرة ويحرص عليها حرص الأمّ على رضيعها، قرّرت أن آخذ منها مُجلّدين ضخمين عن الإعجاز الرقميّ في القرآن يستحيل ألّا يلحظ غيابهما، وهو أمر لن يسأل عنه والدتي لأنّها أميّة لا علاقة لها بالكتب وأيضًا لتأكّده من التزامها التامّ بتعليماته وأوّلها عدم الاقتراب من كتبه. وتبعًا لذلك لا يبقى غيري ليستجوبه ويُوبّخه وعندما يحدّث المراد أدّعي أنّ أحد أصدقائي ذكر وجود معادلاتٍ رياضيّةٍ وفيزيائيّةٍ في بعض السور يمكن استخلاصها باعتماد الترتيب الرقميّ لآياتها وعدد حروفها والقيمة الرقميّة لكلّ حرف منها، وأنّه استقى تلك المعلومات من صديقٍ له استقاها هو أيضًا من راقٍ شهيرٍ اسمه عبد القادر الميمون -أو ما شابه ذلك- أكّد له أنّ كلّ ذلك مفصّلٌ في مجلّدين نادرين عن الإعجاز الرقميّ في القرآن، وهو ما دفعني إلى تفحّص المجلّدين الموجودين في المكتبة لعلّهما يكونان المقصودين. وطبعًا أكثر ما سيهتمّ به أبي هو توبيخي على عدم استشارته قبل لمس أيّ كتابٍ وتصحيح اسم الراقي مع تقديم موجزٍ عنه لإثبات جهلي.

- وهل تمّ الأمر كما خطّطت له؟

- مضيتُ إلى المكتبة بعد غروب الشمس بقليلٍ، وكان أبي وقتئذٍ نائم وكلّ شيءٍ على ما يُرام، وقفتُ أمامها مُتوجّسًا ومددتُ يدي إلى أحد المجلّدين المذكورين لسحبه وإذا الدم يطفر من أنفي فجأة، فخشيت أن تهوي قطرات منه على السجّاد وسارعت بالعودة إلى غرفتي، وهناك حاولت كفّ السيلان بحشر ذؤابتي منديل في منخريّ لكنّي لم أُفلح بل ازداد الأمر سوءًا بأن انتابتني دوخة شديدة قاومتها لحظات وأنا أمنّي النفس بالوصول إلى قارورة ماءٍ بجانب سريري، ولمّا أدركت عجزي عن ذلك استسلمتُ لغفوةٍ لا أعلم مقدارها أفقت منها وذهني مشوّش وبي رغبة في لطم نفسي من الحنق. وكان أوّل ما فعلته أن تفقّدتُ هاتفي وتأكّدت من عدم وجود أيّ رسالةٍ من سميّة ثمّ أسرعت إلى غرفة المكتبة مرّةً أخرى وليتني ما فعلتُ، فعند عتبتها بالضبط اعترضني أبي وهو يهمّ بالانصراف، وبقدر ما تفاجأتُ بوجوده تفاجأ هو أيضًا بوجودي واستغرب عجلتي الظاهرة فسألني: «ما بال وجهك مصفرّ كالخائب يوم السؤال؟» ورغم محاولتي التماسك والظهور بمظهر الواثق تلعثمت وأنا أجيب: «آه... إممم... اعذرني أبي... لا أدرى ما جرى... لقد... أغمي عليّ فجأة...» وكلّي يقين أنّه لاحظ ارتباكي وأراد إحراجي أكثر بالقول: «لماذا تعتذر إليّ؟ نفسك أجدر منّي باعتذارك. هل صلّيت؟» أجبته مُبرّرًا: «كما ترى... كنت مُغمى عليّ و...» وعندئذٍ أطبق عليّ بالسؤال الأهمّ: «ولماذا أتيت إلى هنا قبل أن تُصلّي؟» ولا أعلم يا صاحبي أيّ شيطان محا من ذهني كلّ الأجوبة المُقنعة الممكنة ودفعني إلى ادّعاء أنّي ما ذهبت إلى هناك إلّا لسؤاله عن الصحابيّ عبد الجبّار الميمون!

- ههه... جعلتَ الراقي صحابيًا! ما أعظم حظّه!... اعذرني على ضحكي لكنّ الأمر طريف حقًا.

- حتّى أبي ضحك ممّا قلت، لكنّه لم يكتف بذلك بل استرسل في موشّحٍ من التقريع قائلًا: «سوّد الله وجهك وأنار دربك، عبد الجبّار الميمون صحابيّ! يا خيبتي في تربيتك! عبد الجبّار ليس من أصحاب الرسول يا أحمق بل من أصحاب أبيك. لو كنت تُواظب على الصلاة في المسجد لعرفته حقّ المعرفة، ولو فيك ذرّة من علمٍ كما يُخيّل إليك لما التبس عليك أمر أيّ من الصحابة والتابعين... لكنّك مفتون بما تسمّيه العلم الحديث وكلّه عرضيّ زائل بزوال هذه الدنيا الفانية التافهة، وما أجلى ذلك في نسبتها إلى الأدنى. إي نعم لست أُنكِر أنّ فيه بعض الخير ولكن حاشا العلم الأصيل أن يُقارن به وهو النافع في الدنيا والآخرة معًا».

- يا لشطط أبيك! أكان يأمل أن تحفظ أسماء الصحابة والتابعين جميعًا؟!

- ذاك هو أبي، والحمد لله أنّني أعرف كيف أستدرجه إلى مُبتغاي. فبعد أن قال ما قال أظهرتُ عدم الاقتناع بشهرة الميمون عند روّاد المسجد مُغمغمًا وكأنّي أبرّر جهلي باستحياءٍ في الآن ذاته: «ما من أحدٍ يعرفه الناس ويُقرّون بعلمه إلّا وله صور في الشبكة العنكبوتيّة، لذا التبس عليّ الأمر وظننته من الصحابة غير المشهورين» وعلى الفور ابتلع أبي الطعم وقال: «ههه ما زلت تُكابر! اعلم إذن أنّ عبد

الجبّار قد يبزّ أباك شهرة عند الناس، لا لأنّه أعلم منّي، ولو كان كذلك لسلّمت بأفضليّته غير حاسدٍ، بل لسهولة اختلاطه بهم من دون تحفّظ تُمليه عليه وظيفة الإمامة كما في وضعي. لكنّ كنيته وهي [أبو علّامة] غلبت على اسمه لاستحسانه إيّاها اعتدادًا بابنه علّامة -وحُقّ له الاعتداد بولدٍ مثله- وإيعازًا بأنّ والد العلّامة لا يكون إلّا بحرًا من العلم» وإذ استشفّ من تهلّل أساريري انبساطي بما سمعت رغم ما فيه من غمزٍ لي سألني بنبرةٍ لا تخلو من الارتياب: «لم تقُل لي لِمَ تسأل عنه؟» ومن ألطاف الله أن ثُبث إلى رشدي وأغشيثه بقصّة الإعجاز الرقميّ في القرآن وورود اسم عبد الجبّار الميمون على لسان صديقٍ صديقي، وإمعانًا في التمويه استأذنته في أخذ أحد المُجلّدين المَرجَعَين في ذاك الموضوع إلى غُرفتي للاطّلاع عليه فأجابني بتطاوس المُنتصر: «بل خذ الاثنين فأحدهما يُكمّل الآخر، واحرص عليهما حرصي على حسن عاقبتك، أصلح الله أمرك». وكان دعاؤه لي ختمًا للّقاء، ولا شكّ في ذلك وقد قرنه بإشاحة وجهه عنّي، فتركته وعدتُ إلى غرفتي مُضطرب الخطو مُنتعش القلب، وفي ذهني أمر واحد: أن ألج عالم عبد الجبّار الميمون وأسبر غوره في أقلّ ما يُمكن من الوقت. أمّا كلّ ما جرى لي حتّى تلك اللحظة من توجّسٍ وإغماءٍ ثمّ مواجهةٍ غير متوقّعةٍ لأبي فعددتها ضريبة النجاح وما أجلّها من ضريبةٍ!

- وهل أوصلتك الكنية التي عرفت إلى ما كنت تنشده من معلوماتٍ؟

- وأكثر! فبمجرّد أن أبحرت في الإنترنت بحثًا عن الرجل بلفظ: «أبو علّامة» بدلًا من عبد الجبّار الميمون تغيّر كلّ شيءٍ ووجدتُ عددًا لا بأس به من الصور والمقالات والتسجيلات حتّى إنّي أخذتُ أفاضل بينها إلى أن شدّ انتباهي رابط محاضرةٍ مصوّرةٍ بعنوان «إصلاح ما أفسده الزمن» فنقرتُ عليه وإذا أمام ناظريّ مجلس في وسطه كرسيّ، ذكّرني بحلقات الشيخ الرؤوف محمد متولّي الشعراوي رغم افتقاره للوداعة والنقاوة التي ميّزت مجلس الشيخ المرحوم. وكانت الحشود تتوافد وتتزاحم أمام الكرسيّ إلى أن ظهر على الشاشة جسم ضخم ثقيلٌ تبوّأ الكرسيّ فوسعه بمشقّةٍ. وبدا واضحًا أنّ هيبة حضوره كبتت نفوس مريديه وأوجفت قلوبهم. ولا عجب والرجل فضلًا عن عِظم جثّته ذو عينين ضيّقتين نظرتُهما حاميةٌ، ووجهٍ أسمر عريضٍ صارمٍ، ورقبةٍ مُمتلئةٍ هي قرينة الصحّة والعافية. وكي يُكمل بنفسه صورة الرجل الشديد التي منحته الطبيعة أهمّ مقوّماتها أطلق شاربه ولحيته بغير نظامٍ وضمّخ شَعرهما الكثيف بالحنّاء. أمّا ثوبه فلم يقلّ عن شخصه تجهّمًا بلونه الرصاصيّ الكئيب، ولولا العمامة على رأسه لصار أشبه ببقعةٍ داكنةٍ تُلطّخ المشهد الذي يسوده بياض أثواب الحضور. وأكثر ما شدّ انتباهي في جلسته أنّ يديه النافرة عروقهما كانتا مشبوكتين أمام بطنه كأنّما لخلق حدّ بينه وبين المُصغين إليه. وبينما هو يُبحلق في الحضور بعينين صارمتين قرّب إليه شابٌّ صغيرٌ مكبّر الصوت واختبره سريعًا وتقهقر من دون أن يوليه ظهره، فحرّك رأسه من اليمين إلى اليسار موزّعًا نظره على الجميع وكأنّه يترصّد أيّ حديثٍ جانبيٍّ ليُقرّع المتحدّث، ثم ارتشف رشفة ماءٍ وتنحنح وبدأ خطبته

العصماء(14).

***

«لك الحمد يا إلهي، يا من جعلني أجوب المتون القفار، وأخوض لجج البحار، وأخبُر مطارح الفلاة. كلّفتني يا صانعي ببذل الجليل في سبيلك وسبيل عبادك الصالحين.

يا جاعلي ميمون الغرّة، حجّة الحقّ، وقِبلة السائلين...

وجدتني ضالًّا فهديتني، ومُرتابًا فمننت عليّ بالكشف العظيم...

مهّدت لي بواطن العلوم المعمورة والنوافل المستورة فتوهّج قلبي وعقلي بمدارك لم تُأتَ إلّا لصفوة الصفوة من عبادك منذ سليمان بن داود، عليهما أتمّ الصلاة والتسليم

مدّ مدد... (يكرّر الأتباع من بعده مدّ مدد)

تنامى إلى علمي يا عُصبة الإيمان أنّ قومًا من المُحدثين تجرّؤوا على أسرار الكتاب المبين، قرآننا الكريم. فجعل سلالة المُعتزلة هؤلاء يتطاولون على السنن الكونيّة ويفسّرونها في معاملهم ومحافلهم عليهم من ربّ العالمين وأنبيائه كلّ لعنةٍ وذلّةٍ. ونحن يا أحبّتي لا ننفي العقل والفهم، ولكنّ الله لم يؤتِ كلّ عباده نوره، واصطفى لذلك الصالحين منهم، وجعلنا من المُختارين البصيرين وذوي السعة

في الفهم والمنطق، فغنمنا ما لم يغنم العباد. وليس ذلك بيسيرٍ، فنحن بين الغيبيّ والمفهوم ساعون، وفي بركة نور علمه راتعون.

أبَلَغَكم ما به يتفوّهون؟ أتعلمون ماذا يتقوّلون؟ أولئك المُتزلّفون؟ أولئك المُتعلّقون بأذناب الفرنجة الكافرين؟ ينسب هؤلاء الخانعون أفعال الجنّ إلى أمراض نفسيّةٍ أو عضويّةٍ. ويحهم حطب جهنّم! يتحجّجون بمجازيّة الأدلّة، أو ضعف السند، أو محدوديّة الفهم. وها إنّي أقول لهم: خسئتم يا رماد سقرا ولحيتي خسئتم!

ألم يقل الحكيم الكريم في مُنزّل كتابه العزيز:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾،

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾،

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾،

أذاك مجازٌ أيّها الخاسئون؟ أذاك سوء تفسيرٍ يا طغمة التدليس والتلبيس؟ لقد قرأتُ حججهم وتأويلهم يا إخوة الإيمان، فرأيتهم يتذرّعون بالشبهات ويتجاوزون الكلام المبين ويحرّفونه، فيقولون إنّ الرقية لإخراج النفس الأمّارة بالسوء مجرّد تخييلٍ وإيحاءٍ بالعلاج ويتمنطقون بمنطق الكفرة ويتّكلون على رأيهم لتحريف الآية القرآنيّة: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ

وَكِيلًا)، ويحوّرون المعنى في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ وآية ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ وما جاء عن كرب أيوب عليه السلام في الآية: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾. خسئوا! أما علِموا أن الله سخّر هاروت وماروت للموكّلين عليهم؟

ولم أفصح لكم بعدُ أيّها الأحبّة عن الطامّة الكبرى! إنّهم إذا ذكروا سحر المنافق لبيد بن أعصم الذي آذى رسول الله، نسبوه إلى عقارٍ مسمومٍ. حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل!

مدّ مدد... (يكرّر الأتباع من بعده مدّ مدد)

لكنّنا أيضًا مسؤولون، فقد غضضنا النظر طويلًا عن هؤلاء المارقين وتركنا لهم المجال فسيحًا ليلووا عُنق الدين، والآن وجب علينا الاعتراف والاغتراف، الاعتراف بأنّنا للملامة مستحقّون... ثمّ الاغتراف من منهلٍ فجّر ينابيعَه الأقدمون، وحقّ أن أذكّركم وأذكّر نفسي قبلكم بما نحن عنه ساهون، فأعرّف الجنّ كما عرّفهم الأوّلون ثم أتوسّع في باقي المحاور: بحسب المنزّل الحكيم، هم مخلوقون من مارجٍ من نارٍ. وابن سينا عرّفهم بأنّهم حيوانات هوائيّة، وفي ذلك إشارة إلى رِقّة أجسادهم وشفافيّتها التي شبّهها المعاصرون بالكهرباء، موجودة غير مرئيّةٍ، ومحسوسة غير ملموسةٍ. ويوافق الغزالي ابن سينا مُضيفًا أنّهم حيوانات ناطقة، أمّا الدميري فيقول إنّهم علاوةً على ما ذُكر ذوو عقولٍ وأفهامٍ. وكلّ ذلك مقبول ولا

كراهة، لكن من أوتي نور الله وبركته دون سواه يدرك وجودهم حولنا، ووجود عتبةٍ منها إلى عالم البشر ينفذون، ويعلمُ يقينًا أنّهم يتشكّلون في شاكلتنا أو شاكلة حيوانٍ، وأنّ بعضهم قانتٌ لا يتعرّض للمرء إلا إذا آذاه، والبعض الآخر خبيث يضمر للبشر سوء المنقلب فيظلمهم ويتلبّسهم ويؤذيهم. والحمد لله أن أودعني سرّه وخصّني وصفوةً من عباده بالقدرة على مُجابهة طَغامَ الصنف الثاني، وشفاء الواقعين تحت سلطانهم بمشيئته عزّ وجلّ، وما أكثر الدجّالين الآثمين.

وكم مرّةً يا إخوة الإيمان سألني المُشككون والمُغرضون: لماذا أيّها الشيخ تجلد الممسوسين؟ ألا يكفيهم بلاؤهم؟ وكنت أجيب أولئك الذين تهلهل إيمانهم بأنّ فعلي ذاك إنفاذٌ لسُنّة ربانيّةٍ، وحكمةٍ إلهيّةٍ، فالمنحة قرينة المحنة. وعَجبًا لأمرِ المُؤمِنِ إنّ أمرَهُ كُلَّهُ خَيرٌ. ألم يغمر ربّ العالمين الأرض بماء الطوفان حتى تتطهّر ونجّا نوحًا وأهلَه على متن الفلك المتين؟ ألم يُبتلَ يوسف بسبع سنين من الحبس حتّى يتبوّأ منصبه وزيرًا على مصر؟ ألم يلتقم الحوت يونس وهو مُليم فلمّا تضرّع واستغفر نَبَذَهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ؟ وأمثلة مَن شملهم الابتلاء قبل العطاء من أنبياء الله وعباده المُتّقين لا يُحصى ولا يُعدّ يا أحبّتي... وأمّا وقد كلّفني وشرّفني سبحانه بترصّد العفاريت والمردة، فإنّ ذلك لا يكون إلّا بالحزم والردع وزرع الخوف في قلوبهم... وليس هذا بالأمر الهيّن أيّها الإخوة..»

***

- وطوال الوقت الذي قضّاه الميمون صادحًا في حشد الأتباع كان كلّ منهم يتحيّن أيّ إشارةٍ أو نظرةٍ يوجّهها إليه عند ذكره المتّقين والصالحين، وجميعهم مقتنعون بأنّها البشارة بالفوز العظيم. وبقدر ما استأثَ من ذلك الوثوق الأعمى بشخصٍ مُدّعٍ يعيش على الإيهام والمخاتلة خفت على جدّة سميّة منه، فبحسب ما بلغني عن رقّة عظامها ووهن جسدها بصقةٌ منه كفيلة بقتلها! وكان من الضروريّ الحيلولة دون وصوله إليها فسارعت بمهاتفة سميّة لأعلمها أنّ الراقي الذي سألتني عنه يعتمد في ما يُسمّيه «علاجًا» جلدَ المرضى وتعنيفَهم بشتّى الوسائل لعلّ المعلومة إذا دُعّمت بفيديو الخطبة تُثني والدها عن تنفيذ عزمه، لكنّها لم تُجب، وعبثًا عاودتُ المهاتفة

مرارًا وتكرارًا حتّى غلبني النوم فنمت ولم أصحُ إلّا مع تباشير الصباح الأولى. وعندما نظرت في شاشة هاتفي الجوّال مُستطلعًا ما إذا كانت قد أرسلت رسالةً أم لا ألفيت الساعة لم تبلغ السادسة بعدُ وملفّ الرسائل كما هو لا يحمل جديدًا، فلبثت في سريري برهةً مُمتعضًا من عدم ردّها على اتصالاتي المتكرّرة ولا إرسالها رسالة توضيحٍ واعتذارٍ والحال أنّها هي من أقحمني في هذا الموضوع وشغل به بالي. ومن شدّة حنقي قرّرت التوقّف عن الاتّصال بها.

- يبدو أنّ مشاعرك كانت مضطربةً في ذلك الصباح.

- أجل، وربّما مردّ ذلك إلى الضغط الذي عشته في الليلة السابقة، والمشكلة أنّه ازداد في ما بعد أكثر فأكثر...

- كيف؟

- لقد اتّصلت بي سميّة قُبيل الظهر بقليلٍ وكنت في حالةٍ لا أُحسد عليها من القلق والتوتّر ففتحتُ الخطّ وبي رغبة عارمة في لومها بشدّةٍ لكنّني شرعان ما لاحظت عليها وهنًا شديدًا وهي تقول: «*أهلًا عرفة، آسفة الآن تفطّنت لاتّصالك...*» فتركت كلّ ما أزمعتُ من اللوم والعتاب وقلتُ بتوجّسٍ: «*أرجو أنّ الأمور على ما يُرام*» حتّى إذا مرّت لحظات من دون أن أتلقّى منها أيّ إجابةٍ سألتُها مباشرةً وفي نفسي توقّعٌ مُعيّنٌ: «*سميّة ماذا حدث؟ هل أهلك بخير؟*» وجاءني الردّ الذي خشيته مُختزلًا في أربع كلمات: «*عبد الجبّار زارنا أمس*». ثمّ علمت منها ما مفاده أنّه أقنع والدها بضرورة الحضور في أقرب

وقتٍ خشية أن يُصيب الجدّة مكروه في فترة انتظار الزيارة إذا طالت، وهكذا حلّ بينهم في ذلك الوقت الذي قضّيته مقتفيًا آثاره على صفحات الإنترنت.

- وماذا فعل بالضبط خلال وجوده هناك؟

- لقد أسرف في دجله وغيّه يا صاحبي ولكنّ الوقت المتبقّي لا يكفي لأحدّثك بالتفاصيل، فما هي إلّا دقيقة أو دقيقتان حتّى يُعلن أبو حمزة انتهاء الزيارة.

- لا تشغل نفسك به، سوف يمنحنا نصف ساعة إضافيّة.

- كيف عرفت؟

- إنّه أمر بسيط سأخبرك به لاحقًا. أمّا الآن فسخّر تركيزك كلّه لتذكّر تفاصيل ما جرى.

- حسن، أوّل ما علمته من سميّة أنّ عبد الجبّار وصل إلى بيت أهلها في وقت حظر التجوّل بمساعدةٍ من العمّ مرزوق صديق والدها، إذ استغلّ الرجل امتلاكه صفة الممرّض ليُقنع أيّ شرطيّ يستوقف سيّارة عبد الجبّار بأنّه يُرافقه وابنه الشابّ المريض الراقد في المقعد الخلفيّ إلى المصحّة بعد أن عاينه وأيقن ضرورة تلقّيه إسعافاتٍ عاجلةً على يدي طبيبٍ مُختصّ. وكان وصول الوافدين الثلاثة بعد صلاة العشاء بقليلٍ فاستقبلهم والد سميّة عند باب البيت

وتقدّمهم إلى الداخل هاشًا باشًا، العمّ مرزوق خلفه تمامًا ثمّ عبد الجبّار ثمّ ولده علّامة ومعه حقيبة سوداء كبيرة. وفيما وقفت سميّة ووالدتها خلف باب أقرب الغرف إلى قاعة الجلوس تتأمّلان سحنة الراقي وحركاته وتابعه (من دون أن تعلما أنّه ابنه) كان هو يُجيل النظر في أرجاء المنزل كأنّما ليستشفّ ما خفي من أمور ثمّ قال: *«أستشعر حرارة غير طبيعيّةٍ، لقد تغلغل الرجيم، مبعوث الجحيم في بيتكم... أتشمّون أبخرة الكبريت والرصاص؟ تلك أنفاسه وما يفوح منه وأمثاله إذا ما تفصّدوا عرقًا ونشوةً... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... تبارك الذي جعل في السماء نجومًا وقدّرها قلاعًا وقصورًا حصينةً مشيّدةً. اللهم بارك مسعانا ويسّر أمرنا وقِنا سوء المنقلب»*. ثمّ مدّ يده إلى ولده وأخذ منه الحقيبة السوداء وقال وهو يُشير إليه *«آتاني ربي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي، علّامة ابنِي، أَشُدُّ بِهِ أَزْرِي، وَأُشرِكْهُ فِي أَمرِي»*. وكان الغلام الشبيه بأبيه أعظم الشبه في الغلظة والسماجة يرمقه بنظرة إجلالٍ وخضوعٍ لا مراء فيهما وقد أكسبته الندوب الكثيرة في رقبته وأعلى خدّه الأيمن هيئة محاربٍ قديمٍ رغم أنّه ما يزال شابًّا. والمُضحك من أمره وفق ما روته لي سميّة أنّه حينما بادره والدها بتحيّة أهل الجنّة: *«السلام عليكم»* ردّ قائلًا: *«وعليكم السلام ورَحمة الله وبرَكاته»* وهو ما دفع والده إلى تبرير علّته إذ شعر باستغراب صاحب البيت التناقض الظاهر بين شكل ابنه وكلامه فقال: *«إنّه أثغ. لم يكن كذلك لكنّ واحدًا من سلالة النار نقر لسانه فيما كنّا نحاول طرده من جسم فتاةٍ عَشِقَها»*. وكي يُؤكّد أن لا حرج على ابنه في ذلك بسط يده اليسرى مُفرّجًا بين أصابعها السمراء الغليظة ليُظهر غياب إصبعه السبّابة قبل أن يقول بلهجة الخبير

المسلّم بأمر الله: «*في وسع عدوّ الله أن يكون خطِرًا حتّى على المُصطفين من عباده إذا لم يلزموا الحذر*».

- لا شكّ في أنّ هذا المُسمّى عبد الجبّار مدّع أفّاك، وحسبنا مشاركته العمّ مرزوق الكذب على رجال الأمن، ولكن مع ذلك تبدو لي أساليبه في الإقناع جديرةً بالاهتمام. المعذرة على المقاطعة، تفضّل أكمل.

- مع انتهاء طور الترحيب واقتراب الدقائق الحاسمة استأذن العمّ مرزوق صاحبه في المغادرة لاحتياج عائلته إليه، وكي يُتمّ معروفه قدّم لعبد الجبّار ورقةً طبّيّةً تُثبت أنّ ابنه كان بصدد تلقّي إسعافاتٍ عاجلةٍ في المصحّة ليستظهر بها إذا أوقفه رجال الشرطة وهو عائد إلى بيته. وحالما انصرف داعيًا للجماعة بالتوفيق وفاسحًا لهم المجال لمزيد من التعارف، سارعت سميّة وأمّها إلى الجدّة حليمة فسربلتاها عباءةً سوداء من قمّة رأسها حتّى أخمص قدميها ثمّ بخّرتا أرجاء البيت كلّها فاختلطت رائحة البخور بنتانةٍ باهتةٍ صادرةٍ من حجرة الجدّة لم تُجد كلّ محاولات التنظيف والتهوية في القضاء عليها نهائيًا. ومن أكثر ما علق بذهني في وصف سميّة للّحظات التي تلت ذلك قولها: «*كان الجوّ مشحونًا وغريبًا، فوسط الصمت الثقيل الذي ران على البيت وجعله أشبه بمقبرةٍ مهجورةٍ، استشعرت قدرةً غير مألوفة على تحديد الروائح الكثيرة المتفشّية في الهواء. نعم، لقد صرت فجأةً مثل ذلك الشابّ في الفيلم*(15) *أستطيع شمّ أخفت الروائح وتمييز بعضها من بعض، وأغرب ما اكتشفته وقتئذٍ أنّ*

المشاعر كما الأشياء لكلّ منها رائحته الخاصّة، فأنا وأمّي مثلًا فاحت من مسامنا رائحة الخوف والقلق، وأبدان أبي والراقي وولده عبقت برائحتَي التربّص والتأهّب، أمّا جدّتي فقد اختلطت رائحة يأسها بأخرى منبعثةٍ من جسمها أشبه برائحة الزرنيخ». وعلى ضوء ذاك الكلام المهمّ والغريب معًا هممت بسؤالها عمّا إذا كانت قد اشتمّت من عبد الجبّار رائحة الدجل والخداع لكنّها لم تمهلني وواصلت قائلةً: *«وللتخفيف من ثقل الأجواء وطرد ما اعتراني ووالدتي من خوفٍ، شغّلتُ تسجيلًا للشيخ عبد الباسط عبدالصمد يتلو فيه ما تيسّر من القرآن الكريم وعدتُ وإيّاها إلى مكاننا خلف الباب القريب من مجلس الجماعة. وبالفعل ما إن صدح صوته في المكان حتّى اذهب قسطًا لا بأس به من وجلنا وتوجّسنا»* ثمّ أنبأتني بأن عبد الجبّار قبل أن يُرافق والدها إلى حجرة الجدّة أوصاه بالانقطاع عن مخاطبتها (أو من يسكن داخلها). وتجنّب التمعّن في عينيها، وتلاوة ما يأمره بتلاوته، وأهمّ شيء: الإذعان والطاعة. ولم يلبث أن سأله: *«أتعاني الشيخة من أيّ مرضٍ أو علّةٍ؟»* وألحق قوله بإشارةٍ من يده أن تمهّل، ليُضيف مُوضّحًا: *«يقتات الرجيم وزبانيته على ضعاف العقول ومعطوبي القلوب. فهم أخضع لسلطانه من سائر البشر وسبيله إليهم سهلة مُمهّدة، ما لم يتصدّ له مُختار مُجتبى»*. وفيما كان ينظر إلى ربّ البيت ليتلقّى منه الردّ أجابته شميّة من خلف باب حجرةٍ مجاورةٍ: *«منذ حوالي شهرٍ بدأنا نُلاحظ عليها علامات الخرف»* فهتف مُتباهيًا: *«آه... أحسنتُ التخمين. تلك بشارةُ سليل النار ومبعث مسرّته، فإذا سلب المرضُ بصيرةَ المُبتلى بات لقمةً سائغةً لعدوّ الله. وماذا عن الألم؟ أتعاني ألمًا طارئًا؟»* وجاءت

الإجابة مرّةً أخرى من سميّة: «*نعم، ساقها اليسرى اسودّت وثقُلت، وصارت تُشعرها بحرقةٍ وتنميلٍ لا ينقطعان*». ولم يكن الراقي المُخادع يحتاج إلى أكثر من تلك الكلمات ليهتف مُجدّدًا: «*صدق وعد الله، حرّمت الميمنة على الرجيم فرتع في الميسرة، ومن مُستقرّه ذاك سأنفيه... أتعاني من تيبّس في جسدها؟*» وبدل الإجابة المنتظرة تعالى في المكان صوتُ طرقٍ وثَرٍ الوجوه والأبدان، بدأ أوّلًا من الجدار، ثمّ من تحت الأرض، فمن فوق السقف، فمن خلف الأبواب الموصدة... وكلّما ظنّوه استقرّ في ركنٍ من الأركان دوّى في مكان آخر. حتّى إنّ أمّ سميّة لم تستطع التماسك وطفقت تُبسمل وتُحوقل وتستجدي الله أن ينقذ المرأة البائسة ودموعها تجري على خدّيها بلا انقطاعٍ، فاحتضنتها ابنتها وقبّلت رأسها ويديها وشاركتها الدعاء. أمّا عبد الجبّار فلم يتورّع عن زجرها آمرًا إيّاها بالانقطاع عن البكاء. وعندئذٍ تكلّم أبو سميّة محاولًا صرف انتباهه عن زوجته وإخباره في الآن ذاته بما يُمكن أن يُفيده فقال: «*منذ تغيّرت حالها وهي تشتكي من الطرق والدك*». تأمّل عبد الجبّار فيما سمع ثم فسّر قائلًا: «*يهزأ الرجيم منّا ليبثّ في قلوبنا الخوف والوجل. وهو بذلك يتحدّى قسم الرحمن: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ ذاك النجم الذي يطرق الشياطين كمطرقة الحدّاد، كذا وعدنا الله: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾، وقد سخّره المولى عزّ وجلّ لصون الحاجب بين السماوات والأرض: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾. يجب التعوّذ من الشيطان الرجيم وتذكّر معيّة الله والأنبياء والمُختارين*». ثمّ سأل ابنه ووالد سميّة: «*أكلاكما على*

وضوء؟» فلمّا أشارا بالإيجاب قال: «*أحسنتما. لندخل على بركة الله*». واتّجه ثلاثتهم إلى الحجرة المشؤومة، أنفاسهم متوتّرةٌ، وخطواتهم التي أرادوها واثقةً، ثقيلةٌ حذرةٌ. وكانت سميّة ووالدتها قد مضتا قبل ذلك بلحظاتٍ إلى حجرةِ الأمتعة القديمة الملاصقة لغرفة الجدّة، ووقفتا حيث تستطيعان متابعة ما يجري عبر شبّاك صغير أنشأه الأب خصّيصًا كي يتسنّى لهم الاطمئنان على الجدّة من دون أن يحتكّوا بها ويُواجهوا رائحة المكان الكريهة إلّا لضرورةٍ. ومع تزايد وقع الطرق وتفشّي رائحة الرصاص، تراقصت في الدواخل أشباح الخوف والضعف، وارتعدت الفرائص رغم الأذكار والابتهال.

وكان عبد الجبّار قد أمر أبا سميّة بإغلاق جهاز التكييف في غرفة أمّه، بدعوى أنّ البرد قد يُغضب الجنّيّ المُهيمن عليها فيؤذيها قبل أن يتمكّن هو من طرده، فبدا واضحًا من وجه السبعينيّة المسكينة وعباءتها السوداء المبتلّة وهي ممدّدة على سريرها أنّها من فرط الحرارة غرقت في عرقها. وما زاد الطين بِلّةً حشرُ يديها في قفّازين وقدميها في جوربين سوداوين من القطن. وكانت مُغمضة العينين وشبه غائبةٍ عمّا حولها، فلم تنبس بكلمةٍ أو تأت حركةً تدلّ على إدراكها وتفاعلها. أمّا رائحتها فظلّت غير مستساغةٍ وسرعان ما زادتها الحرارة المفرطة كراهةً رغم كلّ ما بذلته سميّة ووالدتها لتطييبها، بتحميم الجسم ورشّ العطر على العباءة. واستمرّ الطرق فشحذ الخوف من المجهول حواسّ الرجال الثلاثة وجعلها متأهّبةً راصدةً تلتقط كل شاردةٍ وواردةٍ. وكي لا تشطح بهم الظنون، قرّر أبو علّامة أن يقطع الشكّ باليقين فأشار لابنه إشارةً أخرج على

إثرها من حقيبته الكبيرة سمّاعات سوداء صغيرة ووزّعها في أرجاء الغرفة. ثمّ ناول الشابّ أباه مُكبّر الصوت وأدخل يده في الحقيبة مرّةً ثانيةً ليُناوله قنّينة ماءٍ لكنّه لم يجدها، فشرع يُقلّب محتويات الحقيبة بارتباك لاحظه والده سريعًا فرماه بنظرةٍ جعلته ينتفض كالمصعوق، ويُهرول إلى الخارج حاملاً معه مفاتيح السيّارة. وما هي إلّا لحظات حتّى عاد وفي يده قنّينة بلاستيكيّة كبيرة رفعها أمام ناظرَي والده ليُطمئنه، فلاحظت سميّة من مكمنها اصفرار مائها، وكادت تسأل أمّها عن ذلك لولا أن سبقها عبد الجبّار وقال مُوضّحًا الأمر لأبيها: «*ماء زمزم مقروء عليه في صحن الكعبة ليلة القدر. اسقِها بعضه فيُطهّر بدنها من رجس نسل حوّاء وسوئه*».

وبالفعل، مشى أبو سميّة إلى أمّه وسقاها وهو يُعاين بأسفٍ البياض في ركنيّ فمها، حتّى أمره الراقي أن يتوقّف ويأخذ من علّامة قِماشًا أبيضَ ناصعًا ليُطوّقها به. وكان الشابّ قد تأهّب لذلك تكفيرًا عن سهوه السابق وأخرج قطعة القماش من الحقيبة، وانتظر حتّى تكلّم أبوه فقدّمها لوالد سميّة.

- وهل أخذها ونفّذ ما طُلب منه؟

- نعم، ولكنّه استجاب مُرغمًا -والعهدة على سميّة- لكرهه نقض وعده بالسمع والطاعة. ولعلّ ابنته خمّنت ذلك لتجد له عذرًا. المهمّ أنّه لفّ القماش على قدمي أمّه العجوز فيما أوثق علّامة يديها وتفقّد العُقد ليتأكّد من تماسكها. والمسكينة (أو من بداخلها) على حالها، لم تعترض ولم تنبس ببنت شفةٍ، ولا حتّى فتحت عينيها، وهو ما جعل

حفيدتها تتوجّس وتستثقل شكونها المُريب.

ثمّ أمسك عبد الجبّار مُكبّر الصوت وشرع يقرأ بصوتٍ جهورٍ ملأ الحجرة وأثار ذرّات غبار من الجدار حوله:

«لا إلهَ إلّاَ اللهُ الرّحمٰنُ الرّحِيمُ، لا إلهَ إلّا اللهُ ربُّ العرشِ العظيمُ، لا إلهَ إلّا اللهُ ربُّ السمواتِ وربُّ الأرضِ، وربُّ الخلقِ الكريمُ...

أسأل الله الحيّ القيّوم أن يُجري على لساني الكلمات كاشفات مكرماتٍ بملكوته، وأن يغمرنّك يا حليمة برحمته في ثقلك ومثواك ... وأن يبدي لك ولنا الصراط الهادي المستقيمَ... ويمنّ علينا وعليك بأنوار التحقيق... وأن يهدينا مناهج الصدّيقين وبحبوحة الصالحين، سبيل رب العالمين، آمر الشموس المشرقة المضيئة، القادر بلا مثيل، العالم بسائر الأسرار، الخفيّ عن الأبصَار وهو المدرِك الكاملُ الإبصار. اللهم أسألك بأسمائك البهيّة وذاتك السرمديّة التي لا تحتويها الجهات والأقطار، يا عالم الغيب والشهادة، مُدّني قبسًا من نورك فأتولّى عبدتَك وأمَتَك حليمة، أشهد أنّ محمدًا عبدك ورسولك وشمس الملّة الخالدة إلى يوم يبعثون» (16).

وبعد أن حدّق لحظةً في حليمة بنظرة وعيدٍ هتف بصوتٍ هادرٍ خضّ قلب شميّة:

«يا ربّ الأفلاك الاثني عشر والكواكب الدوّارة، يا ربّ فلك اللهيب

والصقيع، يا ربّ الزهرة وعطارد... يا ذا العرش العظيم، يا من تعرج منه وإليه الأرواح... أبرئ عبدتك حليمة من الظالم الرجيم!

أخرُج يا عدوّ الله من الساق اليسرى لأمة الله حليمة! اللهم أجرها وكن عونها وملاذها في ساعة محنتها هذه، اللهم اشفها فما من شافٍ سواك!

يا رجيم! ينهاك الله ورسوله الكريم أن تبتلي عبدًا من عباده! أخرج يا عدوّ الله من ساقها اليسرى!».

ثم أهاب بأبي سميّة أن يشاركه قائلاً: «*ردّد معي ثلاثًا! أُخرُج يا عدوّ الله من ساقها اليسرى! أُخرُج يا عدوّ الله من ساقها اليسرى! أخرج يا عدوّ الله من ساقها اليسرى*». فامتثل الأب وردّد العبارة كما قيلت. ولم تمض سوى بضع ثوانٍ حتّى فتحت حليمة عينين لاهبتين أخذتا تحدّقان في عيني عبد الجبّار بغلٍّ وحقدٍ، وتوتّر جسدها كالوتر وزأرت زئيرًا حيوانيًا أرجف القلوب واشتدّ بعده الطرق والخبط، كأنّ شيئًا ما داخلها يرفض ما يتفوّه به عبد الجبّار ويعاديه. ولقد وصفت سميّة ذلك قائلةً: «*بلغ الطرق من الشدّة أن أصبح كدويّ القنابل، وكان الصدى يضاعفه ويزيد من حدّته فاضطررتُ وأمّي إلى تغطية آذاننا بأكفّنا، لكنّه ظلّ يتسرّب إلى روحي كجمرٍ حارقٍ. وما من شكٍّ في أنّ أمّي شعرت بمثل ذلك أو أشدّ، فقد تعالى نحيبها وجعلت تُولول وكأنّها على وشك أن تُجنّ. وسقطت لوحة للحرم المكّيّ والكعبة الشريفة خلف علّامة فقفز مذعورًا. وتواجهت عينا أبيه وعينا جدّتي بنظراتٍ متوعّدةٍ ماكرةٍ لم تنقطع حتّى وعبد الجبّار*

يطلب من ابنه مصحفًا ثمّ يتناوله ويفتحه ويتلو قوله تعالى:

بِسمِ اللهِ الرّحمٰنِ الرّحِيمِ،

*﴿ألم * ذلك الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.*

ومع نهاية الآية الأخيرة ارتجّ الجدار الذي ننظر من فتحته أنا وأمّي بلطخة هي الأعنف منذ بداية الطرق، واشتدّ خوار جدّتي، وعيناها تنخران وجه عبد الجبّار. وإذا هو يتأوّه فُجأةً ويُسقِط المصحف من يده، ويصدح صوته في المكان ألمًا وغضبًا بأنّ القرآن يحترق! طالبًا من علّامة أن يمدّه بالماء».

- كأنّني أشاهد فيلمًا عن الظواهر الخارقة.

- هذا غيض من فيض والآتي أشنع، فبعدما صرخ أبو علّامة من الاحتراق وطلَبَ الماءَ، لبِثَ والدُ سميّة لحظتين أو ثلاثًا يُقلّب بصره مذهولًا بين يدي الراقي المُتصاعد منهما الدخان والمصحف المحترق على الأرض. ثمّ التقطه وهو يتعوّذ من الشيطان الرجيم! وكان عبد الجبّار أيضًا ينظر إلى كتاب الله وما أصابه مبهوتًا مفجوعًا، لكنّه سرعان ما نفض دهشته فبسمل واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وطفق يصرخ والزبد يتطاير من فمه: «*تسخر من ربّك يا*

رجيم! تتحدى خالقك يا ابن الزنا! لأطرُدنّك إلى درك جهنم! علّامة! ناولني الكرباج!» وعلى الفور أخرج الابن من الحقيبة الكبيرة كرباجًا غليظًا مفتولًا تناوله والدُه واقترب من حليمة حتّى وقف عند قدميها فارضًا سلطانه عليها ومن في داخلها. *«ما الذي تنوي فعله يا عبدالجبّار؟! أن تقتل أمّي؟!»* أطلق والد سميّة سؤاله في وجه الراقي مُحتجًّا وهبّ ليوقفه لكنّ ذاك هتف بابنه والوعيد يتطاير من عينيه: *«طوّقه يا علّامة!»* ولم يحتج الشابّ إلى أكثر ممّا قيل ليُطبق على ربّ البيت بذراعين كأنّهما قُدّتا من الفولاذ ويشلّ حركته تمامًا. وكان واضحًا أنّ عبد الجبّار منذ احترق المصحف بين يديه بلغ من الغضب والرغبة في الانتقام ما حوّله إلى وحشٍ هائجٍ، وحش رفع سوطه زائرًا وهوى على رجلَي العجوز حليمة بجلدةٍ اخترقت قماش عباءتها وألهبت لحمها فأطلقت صيحة ألمٍ شبيهةٍ بالعواء هزّت الدار هزًّا، وتمطّت وفمها مفتوح كأنّ روحها ستخرج من بلعومها. وبينما ابنها يُحاول الإفلات من علّامة ويهيب به أن يتركه لنجدتها هرعت إليها سميّة ودفعت عبد الجبّار صارخةً: *«لا تضربها يـا حـقـيـرا!»* فازداد غضبه استعارًا واثّقدت عيناه شرَرًا وهو يُعاود رفع السوط لجلد العجوز وحفيدتها أيضًا إن هي حالت بينه وبين فريسته، وصراخه يُنذر بالعذاب: *«أخرج يا رجيم! أخرج يا عدوّ الله! لأجلِدنّك حتّى تخرج يا حطب جهنم!»* وفي تلك اللحظة بالذات أقامت حليمة جذعها بغتة وبصقت في وجه جلّادها، ولا أحد يعلم ما الذي حدث عندئذٍ، فقد صاح عبد الجبّار كالملدوغ *«عينااااي!»* وسقط على ركبتيه مُغطّيًا وجهه بيديه، وترك علّامة أبا شميّة اللاهث كمن توقّف للتوّ عن العدو، وانكبّ على والده يتفقّده وقد بدا عليه الارتباك وهو

يسأل مذعورًا: *«أبي ماذا أصابك؟»* حتّى إنّ أبا سميّة تحامل على نفسه واقترب منه ليُعاين حال عبد الجبّار المُتمايل رأسه بين يديه من الألم ولسانه يُردّد كالمجذوب: «مدد مدد». فإذا عيناه بيضاوان عاجيّتان خاليتان من أيّ سواد. وكانت المُفاجأة من الهول أن جعلته يهتف: *«يا رحيم ارحمنا! لا حول ولا قوة إلا بالله»*. ثمّ ينظر إلى أمّه وهي تتألّم مُطلقة صوتًا بين الأنين والفحيح قبل أن يقول لعلّامة باستغرابٍ: *«لقد أعمته»*، أمّا سميّة فلم تتوقّف عند ذلك كثيرًا وانصرفت إلى إسعاف جدّتها المكلومة وإيقاظ أمّها التي فقدت الوعي مع أوّل جلدةٍ هوى بها الراقي على حماتها. والغريب أنّها في غمرة كلّ ذلك كانت تشمّ بوضوحٍ روائح العرق، والدم، والدموع، والغضب، والألم، وتُميّز كلًّا منها، أو هذا ما خُيّل إليها على الأقلّ.

- ألم تُخبرك بما حدث بعد أن فقد عبد الجبّار بصره؟

- لقد سألتها عن ذلك وكنت في غاية الحنق ممّا سمعته حتّى تلك اللحظة، فأشعلتُ سيجارة من دون أن أتيقّن من غياب أبي عن البيت وهو ما يُعدّ مُخاطرةً جسيمةً، وأصغيتُ إليها بانتباه. قالت: *«كانت جدّتي تعوي من الألم كذئبٍ جريحٍ وقد جحظت عيناها وتقوّس جسمها حتّى كاد رأسها يمسّ كعبيها، يا الله يا عرفة! ما أقسى تلك اللحظات! صدّقني لو لم تُجبرها أمّي على تناول مسكّناتٍ وأقراص مُنوّمةٍ أرخت جسدها وأفقدتها الوعي لما استطعنا أن نخلد إلى النوم»*. وبمجرّد أن صمتت لحظةً عاودتُ سؤالها بنفاد صبرٍ: *«وعبد الجبّار؟»* فأجابتني بنبرةٍ فيها ما فيها من الحيرة: *«بدا تائهًا كالطفل*

نرتعش شفتاه ويُرغي بلا انقطاعٍ وإذا نطق يقول كلامًا غير مفهومٍ. ولقد رجّح أبي أنّ ذلك من تأثير الصدمة، وأوصى علّامة قائلًا: لا نغفل عنه وأنت تقود السيّارة واتّصل بي في الأيّام القادمة لتُطمئنني عليه. وبعد أن نقّده المبلغ المُتّفق عليه ساعده في نقل والده إلى السيّارة، ثم عاد فهاتف العمّ مرزوق وطلب منه الحضور سريعًا ليداوي جراح جدّتي قبل أن ينتهي مفعول المنوّم ويُصبح ذلك عسيرًا».

وفيما كانت تروي لي ما جرى شممت رائحة بخور قويّة تغمر غرفتي، وفهمت أنّ أمّي أسرفت في تبخير البيت كي تُغطّي على رائحة سجائري فلا ينتبه إليها والدي. وكم أسعدني أن دفعها حنانها إلى فعل ذلك والحال أنّها لم تتحدّث إليّ في الأمر قطّ. وبفضل تلك اللفتة صفا مزاجي قليلًا وقلتُ لسميّة مُواسيًا ومُخمّنًا في الآن ذاته: *«أقدّر ما تشعرون به في محنتكم من ألمٍ، لكن في مثل هذه الأحوال دومًا ما تنتهي القصّة بنصّاب يتربّح»*. ولمّا سألتني مزيدًا من التوضيح استمهلتها حتّى تُجيبني عمّا إذا كان والدها قد فحص عيني أبي علّامة بدقّة؟ فردّت على الفور: *«لقد همّ والدي بذلك لكنّ عبد الجبّار كان هائجًا كالثور»*. وعندئذٍ قلتُ بنبرة الظافر: *«توقّعت ذلك، فالأرجح أنّه وضع عدستين بيضاويين على حين غفلةٍ ليظهر بمظهر المُعمّى...»* وكم ساءني أن سألتني بنبرةٍ فيها استخفاف برأيي: *«أيّ عدسات وأيّ تظاهر؟!»* وهو ما اضطرّني إلى استعراض ما تجهلُ من الحيل لإفحامها، فقلت: *«إنّه أمر شائعٌ عند النصّابين والدجّالين، وفي ما يخصّ احتراق المصحف اعلمي أنّ هناك أدواتٍ*

الكترونيّةً تُصدِرُ الدخان بألوانٍ مختلفةٍ، ومن السهل إخفاؤها في كُمّ قميصٍ فلا يلاحظها أحد. أمّا النار فأمرها سهل، يكفي عبد الجبّار أن يوليكم ظهره باستمرار ليفعل ما يشاء من دون علمكم. وكذلك يكفي علّامة أن يربط لوحة الكعبة بخيطٍ ليتمكّن من إسقاطها فيبدو الأمر كأنّ الجنّيّ المزعوم الكامن في جدّتك يهزأ بالرموز الدينيّة. إنّ ذلك كلّه أشبه بألعاب الحواة». وبعد تلك المحاضرة الموجزة عن أفانين النصب والاحتيال لم تجد بُدًّا من مناقشتي بجدّيّةٍ استشففتها من سؤالها ذي الصبغة الحجاجيّة: *«وماذا عن صوت الطرق؟»* وكانت إجابتي: *«أمره في غاية السهولة، من المُرجّح أنّ عبد الجبّار حصّل معلومةً عن ذلك من أبيك، فنشر أتباعه ليقوموا بالطرق والخبط بنيّة حملكم على الإيمان به وبِرُقيتِه. ومن مَكرِهِ وخُبثِه أن سوّغ لكم منذ البداية قدرة الجنّ على المباغتة، وأراكم إصابةً مُدّعيًا أنّها من مُخلّفات صراعه معهم في ما مضى! ولمّا ادّعى خُسران بصره كنتم جاهزين للاقتناع بذلك»* (17) وحالما أتممت كلامي فاجأتني بتوبيخٍ لم يخطر لي على بالٍ قائلةً: *«لسنا أغبياء كما تظنّ يا عرفة، أنت لم تكن معنا ولك أن تشطح كما تشاء في تفسيراتك، لكن ماذا تقول إن أخبرتك بأنّي سجّلتُ بهاتفي ما جرى في تلك الليلة تسجيلًا صوتيًّا وحين استمعتُ إليه فيما بعدُ لم أجد فيه إلّا آيات القرآن والدعاء الذي صدح به عبد الجبّار في رقيته، أمّا ما كان من طرقٍ وخبطٍ وكلامٍ وصراخٍ ونحيبٍ فقد غاب تمامًا وكأنّه خُجِب؟ نعم، هذه هي الكلمة الصحيحة لأنّ الهاتف لم يتوقّف لحظةً عن التسجيل».* وليتني ما سمعت منها ذلك، فما ورد على لسانها والحقّ يُقال بلبل أفكاري وأضعف حُججي، حتّى إنّي وجدتُ نفسي أعلّق مرتبكًا: «كدت

انوّه منذ قليلٍ بحفظك اللافت لكلمات الرقية وها قد فهمت السرّ». فاستطردت قائلة: *«لقد سمعتُ مُحتوى التسجيل أكثر من عشر مرّاتٍ، وفي كلّ مرّةٍ يتملّكني الغيظ من عدم توثيق ما جرى بالصورة الحيّة، رغم اقتناعي باستحالة التصوير والهاتف مُخبأً. المهمّ الآن أن أرسل إليك التسجيل الصوتيّ، لعلّه يُغيّر رأيك في ما جرى».*

- وهل أرسلته؟

- نعم، وما إن تسلّمته حتّى انكببتُ عليه فاحصًا مُمحّصًا، لكنّ استئثاره باهتمامي لم يدم طويلًا.

- لماذا؟

- لقد تلقّيتُ من سميّة بعد مكالمتنا تلك ببضعة أيّامٍ مقطعًا مُصوّرًا أقضّ مضجعي وعصف بي عصفًا.

- كلّي رغبة في معرفة محتواه حالًا لكنّ المهلة التي منحنا إيّاها أبو حمزة انتهت منذ دقيقتين بحسب ساعتي ومن حسن حظّي أنّه لم يُقاطعك. سنتحدّث عن أمر الفيديو في الزيارة المقبلة. أستودعك الله.

فاعل الخير
(المكالمة الأولى)

بعد ختام كل جلسة، كنت أُفرغ أشرطة التسجيل وأدوّن جلّ ما دار بيني وبين عرفة، ثمّ أرسل النصّ إلى فاعل الخير لمراجعته والاطّلاع على سير الأمور... فلمّا انتهت الزيارة العائلة تلقّيت منه الاتّصال التالي:

- السلام عليكم،

- وعليكم السلام والرحمة، حيّاكم الله أستاذ زين.

- قد...قرأتُ ما دار بينك وبين عد...عرفة بتمعّنٍ، ماله يعثر كثيرًا؟

- من الممكن أن تكون العثرة طبعًا أصيلاً فيه، لكنّي أرجّح أنّها وليدة حرمانه من الحديث وطغيان إحساسه بالوحدة في زنزانته...

- لَيس في مقدورنا أن نُغيّر شيئًا من ذلك.. المه.. همّ أن يتحدّث عن الجزء الذي يهمّنا، لعلّنا نَتحظى بالمعلومة التي نُريد...

- نعم، أعلم. لكنّي أخشى أن أكبح إسهابه فينصرف عن الحديث نهائيًا... وفوق هذا عليّ مراعاة حالته النفسيّة...

- أنت لست طبيبه بل محاميه... قـ ..قـ ..قم بواجبك فحسب.

- أستاذ زين، إذا سمحت لي، يجب أن أكون بالغ الحرص في تعاملي وعرفة، فهو على ما أظنّ غير مدرك لمدى تدهور حاله...

- ماذا تقصد؟

- لقد اطّلعتُ على صورةٍ التُقطت له عند دخوله السجن وكان شعره فيها أسود فاحمًا أمّا الآن فالشيب يُغطّي أكثر من نصفه، ومثل هذا التغيّر الكبير في بضعة أشهر سببه ولا شك هول ما خاضه... لذا عليّ مُعاملته برفق.

- ترفّق به كما تشاء. لقد اخترتك دون سائر المحامين لأصالة لغتك ووحسن اطّلاعك على المستجدّ من المعارف، فَفَهاتان الخصلتان المتنافرتان ظاهريًا موجودتان في غـــ..غرفة، وهو ما سيُسهّل عليك التقرّب منه. لكن لا تنس ضرورة استعجاله.

- سأفعل إن شاء الله...

- فهمتُ ممّا قرأته أنّه لا علم له بأمر خحبس سميّة، صحيح؟

- أجل.

- أبقِ الأمر كذلك. والمطلوب بسيط: لماذا بعدما حرق غـــ...عرفة الجدّة ظلّ يقول «سميّة الآن آمنة... لن يمسّها ضرر»؟ ففـ...فكلامه ذاك هو السبب الوحيد الذي دفع الشرطة لاعتقالها. واضح؟

- واضح...

الزيارة الرابعة
الجمعة، 27 ربيع الأول 1442 ه

- أهلًا عرفة.

- مرحبًا بصديقي المحامي، ها أنت هنا مرّة أخرى، قل لي في أيّ يومٍ نحن؟

- الجمعة، لماذا؟

- ما عدت أميّز الأيّام، وأحسبني أيضًا بدأت أخلط الذكريات بالأحلام، والواقع بالخيال...

- ألا تلتزم نظامًا يحميك من هذا اللَبس؟

- الوقت هنا لعنةٌ، تَعاقُبٌ عبثيٌ للنوم والاستيقاظ، وما بينهما يزداد تداخلاً باستمرارٍ. أحيانًا أُغمض عينيّ وفي ظنّي أنّ الليل لم ينتصف بعد، وما هي إلّا غفوةٌ حتّى يؤذّن الشيخ لصلاة الفجر بصوتٍ مرتفع فأصحو فزعًا. وإنّما فزعي من حملات تفتيش الزنزنات العشوائيّة التي جعلتنا في حالة توتّرٍ دائمٍ، لا يتذكّر أحدنا متى نام ولا متى استيقظ. ونكاد لا نعي شيئًا حتّى يُقدّم السجانون الإفطار، فتنشط الأرواح، ويُغنّي بعضنا مواويل حانيةً أتخيّل خلالها أماكن بعيدة لم

أسمع بها، ويتلو واحدٌ شعرًا مُرًّا زعاقًا، فيجاوبه آخر بأهازيج نقيّةٍ باردةٍ تُهدئ نفوسَنا قليلًا.

- وكيف هي علاقتك بباقي المساجين؟

- حسن، يُمكن وصفها في المُجمل بالـ«مُعقّدة». القدماء يقولون إنّ العلاقات قبل الجائحة كانت ودّيّةً، ثمّ تفشّى المرض وأُقرّ حظر التجوّل فقلّت زيارات الأهل وقلّ تبعًا لذلك كلّ شيءٍ: الطعام والسجائر والمُفرحات والرسائل... قد يجول بخلدك أن الناس في المحن يتعاضدون ويتلاحمون لأنّ مصيرهم واحدٌ، ولن يخلو رأيك من الصحّة... لكن كلّما دخلت الرشاوى الجيوب تعكّرت القلوب، وهذا ما حصل هنا، فقد أصبح الأقارب يودعون المال في السجن، وحين يستلمه النزيل يرشو به الشيخ إدريس وزبانيته فيكونون له نصيرًا، وهو ما خلق حزازيّات وضغائن بين المساجين، ولا عجب ومُقامهم أعقاب السجائر فيه أغلى من الروح.

- وماذا عن السجناء؟ كيف هم؟

- لم أحتكّ بهم كثيرًا مُفضّلًا العزلة، لكن هناك بعض الشخصيّات المميّزة، إذا صحّ القول...

- مثل؟

- يوجد سجينٌ مُتطفّل لحوح، ما إن يأتينا وافدٌ جديد حتّى

يبتليه بسيلٍ من الأسئلة: «لماذا قبضوا عليك؟»، «هل عذّبوك؟»، «هل لحطوا إليتك؟»، «هل بُحت لهم بكلّ شيءٍ؟». وهو فوق تطفّله المجهول سببه ثقيل الظلّ أيضًا. وقد سألني مرّةً: «أتعلم ماذا تُسمّي اليهوديّة مهبلها؟» فلمّا هززت كتفي بلا مبالاة سارع بالقول: «أرض الميعاد»، وظلّ يضحك ويشهق... ولطالما حاول باقي النزلاء إخراسه، لكنّه لا يملّ، ويجب ألّا أخفي عنك أنّ جزءًا منّي يستمتع بتلك المناوشات والمشادّات، وكثيرًا ما يعتريني الفضول لسماع أجوبة الوافدين الجدد...

- ومن غيرُه؟

- الحاجب طبعًا! يا له من شخصيّة مثيرةٍ! إنّه محجوزٌ منذ سنواتٍ لا يعرف مقدارها أحد. ويقول واحدٌ من القدماء: لقد أصيب بمرضٍ غضالٍ كشف عن هشاشة جهازه العضليّ، وسبّب له أوّل الأمر آلامًا حادّة في هيكله أقعدته، ثمّ شلّ تمامًا وغرق في بركةٍ عكرةٍ من قيئه وبوله وغائطه، فتفشّت في العنبر رائحةٌ نتنةٌ لا تطاق، اضطرّت إدريس البغيض إلى تعيين مجموعةٍ من جيرانه يتناوبون على تنظيفه ويعينونه على قضاء حاجته، وبعضهم يقولون إنّ جلده جفّ والتصق بعظامه التصاقًا مهولًا.

- يا رحمن رحمتك!

- أحيانًا تتفشّى رائحته العطنة فيمخر بخارها أنوفنا، وأحيانًا أخرى يُصدر أصواتًا كأنّه قردٌ مكلومٌ فيهبّون إليه. ومن عجيب حاله

أنّ يده اليمنى دون سائر أطرافه ظلّت تعمل بكفاءة، بل تكاد لا تنقطع عن الحركة. وهو ما حدا به إلى طلب أوراقٍ وقلمٍ للحفاظ على ملَكة الكتابة، وما إن تلقّاها بعد لأيٍ حتّى شرع يكتب ويُدوّن بلا تفكيرٍ كأنّه آلة تسجيل. وللأسف لم يتسنّ لي أن أرى أيًّا من كتاباته لكن يُقال إنّها توثيق لما يسمعه حوله، ولو صحّ ذلك يكون بحقٍّ ذاكرة العنبر(18).

- اللهمّ قِنا سوء الخاتمة. لنتحدّث الآن عن الفيديو الذي أرسلَته إليك سميّة إن ليس لديك مانع.

- نعم نعم، كنت على وشك الشروع في ذلك. حسن، لقد تلقّيت مقطع الفيديو على هاتفي في الليلة الرابعة أو الخامسة بعد ليلة الرقية، وتلقّيتُ معه تسجيلًا صوتيًّا موجزًا أخبرتني فيه سميّة بأنّ ما سأشاهده جرى في الليلة السابقة عندما رافقت أباها إلى غرفة جدّتها للاطمئنان عليها عقب انقطاع الكهرباء في بيتهم فجأةً وتنامي مخاوفهم من تعرّضها إلى مكروهٍ. وكنت في قرارة نفسي مُتوجّسًا ممّا أنا مقبل على مشاهدته، لكنّ فضولي وضرورة الاطّلاع على ما جرى لإبداء وجهة نظري فيه لم يتركا لي سبيلًا للتراجع. وأوّل ما ظهر أمامي على الشاشة ممرٌّ اخترق ظلمته كشّاف هاتف سميّة فرأيت على ضوئه الجدران ذات اللون البيج. ثمّ دخل إطار التصوير رجل مكتنِز الجسم ذو لحيةٍ عريضةٍ يمشي بتخبُّطٍ على بلاط الأرض المتهالك مُحدثًا صريرًا، ولا يكفّ عن الالتفات والنظر إلى سُميّة بعينين زائغتين مُرتبكتين قرأت فيهما أنّه يواجه صعوبةً

في الرؤية رغم دائرة الضوء المنبعثة من كشّافٍ تقليديٍّ كان يُمسكه بيسراه تاركًا ليُمناه أن تُغطّي أنفه بخرقةٍ. وما هي إلّا لحظات حتّى وقف أمام بابٍ خشبيٍّ ووضع يده على مقبضه، وفي الآن ذاته سمعتُ توسّلات شميّة إليه من دون أن أراها: «أبي! أرجوك! لا تدخل!» لكنّه لم يُبالِ بتحذيرها، وولج حجرةً ظلماء كأنّها مغارةٌ في جبلٍ، لا نور فيها إلّا ذاك المنبعث من كشّافه. وما شدّ انتباهي وأنا أتابع الضوء المتراقص قرب النافذة أنّها كانت مغطّاةً ببطّانيةٍ كي لا يتسلّل من نور الشمس إلى الغرفة إلّا نزرٌ قليلٌ يُهيّج الهواجس بما يصنعه من ظلالٍ كئيبةٍ. وكلّما أضاء الكشّاف ركنًا كشف من الأوساخ والفوضى ما لم أرَ مثله في مكانٍ لا يوحي بالفقر البتّة، بل بالعكس، كلّ أثاثه الذي تبيّنتُ من النوع الفاخر، الخزانة والسرير والمرآة، وكذلك السجّاد المبعثرة فوقه ملابس تكفي مجموعةً من الأشخاص. حتّى ما لاحظته من اقتصارٍ على المواعين البلاستيكيّة -وأغلبها كان مقلوبًا- مردّه في اعتقادي إلى امتناع أهل سميّة عن وضع الأكل في أوانٍ وصحونٍ من البلّور أو الفخّار خشية أن تستعملها الجدّة في إيذاء نفسها. وأكثر ما أشعرني بالقرف ولا شكّ، بقايا الطعام المتعفّن المحاطة بجحافل نملٍ وبعوضٍ وخنافس جائعةٍ شرهةٍ، وتلطّخُ أجزاءٍ من السجّاد بالمرق. ورغم أنّي أشاهد تسجيلًا شعرت بانقباضٍ واغتمامٍ شديدين جعلاني أفكّر في ما عاشته سميّة وقتئذٍ. ثمّ فرضت عليّ بعض الأسئلة نفسها: لماذا تعيش المسكينة وسط كلّ تلك القذارة؟ وكيف تجاهل أهلها ذلك؟ وهل يستحقّون اللوم فعلًا بعد الذي جرى في ليلة الرقية المشؤومة؟

وبينما ذهني يُخمّن الإجابات الممكنة استرعى انتباهي همس سميّة لأبيها *«أبي أرجوك، لِمَ لا نُغادر ونطمئنّ عليها من كوّة الجدار في غرفة الأمتعة؟»* وكان من الواضح أنّ سميّة تُحدّث والدها من عند الباب، ربّما توجّسًا من الدخول، أو كي تحافظ على مسافةٍ تحول دون تفطّنه إليها وهي تسجّل ما يجري. ومن عبارتها تلك استنتجتُ أنّها ووالديها قد انقطعوا عن دخول حجرة الجدّة منذ ليلة الرقية واكتفوا على أقصى تقديرٍ بفتح بابها لحظاتٍ قليلةً لوضع الطعام في المدخل ثمّ إغلاقه والانصراف. أمّا أبوها فكلّ ما فعله ردًّا على رجائها أن التفت إليها وزجرها بنظرةٍ حادّةٍ وشفتاه تتحرّكان بسرعةٍ من دون أن يصدُر عنه أيّ صوتٍ، وأغلب الظنّ أنّه كان يُردّد أذكارًا لعلّها تقيه وتحميه من الشرور الممكنة. ثمّ زكّز التصوير على سطلٍ بلاستيكيٍّ أصله أزرق باهت لكنّ أعلاه اسودّ تمامًا من فرط القذارة، وسمعتُ سميّة تخبر والدها بأنّ جدّتها قد تبرّزت. وهو ما أكّد تخميناتي السابقة في ما يخصّ كفّها وأهلها عن الاحتكاك بالجدّة، وأحسبهم ما وضعوا لها ذاك السطل إلّا لعجزها عن النهوض والمشي بعدما تعرّضت للضرب على رجليها. ولم يلبث أستاذ العلوم السلفيّ الهوى أن تقدّم من سرير والدته هامسًا بتوجّسٍ: *«أمّاه، كيف حالك؟ هل أنتِ غافية؟»* وإثر لحظتين أو ثلاثٍ من الصمت استطرد بالنبرة نفسها: *«بالله عليك طمئنيني. دعيني أرى وجهك»* وكانت سميّة قد وجّهت عدسة التصوير إلى السرير لكنّ تمدّدَ العجوز حليمة ووجهُها إلى الفراش حجب عنّي ملامحها، وكلّ ما استطعتُ مُعاينته جسم ضئيل ساكن كأنّه جثّة بلا روحٍ، يُغطّيه ثوب وسخ مُبقّع. ولاحظتُ شيئًا يُحيط رأسها لم أعرف ما هو ولا حتّى أُتيح لي الوقت

للتخمين، فعندئذٍ بالذات تنبّهت إلى صوتٍ كأنّه صرير فأرٍ أو جرذٍ. ورغم تهيّئي للأسوأ منذ تلقّيث الفيديو أشعرني ذلك الصوث وقد اقترن بالظلال المُتراقصة بمزيجٍ من الوحشة والتوجّس.

ومع تقدّم سميّة أكثر داخل الغرفة تبيّنث بصعوبةٍ أنّ ما يُغطّي رأس العجوز غطاء وسادةٍ حُشي قطنًا أو صوفًا أو ما شابه ذلك وثُبّت بشريطٍ لاصقٍ رصاصيّ اللون بحيث يُحيط صدغيها وما بينهما. ولقد ذكّرني منظرها ذاك بحادثة خبطها رأسها على المرآة التي سمعتُها من سميّة، فقرّ في روعي أنّهم فعلوا بها ما فعلوا للحيلولة دون إيذائها نفسها. وفي غمرة خواطري تلك جاءت اللحظة الفارقة حين أمسك أبو شميّة بكتفي أمّه وقلّبَها ثمّ تراجع من هول ما رأى تحت ضوء كشّافه. كان وجهها أشهب شاحبًا مُتشقّقًا عند الجبهة والوجنتين، وحول عينيها المُغلقتين هالتان سوداوان، والمُخاط يسيل من أنفها ويمرّ عبر فمها المُلطّخ محيطه ببقايا قيءٍ جافٍّ، أمّا أسنانها السوداء المتآكلة فأشبه بالأنقاض بعد الحروب. وما أفزعني أكثر من كلّ ذلك أمارات الهلع الثابتة على وجهها وكأنّها منحوتة نحتًا.

استمررت أتمعّن تفاصيلها كلّها بدءًا من جلدها المتغضّن وعظمَتي وجنتيها البارزتين وصولاً إلى يديها، وإذا هما مُغلّفتان بمثل غلاف رأسها. يا الله! كم كان منظرها فظيعًا ويبعث على الغثيان! ثمّ سمعتُ صوت ابنها بوضوحٍ وهو يقرأ سورة الفلق محاولًا التماسك. وفي أثناء تكراره قراءة السورة نفسها مرّةً ثانيةً قاطعته سميّة بهمسٍ

عالي النبرة: «*لقد بدأت تصحو! أبي! أرجوك لنخرج!*» فردّ عليها وهو يصرّ على أسنانه: «*كفّي عن الصراخ*». وشرع يُفتّش جسد أمّه ويتحسّس أطرافها بحرصٍ وحذرٍ كأنّما يخشى استيقاظها وابنته مركّزة التصوير على يديه حتّى فوجئا، وأنا مثلهما، بخوارٍ جعل الأب يقفز مذعورًا وسميّة تُفلت الهاتف فيسقط غير بعيدٍ عنها، وهذا الأمر الأخير استنتجته من سماعي أنفاسها اللاهثة في الظلام وهي تبحث عنه، ولمّا وَجدَته ورفعته صوب السرير وعادت الصورة ضُدمتْ بمرأى الجدّة منتصبةً فوقه وعيناها مفتوحتان، ولم أعرف وأنا أتأمّل ملامحها الحيوانيّة ما إذا كانت تكشّر أم تبتسم؟ تزأر أم تسخر؟ وقد اشتدّ خوارها حتّى صار وعيدًا ونذيرًا. وفي ذلك الوضع الغريب والمُريب بدت كلمات الوالد المرتجفة: «*أمّي حبيبتي، كلّميني...*» أشبه بنحيبٍ مكتومٍ تقهقَر بعده ببطءٍ شديدٍ كأنّما يخشى استفزازها، أمّا عدسة هاتف سميّة فتراجعت سريعًا وهي تتنقّلُ يُمنةً ويُسرةً بوجلٍ بين الأب وأمّه الواقفة على السرير، لكنّها بعدئذٍ ثُبّتت صَوب العجوز لتُسجّل الحفيدة بيدٍ مُرتعشةٍ تشوّهَ ملامح جدّتها المُفاجئ! وفَتحَها فمَها إلى أقصى حدٍّ كمن يُطلق صرخةً لا تُسمع اهتزّ لها الأثاث!

ثمّ وثَبت حليمة صوب ابنها بغتةً واعتلتهُ حتّى إذا سقط أرضًا أبرحته صفعًا ولكمًا، فتعالى نحيبُه وغطّى صوتَ زئيرها المسعور. وهبّت سميّة محاولةً إسعاف أبيها فسقط الهاتف من يدها، وأصبحتُ لا أرى إلّا جانبًا من السقف غير واضحٍ بسبب ضعفِ ضوء الهاتف ووقوعِ الكشّاف التقليديّ على وجهه، ورغم ذلك تمسّكتُ بمعرفة ما يجري عبر الإصغاء إلى الزماجر والخوار وأصوات اللطخ وصرخات

الرجاء: «*أماه! أرجوك، بالله توقّفي!*»، «*جدّتي! اتركيه! اتركيه حرام عليك!*»، «*لا تضربيه! إنّه ابنك!! توقّـ...*» وقطع كلامَ سميّة صوتُ لطمةٍ شديدةٍ، فتكتكة عظمٍ وصرخة تألّمٍ استمرّت بعدها أصوات اللطم والضرب والصرخات والزمجرة الحيوانيّة بُرهةً، ثمّ بدأتُ أسمع لهاثًا شديدًا لم أدر أعن الإجهاد هو ناجمٌ أم عن الارتعاب من أمرٍ لا أراه، وما أيّد ذلك الخاطر شعوري باقتراب الخوار من الهاتف وسط الظلام. وفي تلك اللحظة المُهمّة توقّف التسجيل.

لبثتُ في مكاني ذاهلًا والدم يكاد يتجمّد في عروقي من فرط الهول، ولم أعِ بنفسي وأنا أتّصل بسميّة حتّى أغلق الخطّ وجاءتني منها رسالةٌ مكتوبةٌ سألتني فيها من دون أن تُلقي السلام: «*هل انتهيتَ من المشاهدة؟*» وحالما أجبتُ بـ«*نعم*» كتبت مُجدّدًا: «*والآن أتُصدّقني؟*» وكان كلّ ما استطعتُ كتابته: «*صدقًا لا أعرف ما أقول...*» فجاءني التأكيد الأخير عبر صورةٍ واضحةٍ لوجهها التقطتْها قبلئذٍ بقليلٍ. وبقدر ما سرّني أن أرى ملامحها أوّل مرّة ساءني حالها الذي عاينتُ وقد تورّم خدّها الأيسر وفقدت بعضًا من أسنانها، فضلاً عن ذبول وجهها من الحزن والسهاد. ولم أكن في حاجةٍ إلى توضيحٍ لفهم ما جرى لكنّها بادرت بالكتابة مُعلّقةً على الأمر: «*اللطمة التي تلقّيتها بقفا يد جدّتي أسقطت ثلاثًا من أسناني... فكّي الآن يؤلمني بشدّةٍ، ولا أستطيع الكلام، لذلك أتواصل وإيّاك بالرسائل...*» رددتُ برسالةٍ صوتيّةٍ ليبلغها كلّ ما كان يختلج داخلي من مشاعر: «*يا ربّ العباد! أعاينك طبيب؟*» فأجابت: «*لا حاجة إلى ذلك... مجرّد رضوضٍ، ستطيب في بضعة أيّامٍ... عندما تخفّ وطأة الجائحة*

سأزور طبيب أسنانٍ». وفي أثناء قراءتي تلك الكلمات استحضرتُ تكتكة العظم التي سمعت! والفحيح، والنحيب! وأخذت جميعُها تُلهب خلايا مخّي كجمرٍ مُتّقدٍ، مضطرّةً إيّاي إلى معاودة السؤال عن الجدّة: «*ألم يعاينها طبيب حتّى الآن؟*» وبعد تأخّرٍ في الردّ لا أدري سببه تلقّيتُ إجابةً قريبةً ممّا توقّعتُ: «*أبي يرفض ذلك، خشية أن ينقلوها إلى مصحّة*». وطبعًا كنتُ على قناعةٍ بأنّ ما يخشاه والدها هو فعلًا الحلّ الأمثل، فعبّرتُ لسميّة عن رأيي بصراحةٍ واتّضح أنّها اقترحت الفكرة عليه لكنّه هاج وماج وقال إنّ من يضع والديه أو أحدهما في مصحّة المسنّين أو المُختلّين عقليًّا يُلاحقه العار طوال عمره. أمّا أسوأ ما علمته من سميّة في ذاك اليوم، وقد أرجأته كما جرت العادة إلى الختام، فهو أنّها حين أطلّت على الجدّة من الكوّة مع تباشير الصباح الأولى رغم آلام فكّها ألفتها قد تركت السطل وتبرّزت في الفراش ثمّ نامت حذو برازها. وهذا الأمر بالذات كلّما تذكّرتُه انتابني الغثيان وشعرت برغبةٍ في التقيّؤ.

- أعتقد أنّها لو لم تُخبرك بذلك لكان أفضل.

- صدقت، لكن أظنّها كانت محتاجةً إلى البوح بالأمور الأشدّ إيلامًا والأثقل على نفسها لعلّ البوح يُخفّف عنها ولو قليلًا. لقد أسهبتُ مرّةً أخرى في الحديث ولم أمنحك فرصة للاستفسار، تفضّل قل لي ما يجول في خلدك.

- أخبرني بأفكارك عقِب تحدّثك إلى شميّة.

- بعد أن شاهدت الفيديو، تسمّرتُ في مكاني وتخشّبت أطرافي، وخُيّل إليّ أنّ الأرض تميد تحت قدميّ، وكلّما حاولتُ التفكير منطقيًا تشوّشت أفكاري وتضاربت. ولام جزء منّي سميّة على إقحامها إيّاي في مأساتها. ومع ضيقي بالحجر والوحدة شعرت بأنّني منبوذ مقطوع، وأشفقتُ على نفسي الساذجة.

- ماذا تقصد بالضبط؟

- ما شاهدته أضرم في داخلي وساوس زلزلت معتقداتي، فوجدتُ نفسي أعيد التفكير في ما غيّبه الرحمن عنّا، وما أضاءه العلم لنا، وما طمأننا إليه الإيمان وزعزعه الدليل. وأنا كما أعلمتك من قبل أرفض فكرة المسّ، وأؤمن بأنّنا قد نسيء فهم ما نراه، وأنّ كلّ غيبيّ له تفسيره سواء اكتشفناه أم لم نكتشفه بعد. لكنّنا إمّا ضحايا انحيازٍ تقليديٍّ أو وهمٍ جماعيٍّ. والحقائق الاستثنائيّة تتطلّب براهينَ استثنائيّةً. ولطالما طبّقت هذه القاعدة في حياتي الشخصيّة رافضًا التسليم بالغيبيّات وهو ما خلق جدالًا بيني وأبي سآتي على ذكره بإسهاب في وقت لاحقٍ، لأنّه كان يرى في منهج التشكيك الذي أعتمد لبلوغ الحقيقة رفضًا وإلحادًا و...

- اعذرني على المقاطعة يا عرفة... لكنك تؤجّل الحديث عن هذا الأمر منذ زرتك أوّل مرّةٍ، أما حان الوقت لتخبرني بأصل المُشكل بينكما؟

- آه... لقد ابتُليت بعقلٍ شكّاكٍ سؤولٍ... وللأسف تصرّفتُ بحمقٍ

وصارحت أبي ببعض تساؤلاتي، ما أغباني! وماذا يُتوقّع من إمام مسجدٍ لم يُنه تعليمه؟ أذكر أنّه يوم وجد في مفكّرتي مقطعًا من قصيدة إيليا أبو ماضي «طلاسم»(19)، كاد يُجنّ من الغيظ ومنذئذٍ أصبحت ألقابي داخل جدران المنزل: الملحد باشا، والرويبضة، وحضرة الزنديق... يُناديني بأحدها ويُتبع ذلك برفع حاجبه وتقليب النظر فيّ كمن يئس من خلفته المُشينة. وكلّما رآني حاملًا كتابًا إفرنجيًا زجرني مُغتاظًا: «من تفلسف فقد تمنطق، ومن تمنطق فقد تزندق..» أمّا القشّة التي قصمت ظهر البعير فهي ما حدث إثر خطبةٍ توجّه فيها إلى الحشود ذات جُمعةٍ مُحذّرًا إيّاهم عن ابتلاء الأنبياء في أبنائهم كآدمَ ونوحٍ ولوطٍ، وعمّا فعله الخضر، وما وقع أيّام الخلافة الأمويّة في الأندلس، حين انقلب عبد الله على أبيه عبد الرحمن الداخل لصالح الفاطميّين ومذهب الشيعة، فاضطرّ الخليفة إلى الاقتصاص من ابنه(20). يومئذٍ شعرت بنارٍ تضطرم في أحشائي وغَشيَني العرق وأنا جالس وسط المصلّين! لكنّ كلامه زادني عنادًا وحنقًا، فتحدّيته قائلًا إنّني أُفضّل صمت المسجد على خطبته. ومن شدّة ما صعقه قولي تطاير الزبد من شفتيه وهو يمور كالبركان، ويهزم كالرعد، ثمّ زجرني صارخًا: «أكذا تخاطب أباك؟ أكذا تخاطب الإمام؟ في بيتي يا سافل! أُشهدك يا الله، إنّي بريء منه ومما يقوله! وحقّ شيبتي هذه تبرّأتُ منه يا ربّ العالمين! لا أنت ابني ولا أنا أبوك، لا مكان لك حول مائدتي، ولا مُقام في مجلسي، ما لك في هذا البيت غير غرفتك وهي مكرمةٌ منّي لا تستحقّها يا كافر! فالزمها كما سيُلازمك غضبي ولعنتي. ولسوف تعلّمك الأيّام قدرك وأنت محرومٌ من بركة ربّ العالمين يا خَنِث!»

وهمّ بالانقضاض عليّ ككلبٍ هائجٍ يُهاجم قطًّا، لكنّ أمّي حالت بيننا ومنعته الفتك بي، فزجرها هي أيضًا ساخطًا: «احذري يا امرأة! أنا سيّد البيت! فلا تتدخّلي في إدارتي شؤونه، ولو أحسنتِ تربية هذا الإمّعة لما نشأ خَنوعًا رقيعًا!» آهٍ لتلك الذكرى كم تحزّ في نفسي يا صاحبي. لقد نبذني أبي وحقرني، ولم يعاملني معاملة الابن قطّ. كان يرى في الزجر والضرب والإهانة سُبُلًا لهدايتي، والحال أنّه زرع فيّ عنادًا لا ينتهي. وربّما أصل ذلك العناد خوف صريح أشعرني بالعار فحاولتُ مُغالبته بالتحدّي. وأحسبني لم أنجح في طرده من نفسي بلا رجعةٍ، ففي كثير من الأحيان كان مجرّد ارتفاع صوته حتّى وهو يكلّم أمي يُفزعني. يا له من أبٍ! كفّرني بعد اطلاعه على قصيدة إيليا، وحين جرى ما جرى في حادثة خطبة الجمعة عزلني كأنّني مصاب بالطاعون، سامحه الله وغفر له... أمّا أمّي فما بيدها حيلة. إنّها قرويّة بسيطة تزوّجت رجلًا يكبرها بعقودٍ قبل أن تبلغ الرابعة عشرة، وتربّت بين يديه وعَدّته أبًا أكثر ممّا هو زوج، فألزمها الطاعة والامتثال. وما أعلمه يقينًا أنّها رغم حبّها الشديد لي لا تستطيع مجابهته وردّه عنّي. وفي المُقابل كان هو يستعمل شتّى الأساليب في إخضاعها، ومنها تذكيرها مرارًا وتكرارًا بهفوةٍ ارتكبتها في أيّام طفولتي.

- أيّ هفوةٍ؟

- ذات يومٍ من أيّام عامي الثالث غفلت عنّي المسكينة قليلًا فتسلّلتُ إلى قبو المنزل الذي كنّا نُسمّيه السرداب وظللْت محبوسًا

هناك حتّى وجدَتني بعد ساعاتٍ من البحث شاحبًا باكيًا أغبر، ولحقها أبي فصفعني على غبائي وزجرها على إهمالها وبعد أشهر حوّل القبو غرفةً. ومنذ تلك الحادثة عانيت من تواتر الكوابيس، وصرتُ أبول في فراشي وأنا نائم. وما عاد هو يُفوّت أيّ فرصةٍ لتوبيخي وإهانتي. وإذا كان مُعكّر المزاج ضربني من دون مراعاةٍ لضعفي وطفولتي. ما أقسى تلك الأيّام التي عشتُها خائفًا من النوم واليقظة على حدٍّ سواءٍ، لائمًا نفسي طوال الوقت على نزولي إلى السرداب! وأسوأ ما في إساءة أبي إليّ أنّها تفاقمت بمرور السنين. سامحه الله على ما اقترفه في حقّي، لقد جعلني أكرهه. أعلم أنّه من غير المُستساغ قول هذا لكنّني فعلًا كرهته! وكيف لا أكره رجلًا عوض أن يأخذ بيدي لِمَا لاحظ من ضعفي وخوفي وأنا بعدُ طفل أفتى بأنّ ذلك من زيغي عن الدين. زِغ عن الدين وأنا طفل! حتّى ما خُضته في بداية شبابي لم يكن إلحادًا، والله على ما أقول شهيد، بل تدبّرًا في دروب المعرفة والإيمان لإجابة أسئلتي وقطع الشك باليقين. ولماذا نزجر من تورّم قلبه بالشك؟ لِمَ نتّهمه بأنّه حادَ وفسد؟ ألم يكن الرسل والأنبياء والمجدّدون متمرّدين في مطلع رسالتهم؟ وما تمرّدوا دَجَلًا أو جشعًا أو بطشًا...

- وكيف عدت إلى جادّة الصواب؟

- تقلّبتُ في دروبٍ شتّى، وكانت شائكةً وعرةً. وكأغلب الباحثين عن اليقين اطّلعت على عمل الدكتور مصطفى محمود الشهير «حوار مع صديقيَ الملحد» لكنّني وجدته وعظيًا تقليديًا لا يشفي مَن تورّم

قلبه بالشكوك. والشكُّ ليس خطيئةً، بل هو الفضيلة عينها، والسبيل المُثلى إلى التنوير والتفكير والتأمّل، ومن الإجحاف الادّعاء أنّه يُفضي بالضرورة إلى الانحراف عن الفطرة. ألم يغشَ قلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام حتّى قال: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾؟ ويُمكن القول إنّي عندما قرأتُ رواية دوستويفسكي «الإخوة كارامازوف» وجدت فيها ما أثابني إلى جادّة الصواب. وبعدها أقبلتُ على أعمال علي عزّت بيجوفيتش والدكتور عبد الوهّاب المسيري وغيرهم، فاطمأن قلبي للإسلام ورسالتِه. ثم توصّلتُ إلى مبدأ أراح ضميري وجعلني مُتقبِّلًا للغيبيّات: رحلتي مع خالقي تخصّني وحدي، أُفسّرها كما أتاح لي اجتهادي وفهمي واستشاراتي. وفي غياب إجابةٍ تناسب الجميع لماذا أضيع في بحر تناقضاتهم وقد بلغتُ ضفافًا تُرضيني؟

أعذرني يا سندي الأخير لقد أردتُ أن أُطلعك على قدرٍ من مُعاناتي وتخبّطي لعلّك تتبيّنُ روافد شخصيّتي، وقناعاتي التي تزعزعت يوم شاهدتُ ذلك الفيديو. لكنّي الآن أشعر بالدوار وعليّ أن أُغادر حتّى قبل قدوم أبي حمزة، وأحسبه يوشك أن يأتي. سأقول إلى اللقاء آملاً ألّا تتحوّل «وداعًا».

- لِم هذه الجُملة الأخيرةُ يا عرفة؟

- لا أدري ولكنّني أشعر بالخواء...

- في أمان الله، أراك قريبًا إن شاء الله.

الإمام

بعد ما سمعته من عرفة في آخر زيارةٍ رغبت في التحدّث إلى والده لغاية في نفسي وكنت قد اتّصلتُ به من قبل وسألته أكبر قدرٍ من المعلومات عن ابنه. أمّا في تلك المرّة الثانية فدار بيننا الحوار التالي:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حيّاكم الله يا أبا عرفة، أنا محامي ابنكم. تحدّثت إليكم سابقًا منذُ مدّةٍ...

- وعليكم السلام والرحمة، نعم، نعم. أما تزال قائمًا على القضية؟

- فاعل الخير يرجو إحقاق الحقّ.

- ولماذا يصرّ فاعل الخير المجهول على تبرئة ذلك الرقيع الجاحد؟

- اتّق الله أبا عرفة! إنّه ابنك!

- أولستُ أدرى بمن أنجبت؟ ليذهب حيث ألقت رحلها!(21) بسببه قدِم رجال الشرطة إلى بيتي ودنّسوا سمعتي أمام جيراني. لا بارك الله فيه! أنا! إمام الحارة، حامل الراية، سليل الأئمّة، أهان علنًا؟ أتعلم أنني عُزلت من إمامة المسجد؟ حتّى الندوات الأسبوعيّة

التي ترأستها سنواتٍ عديدةً حُجّرت عليّ! لن أفهم حكمة الله في ابتلائه إيّاي بخانعٍ ضعيفٍ رخوٍ. اللهم إنّي لا أسألك ردّ القضاء بل أسألك اللطف فيه. عليه من الله ما يستحقّ، سوّد الله وجهه كما سوّد وجهي، جانب الفطرة السليمة وتعاليم الدين الحنيف، وعبثًا تكبّدت المشاقّ مُحاولًا ردّه إلى الصراط المستقيم فقلبه مغمور مطموس، وميله إلى الكفّار لا مراء فيه، يستجدي علمهم ويحاجّ بهم. لَكَم حذّرته من كيد الله وابتلائه، ومن أنّه يمهل ولا يهمل، لكنّه كان كمن ضبّ في أذنيه رصاصٌ محموم. وها قد جنى على نفسه. يقتل عجوزًا؟ لا بارك الله فيّ! أي رقيعٍ أنجبتُ! حسبي الله ونعم الوكيل.

- تعوّذ بالله يا أبا عرفة.

- ما حاجتك من اتّصالك بي؟

- لقد علمت من عرفة أنّه في عيد ميلاده العشرين وقعت بينك وبينه مناوشة، سلبتَه على إثرها مفكّرته التي كان يكتب فيها خواطره وأفكاره و...

- وأرقام هواتف البنات. وأقوال الكفّار وأشعار الفُجّار عليه لعنة الله نجّس بيتي.

- لم أعلم منه سبب افتكاكك إيّاها في ذلك اليوم بالذات ولا مآلها، لكنّي قلت في نفسي لعلّ الكلام المكتوب فيها يُساعدنا على ادّعاء أنّ عرفة مُضطرب نفسيًا.

- الفاجر يوم عيد ميلاده العشرين حملت أمّه تلك المفكّرة اللعينة لتمسح الغبار الذي على المكتب فوقع من وسطها واقٍ ذكريّ، ومن سوء حظّه أنّي كنت هناك لأوصي زوجتي بأمرٍ ما، ولمّا واجهته بفعلته الشنيعة وما وراءها ادّعى أنّ صديقًا له أهداه إيّاه على سبيل الدعابة لأنّه بلغ العشرين. وأن الأمر لا يعدو مجرّد مزحةٍ. أهذا ابن هذا؟ عليه من الله ما يستحقّ هو وأصدقاء السوء الذين أودوا به إلى التهلكة.

- أتفهّم غضبك لكن ماذا فعلت بتلك المفكّرة حين أخَذْتها؟

- لم آخذها بل أمرتُ أمّه أن تُحرقها على الفور هي والنجاسة التي كانت بين صفحاتها ففعلت.

- هكذا لم يبق باليد حيلة، المعذرة على الإزعاج وإلى اللقاء.

- وعليكم السلام.

وبعد يومين اتّصلت بي امرأة قدّمت نفسها باسم «أمّ راضي» وقالت إنّها من طرف والدة عرفة وتُريد تسليمي شيئًا يهمّني، فالتقينا وأعطتنيه وإذا هو المفكّرة التي ظنّها أبو عرفة قد أُحرقت والواقع أنّ زوجته لم تُحرقها واحتفظت بها سنواتٍ عديدةً لسببٍ علمتُه من بعد.

الملحق الثالث: مقتطفات من مفكرة عرفة(22)

4 أبريل 2010

«جئت لا أعلم من أين ولكنّي أتيت...

كَيفَ جِئتُ؟ كَيفَ أبصرتُ طَريقي؟

لَستُ أدري

أجَديدٌ أم قَديمٌ أنا في هَذا الوُجود؟

هَل أنا حُرٌّ طَليقٌ أم أسيرٌ في قُيود؟

هَل أنا قائِدُ نَفسي في حَياتي أم مَقود؟

أتَمَنّى أنّني أدري، وَلَكِن لَستُ أدري...

لَستُ أدري وَلِماذا لَستُ أدري؟ لَستُ أدري».

إيليا أبو ماضي – «الطلاسم»

10 ديسمبر، 2010

وأنا الغريبُ بكلّ ما أُوتيتُ من لُغتي

ولو أُخضعت عاطفتي بحرف الضاد

تُخضعني بحرف الياء عاطفتي

وللكلمات وهي بعيدة أرض تُجاور كوكبًا أعلى

وللكلمات وهي قريبة منفى

ولا يكفي الكتاب لكي أقول:

وجدت نفسي حاضرًا ملء الغياب

وكلّما فتّشت عن نفسي وجدتُ الآخرينَ

وكلّما فتّشت عنهم لم أجد فيهم سوى نفسي الغريبة

هل أنا الفرد الحشود؟

وأنا الغريبْ

تعبتْ من درب الحليب إلى الحبيب

تعبتْ من صفتي

يضيق الشكل، يتّسع الكلام...

أفيض عن حاجات مفردتي

وأنظر نحو نفسي في المرايا:

هل أنا هو؟

هل أؤدّي جيّدًا دوري من الفصل الأخير؟

وهل قرأتُ المسرحيّة قبل هذا العرض أم فُرضت عليّ؟

وهل أنا هو من يؤدّي الدور

أم أنّ الضحيّة غيّرت أقوالها لتعيش ما بعد الحداثة

بعدما انحرف المُؤلّف عن سياق النصّ

وانصرف المُمثّل والشهود؟

محمود درويش – «الجداريّة»

7 أكتوبر، 2011

عزيزتي مونيكا بيلوتشي، أنا لا أحبّ أفلامك ولكنّني أجزم أنّ الكاميرا تُحبّ تأمّلكِ شأنها في ذلك شأن كلّ رجال العالم. وهذا يُذكّرني بقول نيتشه: «إذا قتلت صرصورًا فأنت بطل وإذا قتلت فراشة فأنت شرّير، حتّى الأخلاق لها معايير جماليّة!»

14 فبراير، 2012

كم أتوق إلى اللاشيء، إلى اللامعنى، إلى ذلك الفراغ الممتدّ بلا نهاية.... كم أعشق اللارغبة، فأتكلّم من دون أن أرغب في التعبير، وأستمع من دون أن أسعى إلى الفهم، وأحلم، فأصحو من حلمٍ لأبدأ حلمًا جديدًا... تسألون أيّ إنسانٍ أنا؟ أنا إنسان يُمجّد الشمس ويسكن في كهفٍ مُظلمٍ، يُراكم الأمنيات ويُسيّجها باللامات، إنسان يُحسد على الأجنحة التي يمتلك لكنّه غير قادرٍ على الطيران، مثله مثل النعامة، فهي مُثقلة بوزنها وهو مُثقل بموروثه.

9 مايو، 2012

إنّ أولادكم ليسوا أولادًا لكم، إنّهم أبناء وبنات الحياة المشتاقة إلى نفسها، بكم يأتون إلى العالم، ولكن ليس منكم. ومع أنّهم يعيشون معكم، فهم ليسوا ملكاً لكم. أنتم تستطيعون أن تمنحوهم محبّتكم، ولكنّكم لا تقدرون أن تغرسوا فيهم بذور أفكاركم، لأنّ لهم أفكارًا خاصّةً بهم. وفي طاقتكم أن تصنعوا المساكن لأجسادهم. ولكنّ نفوسهم لا تقطن في مساكنكم. فهي تقطن في مسكن الغد الذي لا تستطيعون أن تزوروه حتّى في أحلامكم. وإنّ لكم أن تجاهدوا لكي تصيروا مثلهم، ولكنّكم عبثاً تحاولون أن تجعلوهم مثلكم. لأن الحياة لا ترجع إلى الوراء، ولا تلذّ لها الإقامة في منزل الأمس. أنتم الأقواس وأولادكم سهام حيّة قد رمت بها الحياة عن أقواسكم. فإنّ رامي السهام ينظر العلامة المنصوبة على طريق اللانهاية، فيلويكم بقدرته لكي تكون سهامه سريعةً بعيدة المدى. لذلك، فليكن التواؤكم بين يدي رامي السهام الحكيم لأجل المسرة والغبطة. لأنه كما يحب السهم الذي يطير من قوسه، يحبّ القوس الذي يثبت بين يديه

جبران خليل جبران - «النبي»

5 سبتمبر، 2012

سليل المعرّي

بعد الاطّلاع على آثار أبي العلاء المعرّي ولا سيّما «رسالة الغفران»،

أدركت أنّه لولاه لما كانت «الكوميديا الإلهيّة» لدانتي أليغري ولا «النعيم المفقود» لجون ميلتون، ولكنّهم في الغرب يُجلّون هذين الأديبين أكثر بكثير من إجلالنا للمعرّي، فلماذا لا أكتب رواية تحتفي بهذا الرائد الذي عبّد الطريق لمن تبعه؟ لماذا لا أكتب رواية ميتافيزيقيّة من وحي «رسالة الغفران»؟ فأُخرج المعرّي من دوائر الأكاديميّين والمستشرقين وأجعله يجوب الشارع العربيّ مع أعلامٍ آخرين كالمتنبّي والفرزدق وجرير.

3 أكتوبر، 2013

الذهن هو الذي يخلق المكان

وهو في باطنه قادر على أن يُحيل الجحيم جنّةً أو الجنّة جحيمًا

وماذا يُضيرني أن أكون هنا أو هناك مادمت الكيان نفسه -كما ينبغي-

أكاد أضارع من تفوّق عليّ بقوّته العاتية؟

إنّنا -على الأقلّ- سننعم بالحرّية هنا

إنّ ذا الجبروت لم يُنشئ هذا المكان ليبعث على الغبطة

ولذلك لن يُخرجنا منه!

لنا أن نسود هنا آمنين، وإنّني لأرى السيادة مطمح رفيع ولو كانت في الجحيم!

سيّد في جهنّم أكرم من عبدٍ في الجنّة

ولكن ما لنا خلّفنا رفاقنا المُخلصين؟!

جون ميلتون – «الفردوس المفقود»

12 يونيو، 2013

كم أشعر بالمهانة والمذلّة. حسبي الله وكيلاً عليكم يا زبانية برنامج «ساعة مع الأمين»! أرسل إليكم محتوى عميقًا، بخامةٍ صوتيّةٍ رصينةٍ، فيكون ردّكم أنّ المحتوى والخامةَ الصوتيّة لا يتماشيان وتوجّهات البرنامج؟ أحشفًا وسوءَ كيلةٍ يا زبانية الإعلام؟ تقلّلون من شأني، وتحرمونني من دخلٍ قارًّا! إي نعم كنت أعلم وعورة الدرب الذي انتهجته وضرورة الصبر والتجلّد، ولكنّكم بإجحافكم وأدتم أملي بغدٍ أفضل.

تبًا لكم! تُظهرون النزاهة وتُضمرون الغيرة والحسد.

13 مارس، 2014

من حسن حظّي أنّي لا أُعجِب النساء، فذلك تدبير ربّاني يُوجّه

المرء إلى صراط الإبداع والتفكير والتأمّل والتحليل، وعالمنا أشدّ احتياجًا إليه من احتياجه إلى أبٍ متغطرسٍ يحسب أنّ واجبه تُجاه العالم هو خلق نسخٍ بليدةٍ منه. وإذا شاء الله وحصل المكروه، وأجبرني والدي على الزواج، فإنّي سأتأسّى بسقراط حين قال إنّ الرجل إذا حظي بامرأةٍ فاضلةٍ يعيش هانئًا، وإذا قُدّر له غير ذلك يصير فيلسوفًا.

الزيارة الخامسة

الأربعاء، 3 ربيع الثاني 1442 ه

- مرحبًا بك يا حضرة المحامي.

- ما بك يا عرفة؟ لِم الرجوع إلى مخاطبتي رسميًا؟ أما عُدت تراني صديقك؟

- ليس مُهمًا ماذا أراك، المهمّ هو الواقع، والواقع أنّك على دماثتك ودعمك إيّاي الذي لا أُنكره مُجرّد مُحامٍ وُكّل للدفاع عنّي مثلي مثل أيّ مُتّهمٍ، وأقصى ما يُمكن أن تُكنّه لي من المشاعر هو الشفقة.

- اسمع يا عرفة أنا...

- دعك ممّا قلتُ يا حضرة المحامي فهو لن يُغيّر من احترامي لك ولا من صراحتي. لقد نصحني أحد الزملاء في العنبر بالابتعاد عن الأفكار المثيرة للعواطف كالحبّ والصداقةِ لأنّها في مكاننا هذا مُجرّد أوهامٍ وخيالات تُضيفُها طوعًا إلى الأعباء التي تُثقل كواهلنا والأجدى أن أستعيض عنها بتنشيطِ ذهني فهو الأحوجُ إلى الاستثارة لئلّا يفتك به الجنون! والسبل إلى ذلك كثيرة وبسيطة جدًا كأنْ أعُدّ مثلًا أحجار الطابوق في الزنزانة، أو آيات القرآن الكريم، أو أن أخمّن أقصى ما يُمكن من أسماء الذكور والإناث بكلّ حرفٍ من

أحرف اللغة العربيّة... المهمّ أن يبقى الذهن نشيطًا ومُتنبّهًا. والحقّ أنّ في سلوك بعض السجناء ما يدعو إلى الإعجاب، وأقصد ذلك الالتزام الصارم بنظامٍ يُخفّف من وطأة الساعات عليهم: الاستيقاظ لأداء صلاة الفجر والإفطار ثم العودة إلى النوم حتّى يحين موعد صلاة الظهر فالغداء، وبعدهما يُلقي الشيخ إدريس إحدى محاضراته الدينيّة الرتيبة التي كدت أحفظها من كثرة تكرّرها.

- ماذا تعرف عن الشيخ؟

- آه، إنّه شخص كريه الطينة يبغضني معلما أبغضه، والبعض هنا يُسمّونه (شاويش التأديب)، أمّا أوضح ما يُميّزه فهو غطرسته الشديدة وتزمّته، فضلاً عن اقتناعه التامّ بوجوب إطاعتنا إيّاه. وما زاده غيًّا على غيّ أنّ بقيّة السجّانين يعاملونه باحترامٍ طغى عليه الخوف، فهو عصبيّ شديد الانفعال، وبالصلاحيّات الكثيرة التي نالها من مدير السجن يستطيع بسط سطوته على الجميع. ولقد استغلّ الملعون ذلك في سلب المساجين أموالاً تفوق مرتّبه.

- كيف لشيخٍ أن يرضى بالرشوة؟

- بحسب ما ورد على لسان أحد المساجين، هو يبرّر صنيعه بأنّ «الضرورات تبيح المحظورات». ومن أعاجيبه أيضًا أنّه حين لاحظ تقاعسي عن حضور دروسه وحلقات التحفيظ دعاني إليها لكنّي اعتذرت منه وذكرت له أجزاء من محاضراته فرضي عنّي، حتّى إذا اكتشف أنّني أقضي جُلّ وقتي في ممارسة هوايتي الجديدة جعلني

له عدوًا دائمًا.

- أيّ هواية تلك؟

- الشطرنج.

- ولماذا تُغضبه؟

- يقول إنّها مُحرّمة لما فيها من الصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة والمغالبة، وكلّ مُحاولة لمُناقشته في ذلك يُواجهها بالزعيق: «ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾؟» لكنّني هادنته مؤكّدًا أنّها ترويح عن النفس ولا تصرفني عن واجباتي.

- حماك الله منه... كيف تيسّر لك الحصول على القطع؟!

- صنعتها مما حولي، أوّل الأمر كنت أبلّل بقايا لبّ الخبز ثمّ أشكّله وأتركه في الشمس حتّى ينشف، لكنّ ذلك زاد من سخط الشيخ عليّ، لأنّي أبذّر نعم الله، فأرشدني أحد تابعيه سرًّا إلى طريقةٍ أخرى قوامها أن أبلّ أوراق المناديل قليلًا وأطليها بالصابون ثمّ أشكّلها كما أريد وأنتظرها إلى أن تجفّ، ولقد فعلتُ ذلك، والأحجار اليوم صلبة متماسكة.

- ومن هم خصومك؟ نزلاء العنبر؟

- كلّا! خصومي كلّهم من الذاكرة والمخيّلة، قد أنافسك أنت مثلًا، أو أنافس واحدًا من الذين أعرفهم، أو طفلًا صغيرًا نابغةً في الشطرنج... إنها وسيلة ممتازة لتمضية الوقت وصون العقل. ولكن دعنا من كلّ هذا... في آخر لقاء بيننا بدأتُ أحدّثك عمّا اعتراني إثر مشاهدتي فيديو جدّة سميّة ثمّ تركته وأسهبتُ في الحديث عن علاقتي بأبي... فلنعد إذن إلى موضوعنا الأوّل، أعوذ بالله من تلك الذكرى! لن أنسى حالي ليلتئذٍ ما حييت. لقد أصابني إعياء ووهن شديدان وتراخى نبض قلبي، وغلّف سواد الغرفة بصري ودواخلي، وكأنّ عتمة حجرة حليمة انصبّت عليّ وأغرقتني فيها.. فبتُّ أدخّن محمومًا مخنوقًا.

- ماذا فعلت بعد المحادثة؟

- تقلّبتُ وتقلّبتُ وقد جافاني النوم. ثمّ نهضت وراجعت الفيديو. وكانت جودته ضعيفةً وتفاصيله مشوّشةً، فأزمعتُ معالجته ببرنامج يُحسّن الصورة والصوت، ويا ليتني ما فعلت، فعندما شاهدت النسخة المُحسّنة بدت معالم البيت أوضح، وكذلك وقع خطوات سميّة الراجفة وأنفاسها وأنفاس أبيها، وهو ما أتاح لي أن ألاحظ أمرًا لم ألاحظه من قبل، حتّى إنّي عاودت مشاهدة الجزء الذي ورد فيه مرّتين آملًا أن أكون مُخطئًا، فتبيّن ويا للمعضلة أنّ ما لاحظته حقيقيّ. وإليك النبأ يا حضرة المحامي: مُنذ بدأت سميّة التصوير، أي قبل بلوغها وأبيها حجرة الجدّة بمسافةٍ، كان هناك صوت طرقٍ، خافت وغير واضحٍ، لكنّه قطعيّ الثبوت كالموت! نعم، الصوت الذي

اشتكت منه حليمة موجود فعلاً، والأدهى أنّه صدر بعيدًا عن غرفتها! وأمام ذلك المُستجدّ الغريب تعوّذت من إبليس وتدثّرت وقرأت ما تيسّر من القرآن آملًا أن تنتظمَ نبضات قلبي بعد ما انتابها من اضطرابٍ، ويبردَ الحجر الملتهب في صدري. والنتيجة؟ لم يحدث شيءٌ من ذلك وقضّيتُ ليلة جهنّميّة، و... أسمعُ صوت أبي حمزة، عليه اللعنة... ماذا دهاك يا أبا حمزة! لم ينته الوقت المُخصّص للزيارة بعد! ماذا؟ اشتباه بوجود مصابين بالوباء؟ وما شأننا نحن؟ حسبي الله ونعم الوكيل!

عذرًا يا حضرة المحامي سنغادر ونحن لم نُكمل ما بدأناه.

- لا عليك المُهمّ أن تكون بخير.

ملاحظة المحامي
ما حدث بعد الزيارة الخامسة

حين انصرفت من عند عرفة آخر مرّة نسيت جهاز التسجيل في حجرة اللقاء، ولا أدري هل حصل ذلك من ارتباكي أمام أبي حمزة وهو يستعجل انصرافي أم هو تدبير من المولى لأكتشف ما اكتشفت. المهمّ أنّي عُدتُ إلى مبنى السجن وناشدتُ حارس البوّابة أن يسمح لي بالدخول لجلب الجهاز أو أن يتكرّم هو بذلك إن لم يكن لديه مانع، فاختار الخيار الثاني، بارك الله في أعماله وذرّيته، وهكذا استرجعت ما فقدت وعدتُ إلى البيت وشرعتُ أنسخ محتوى التسجيل حتّى بلغت جُملة الوداع الأخيرة، ثمّ ساد الصمت، لكنّي لم أضغط زرّ الإغلاق لانشغالي بتدوين بعض الملاحظات، ومرّت حوالي دقيقة وإذا صوت عرفة يطرق أذنيّ مُجدّدًا بكلامٍ هالني وأذهلني! فانقطعت عن التدوين وأصغيتُ بكلّ انتباهٍ إلى الهمس المتقطّع: «لم أخبره بما كان بيننا..... لا.... أقسم لك، أقسم لك. أقسم باسمك أيها الطارق! لم أُخلف العهد ولن أخلفه. ارحمني. أرجوك ارحمني... كتفي... لا أطيق هذا الألم..... لن أخبره عنك! آسف، أرجوك اعذرني... أرجوك أصفح عنّي..... كتفي تكاد تتمزّق! ارحمني! أعاهدك على التزام الصمت...».

في بداية الأمر حسبته يخاطب الحارس، أو بالأحرى ذلك ما تمنّيته، لكنّي سرعان ما أدركتُ الحقيقة. ثمّ قُطع الحوار (إذا جازت

تسميته حوارًا(23) ولا وجود لمُتحدّثٍ ثانٍ) بصوت بابٍ يُفتح تلاه زعيق سجّانٍ يُنادي عرفة ليتبعه إلى الزنزانة، فلبثتُ أُفكّر وجمحت مُخيّلتي مرعوبةً قلقةً. وانتهى الأمر بأن قرّرت تأجيل التطرّق إلى ذلك الجزء الأخير مع الأستاذ زين وكذلك مع عرفة حتّى أُحيط بالحقيقة كاملةً. ومن أجلها تحتّم عليّ أن أعود إلى نقطة البداية.

مدير ثلوثيّة الثقافة
(المكالمة الأولى)

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، مرحبًا بك يا حضرة المحامي، كيف أخدمك؟

- كما أعلمتك في اتّصالي السابق أنا مُكلّفٌ بالدفاع عن الأستاذ عرفة. هل أنت محيطٌ بما حاق به؟

- لقد انتشر خبر جريمته في مجالسنا وبين معارفنا وأحزنني حقًّا، فعرفة الذي عرفت شخص لطيفٌ ومستقيم. ولم يخطر ببالي أن يصدر منه مثل ذلك الفعل الشنيع... لم تقل لي بماذا أستطيع أن أخدمك؟

- واجبي يقتضي غربلة المعطيات وإظهار الحقّ. ولقد اتّضح لي من الحوارات التي جمعتني بعرفة أنّ نقطة البدء هي المساء الذي تلا أمسيته معكم.

- ماذا تريد أن تعرف؟

- بحسب أقوال عرفة، بدأ كلّ شيء يوم اتّصلتَ به وطلبت منه المشاركة في إحدى حلقات الثلوثيّة.

- هو قال إنّني اتّصلتُ به؟

- أليس ذلك صحيحًا؟

- لا أعلم لماذا ادّعى ذلك، لكن الحقيقة أنّه هو مَن اتّصل وطلب منّي أن أستضيفه في أقرب أمسيةٍ.

- لا أفهم ما...

- وأنا لا أفهم ما يصعب فهمه... لقد هاتفني عرفة وطلب منّي أن يتحدّث في إحدى أمسياتنا.

- أعني... أقصد... أنّ قول عرفة كان واضحًا لمّا ذكر أنّك اتّصلت به...

- لا أدري ما دفعه إلى ذلك... لكن هل نستغرب الكذب من شخصٍ قادرٍ على القتل؟

- سؤال وجيه... لعلّ السجن أثّر في ذاكرته... لقد كان شابًّا حسن الطينة...

- كيف لك أن تصف قاتلًا بكلماتٍ كهذه؟ لا يهمّ، لا تجبني... لكن على الأقلّ أفصح عمّا تريده منّي؟

- ربّ اشرح لي صدري واحلل عقدة من لساني... يقول عرفة إنّ سميّة كلّمته بعد أن حصلت على رقمه منك. وإنّ ذلك وقع في اليوم الموالي للأمسية التي قدّم فيها آراءه وتحليلاته. وسؤالي الأوّل: ما مدى معرفتك بسميّة وبحالة جدّتها؟

- ههه...

- أستاذ حمدي!

- قُلت إنّها اتّصلت به بعد الأمسية؟

- أجل.

- كذبة أخرى!

- أعوذ بالله! لِمَ تقول هذا؟

- سميّة وعرفة لم يتقابلا من قبل، ولم يتواصلا البتّة! أنا على يقين من ذلك! ولا هي من اتّصل بي ليلة عرضه أصلاً.

- هل أنت واثق من كلامك؟ لقد أسهب في وصف تاريخها وحالة

جدّتها

- وادّعى أنّه عرف ذلك من خلال حوارٍ مباشرٍ؟

- بل تواصل مُستمرًا! لقد أخبرته بمرض جدّتها، وزيارة الراقي والآثار التي تركها عليها، وحياة الجدّة قبل المسّ وبعده، وعنفها وضراوتها، وغير ذلك من التفاصيل التي يصعب عليّ ذكرها الآن، وأظنّك تُشاطرني قناعتي بأنّ اختلاق كلّ ذلك وسرده بسلاسة أمر شبه مستحيل، والأقرب إلى المنطق أنّ عرفة وسميّة تحادثا في اليوم الموالي للأمسية، ودار بينهما ما دار، وبعد ذلك بأيّامٍ اقتحم بيتها وأشعل النار في جدّتها فقُبض عليه. نعم، عقلي لا يُصدّق أنه اختلق كلّ الكلام الذي قاله!

- لا أعلم سبب ادّعائه الباطل، لكنّي أعلم من أين أتى بروايته. فما تجهله أنت أنّ سميّة ذكرت كلّ ذلك بالتفصيل لما استضفناها في ثلوثيّتنا.

- ...

- حضرة المحامي؟

- استمرّ من فضلك.

- لقد تحدّثت عن خرف جدّتها وحالتها المرضيّة في جلسةٍ توعويّةٍ

هدفها تحديد التصرّفات المثلى إزاء هذا النوع من الاضطرابات.

- هل تحدّثت عن العفريت؟ عن الهلوسات؟ عن نوبات العنف؟

- بئسًا له فلا عفريت غيره!

- اتّق الله يا أستاذ حمدي، لن ينفعنا هذا الكلام الآن. كلّ ما أريده هو الحقائق، أرجوك.

- نعم ذكرت سميّة كلّ ذلك بالفعل... لكن للتحذير من ميل الأسر إلى تجنّب العلاج الطبي وتمسّكهم بالعلاج الشعبي. وذكرت أيضًا محاولتها إثناء أبيها عن ذلك، إيمانًا بأنّ المدعو عبد الجبّار نصّاب.

- وماذا عن النوبات؟ أقصد العنف والاعتداء على سميّة وأبيها؟

- ذكرت شيئًا من ذلك، لا أدري ما نوع العنف الذي وصفه عرفة، لكن ما روته سميّة أنّ الجدّة في نوباتها العصبيّة كانت ترمي أهلها بالطعام والمواعين، وتلك أعراض جانبيّة تتكرّر في أيّ حالةٍ مشابهةٍ.

- متى حدث ذلك؟

- قبل أشهُر.

- هل التسجيل متاح؟

- لا، فما إن علم أبوها بفحوى حديثها في الثلوثيّة حتّى عنّفها بشدّةٍ، عقابًا على ما عدّه تشهيرًا بأمّه. ثمّ اتّصل بي وطلب منّي حذف التسجيل، بكلماتٍ لا تخلو من التهديد.

- وهل لديك نسخة منه؟

- لا، ولو في حوزتي واحدة لما منحتُك إيّاها. فبسبب جريمة عرفة النكراء اهتزّت ثقة الناس في ثلوثيّتي وضيوفها وما زلت حتّى الآن أجاهد لأستعيد تلك الثقة، ومن الحمق أن أساهم في إثارة الموضوع مُجدّدًا مهما تكن الدواعي.

- لكن لماذا طلبت سميّة رقمه منك؟

- ألا تفهم؟! لم يحدث ذلك قطّ!

- افهمني أنت أرجوك! كلّ ما حصل من مصائب بدأ بعد تلك الأمسية، ألم يحدث أيّ شيء لافتٍ في ذاك اليوم؟

- لا أذكر.

- أرجوك.

- لن أجيبك، فموضوع عرفة هذا لم يجلب لي سوى المتاعب، ومن

طلب الرقم ناشدني ألّا أذكُر اسمه لأيّ شخص.

- أستاذ حمدي، عرفة وسميّة خلف القضبان، وكلّ منهما مصيره أمانة في رقبتي ولن أتمكّن من مساعدتهما ما لم ألمّ بكلّ التفاصيل.

- قلت لك ما لديّ، وأودّ لو تكفّ عن الإلحاح من فضلك.

- حسبي الله ونعم والوكيل، شكرًا يا أستاذ حمدي.

- العفو... والمعذرة... مع السلامة.

- مع السلامة.

الزيارة السادسة

الأربعاء، 1 جمادى الأولى 1442 ه

في ذلك اليوم بدا لي عرفة مُختلفًا عن كلّ المرّات السابقة، لم يُحيّني كما تعوّد أن يفعل، ولا نطق بأيّ كلمةٍ، وأكثر ما شدّ انتباهي ذلك الغموض الذي اكتنف نظرته وجعله أشبه بشخصٍ مجذوبٍ، حتّى إنّي شعرتُ بالقلق عليه، وما غدتْ موقنًا من صحّة ما سأسمعه منه ولا جدواه، ومع ذلك بادرته بالتحيّة:

- أهلًا عرفة.

- مرحبًا حضرة المحامي

- أراك مُتعبًا جدًّا، ما الخطب؟

- قلّة النوم يا حضرة المحامي! قلّة النوم تلتهم عقلي وصحّتي. منذ آخر لقاء جمعنا والنوم يُجافيني، فلا أغنم منه في الليلة كلّها سوى ساعةٍ أو ساعتين على الأقصى. أغلب الناس يُسمّون ذلك أرقًا، أمّا أنا فأُسمّيه «لعنةً». نعم هي لعنة الذنب الذي اقترفت. حتّى الوقت القصير الذي أقضيه غافيًا يُهاجمني فيه الكابوس المُريع نفسه بكلّ تفاصيله.

- أيّ كابوس؟

- كابوس أطبق عليّ أوّل مرّةٍ ليلة شاهدتُ الفيديو المشؤوم، ومنذئذ تكرّر مرارًا، سأصفه لك... آه لحظة، لستَ مُتطيّـرًا يؤمن بوقوع الحلم إذا ذُكر؟ لا؟ حسن، إليك القصّة كلّها: بعد حديثي مع سميّة قضّيتُ ما يُناهز الساعةَ مُشتّت الذهن حائرًا ثمّ أويتُ إلى سريري وقلبي يخفق بعنفٍ، ومع أنّي لم يُغطّني إلّا الظلام والخوف شعرتُ بسخونةٍ في قدميّ أخذت تتفاقم كأنّ أتونَ نارٍ يستعر تحتها ويكاد يسلخها. فبسملت وحوقلت وعيناي مفتوحتان في الظلمة، وكم أدهشني أن استطعتُ الرؤية بوضوحٍ، نعم، لقد رأيتُ ما حولي وكأنّني أمتلك عينيْ بومٍ، وليتني ما فعلتُ! فكلّ ما حولي كان يموج. الجدار المقابل أشبه بأفعى داكنة ملساء تسعى، والأرض تعلو وتنخفض كصدرٍ يتنفّس، وقد تفزّرت في شكل عروقٍ سوداءَ نافرةٍ مُتناثرةٍ، تمتدّ كأغصان الشجر. والجدار الذي على شِمالي فُتحت فيه كوّةٌ أشبه بفمٍ يُكشّر كاشفًا عن حميمٍ مضطرمةٍ. وإذ حوّلت نظري إلى السقف وأنا أكاد أتجمّد من الذعر فوجئت بسطلٍ داكنٍ كبيرٍ حلّ محلّ العريّا، وما انفكّ يتأرجح مُقتربًا من الأرض ببطءٍ. وفي الآن ذاته شعرتُ بجسمٍ غير مرئيّ يجثم على صدري ويكتم أنفاسي وكلّما نزل السطل بمقدارٍ ازداد ذلك الجسم ثِقلًا وفاقم اختناقي... ولستُ أدري كيف تمكّنت وأنا على وشك فقدان الوعي من إطلاق صرخةٍ ظننتها ستصمّ أذنيّ من قوّتها فإذا هي بلا صوت، تمامًا كتلك التي أطلقتها حليمة ذات مرّةٍ قبل أن يُغمى عليها. والغريب في الأمر أنّها رغم غياب الصوت عنها كانت كافية لإعادة كلّ شيءٍ إلى نصابه،

فامّحت الكوّة الملتهبة واختفى السطل، وما عادت الجدران تتحرّك، والأهمّ من كلّ ذلك أنّي استعدت قدرتي على الحركة بعد أن انزاح عنّي الجسم الهلاميّ المقيت. وكان أوّل ما فعلتُ أن أشعلتُ الضوء ونظرتُ إلى جسدي فألفيتُ منامتي مبلّلةً من فرط تعرّقي وشعر يدي ما يزال مُنتصبًا. هل ما رأيته مجرّد كابوس مريع من كوابيس النوم؟ كلّا، فأنا موقن أنّي لم أغفُ لحظةً واحدةً، زد على ذلك أنّي خلال جلوسي على حافة السرير ألهث أحسست بحضورٍ طاغٍ نقّل أطراف جسدي، كأنّ طيفًا ما يربض في الغرفة. ثمّ سمعتُ لهاثًا وشهيقًا خافتين، تلاهما حفيف أقدامٍ ما كنتُ لأنتبه إليه لولا إرهافي السمع. ولمّا التفتُّ لم أجد أحدًا، فلبثتُ أحاول إقناع نفسي بأنّ كلّ ما جرى أضغاث أحلامٍ لا أكثر، وقد التبس عليّ الأمر. ولم أكن في داخلي مقتنعًا بذلك، فما شاهدته أشبه بمجموعةٍ من الإشارات والرموز لم أهتد إلى دلالاتها المُبطّنة. وبعد أن بسملتُ وحوقلتُ وتعوّذتُ من نفثات إبليس اطمئنّ قلبي قليلًا وخلدتُ إلى النوم، ولم أصحُ إلّا والساعة قد بلغت السابعة صباحًا. تفقّدت هاتفي لعلّي أجد رسالة من شميّة لكنّ ملفّ الرسائل كان خاليًا. فنهضت إلى الحمّام واستحممت وأنا أفكّر في كلّ ما حدث. ولم يغب عنّي ما اعترى جسدي من رجفةٍ ودقّات قلبي من تسارعٍ. وبطبيعة الحال حاولت لجم الكابوس مُمنّيًا نفسي بيومٍ هادئٍ آمنٍ... وكم كنت مُخطئًا.

قصدتُ المطبخ فجهّزتُ كوب شايٍ وعدت سريعًا إلى غرفتي وشرعت أفكّر وأدوّن:

1 - الحالة: امرأة بالغة تبدو عليها أعراض الخرف فضلًا عن بعض المشكلات الصحيّة الأخرى.

2 - الأعراض السلوكيّة: العدوانيّة، رفض الأكل، الانفصال عن الواقع، العزلة، القذارة.

3 - الأعراض العجيبة: صوت الطرق والدك، أصوات الحنجرة الغريبة، القوّة الفائقة رغم ضآلة الجسد وقلّة التغذية،

الاشتباه الأوّل: أثر غيبي

الاشتباه الثاني: مرض عضويّ، أو نفسيّ أو عصبيّ

الاشتباه الثالث: حالة إيحائيّة (من الممكن أنّ حليمة تُزيّف أعراضها بوعي أو من دون وعي)

4 - مواطن البحث: المراجع الدينيّة الإسلاميّة (وربّما ما يخصّ باقي الديانات الإبراهيميّة كذلك)، المراجع العلميّة (علم النفس، وطبّ المخّ والأعصاب)، المعتقدات الاجتماعيّة (وهي متأثّرة لا محالة بالموروث الديني، ولكن أيضًا بالإسرائيليّات، وبالعلوم الزائفة والدجل).

راجعت القائمة، وكان واضحًا أنّ كلّ عنصر منها يُفضي إلى عشرات المسارات، ومئات الكتب والوثائقيّات والدراسات، حتّى إنّي لولا

شدّة فضولي لمعرفة حقيقة الموضوع وقد أصبحت جزءًا منه لأحجمتُ عن البحث. المُهمّ إذن أنّي فتحتُ صفحة إنترنت وعقلي ما يزال مشغولًا بأحداث الأمس، أصدفةً كانت، أم إيحاءً؟ أم ذكرى؟ أم تهديدًا؟ أم شيئًا آخر؟ كنتُ مُحتاجًا إلى مؤشّرٍ يطمئنني، ويُزيح الوسواس الخنّاس عن روحي وعقلي فكتبت على صفحة البحث:

Science – Paranormal

علم – خارق للطبيعة

وكان أوّل ما قابلني مُحاضرةٌ من منصّةٍ عالميّةٍ لمتحدّثة باسم: «كاري بابي»، وهي شابّة شقراء وقفت على خشبة المسرح وبجانبها اسم عاصمة النمسا «فيينا»، وطفقت تتحدّث عن تجربتها مع البُعد الغيبيّ، وبالتحديد عمّا جرى في العام 2009 حين انتقلت إلى بيتٍ صغيرٍ شبه متداعٍ، وذات مساءٍ، بينما هي تمرح مع كلبيها شعرت بغتةً بحضورٍ ما، كأنّها مُراقبة! وأمام عجزها عن تفسير ذلك الإحساس، حاولت أن تتناساه وتتجاوزه لكنّ كتمةً مُبهمةً قبضت صدرها زادت من شعورها بالغمّ. ثمّ بدأت تسمع أصوات أجسادٍ تتحرّك حولها. وأصبحت تجهش بالبكاء في فراشها كلّ ليلة. وحتّى عرضها نفسها على طبيبة نفسيّة لم يُجد نفعًا فقد رفضت الطبيبة علاجها كيميائيًا مادامت لا تعاني من مرض نفسيّ أو أيّ علّة أخرى. ولك أن تتخيّل يا حضرة المحامي كم بدا لي مُثيرًا للاهتمام أن أسمعها وهي ابنة الغرب الماديّ العلمانيّ تصف تجربتها مع الغيبيّ، وتستطرد قائلةً إنّها بعد أن عدِمت التفاسير المنطقيّة زارت أحد

المنتديات المهتمّة بأمور الأشباح، وكان يضمّ مجموعةً من الناس الجادّين الشكّاكين أفضت لهم بما في جُعبتها فسألها أحدهم: «هل لكِ درايةٌ بأعراض تسمّم أوّل أكسيد الكربون؟» وبمجرّد أن أجابت بـ«كلّا» أعلمها أنّ أهمّ تلك الأعراض هي: الثقل على الصدر، والهلوسة السمعيّة والتخيّلات (كأن تتوهّم عبور أجسادٍ خفيّةٍ بجانبها) والشعور المبهم بالتوتّر والاختناق. وعلى ضوء تلك المُعطيات سارعت كاري بمهاتفة أعوان شركة الغاز وطلبت منهم القدوم إلى بيتها، فأتوا وفحصوه باستخدام جهازٍ يكشف مستوى غاز أوّل أكسيد الكربون، وكانت النتيجة أنّها أحسنت صُنعًا بمُهاتفتهم، ولو لم تفعل لَلقيَت حتفها.

مع بلوغي نهاية المحاضرة شعرتُ بقدرٍ من الارتياح، وقلت في نفسي: «لطالما وُجد تفسير نجهله». ثمّ تساءلتُ: «أيّ غازٍ يا تُرى يُمكن أن تُعزى إليه حال حليمة؟» وسرعان ما فرّخ سؤالي أسئلةً عن حادثة الأمس: «أيّ تفسيرٍ منطقيّ لذلك؟ هل عشتُ حلمًا من أحلام اليقظة؟ أم أنّ الأمر كلّه مجرّد غازٍ مجهولٍ غشاني؟». ولم أبلغ ذلك الحدّ من التخمين إلّا وقد توتّرت أعصابي فجأةً، وتصلّب جسدي وتملّكني شعور غريب بأنّ ذلك الطيف الذي جثم عليّ في الليلة السابقة موجودٌ ويحوم حولي، ثمّ لاحظت أنّ لوحة الخطّ العربيّ المُعلقة على الجدار قد تحرّكت بقدرٍ ضئيلٍ يصعب الانتباه إليه لكنّه كان كافيًا لظهور نصف سنتيمتر من الحائط -تقريبًا- أقلّ اغبرارًا ممّا حوله لأنّه كان مغطًّى باللوحة. هل الطيف الملعون هو المسؤول عن ذلك؟ أم أنّي وقعتُ في فخّ الهلوسة النفسيّة سريعًا؟ أم تُراني مثل

كاري قد تنفّست ما لا أعلم؟

أمسكتُ هاتفي وفعّلتُ عدسة التصوير، وسجّلتُ وقلبي واجفٌ فيديو قصيرًا للغرفة وما حولي، ثم أخضعته إلى برنامج المعالجة. ورغم خبرتي الجيّدة في هذا المجال، أحسست باضطرابٍ شديدٍ لم يُغادرني حتّى بعدما انتهيت من المعالجة، بل يُمكنني الجزم بأنّ صوت خفقات قلبي منذ وضعت السمّاعتين على أذنيّ وشغّلت الفيديو طغى على صوت التسجيل، وهو ما اضطرّني إلى سحب نفسٍ عميقٍ ملأتُ به صدري قبل تشغيل الفيديو مرّة أخرى، وإرهاف السمع و... و... ما هذا الطرق؟ ويحي! آه... إنّه أبو حمزة! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

- قل لي بعجالةٍ ماذا حصل بعدما أرهفت السمع؟

- لا شيء، لا شيء، أستودعك الله الذي لا تَضيع ودائعه.

الزيارة السابعة

الأربعاء، 7 جمادى الآخرة 1442 ه

حالما وصلتُ إلى السجن في ذلك اليوم سارع إليّ أبو حمزة وسلّمني رسالةً كتبها عرفة وضمّنها صورة لسجنه وفي نيّته الاستعاضة بها عن التحدّث إليّ وجها لوجه، لكنّه بعدما أنهاها غيّر رأيه فكمّشها ورماها، والتقطها أبو حمزة ليطلعني عليها لعلّي أكافئه إن وجدتُ فيها ما يهمّني. وهذا نصها:

«لماذا تواصل الحضور؟ تُراكم الزيارات وتُصغي إليّ بانتباه وأنا أُسهب في الحديث، وكلّما ينتهي لقاء ينبت بصدري بصيص أملٍ... ثمّ أعود إلى عتمة سردابي، ويلطمني الواقع الخانق فيثقل الوجدان والأطراف، وأهيم بلا بصرٍ ولا بصيرةٍ! ولتعلم أنّ ألم تلك الانتكاسة يفوق ألم الحبس... أرى نفسي طيفًا يبهت... خيالًا يتلاشى في ذاكرةِ من عرفوه... من يسأل عنّي خارج هذه الجدران؟ من يفتقدني؟ لقد عرقلتْ حياتي وأجهضتها فصارت رماد نارٍ خابئةٍ...

في أغلب الأحيان أجلس إلى نفسي أتفكّر وأتأمّل، أحاول تقبّل حالي... لكنّ الحنين إلى العالم الخارجيّ شرعان ما يُضيّق عليّ الخناق... هل هذا العالم حقًّا موجود؟ هل ما زال الناس يجتمعون بأحبّتهم؟ يذهبون إلى السينما؟ يشاهدون المباريات؟ يستحمّون متى أرادوا؟ يسيرون في الشوارع المضاءة في الليل؟ يركضون على

الشواطئ؟ يأكلون ما يشتهون؟ ويحتسون ما يريدون؟ من دون خوفٍ ولا وجلٍ؟ هل مازالوا يصرخون في وجه النادل إذا جاءهم بطعامٍ غير مُستوٍ أو وجدوا حشرةً في صحن من صحونهم؟

ماذا لو علموا أنّ مرحاضي فجوة صخريّة في ركن الغرفة، بجانب دكّة سريري؟ ماذا لو علموا أنّ الصرف الصحّي ضعيف، وأنّني أنام إلى جانب بركة سوداء من البراز والبول؟ كيف سينظرون إلى رجلٍ كلّما قاظ الجوّ عصفت بأنفه روائح نتنة مُقرفة؟ بأيّ عين سيرونني إذا عرفوا أنّ الحشرات حاضرةٌ باستمرارٍ في طعامي الكريه، وأنّني عندما أحكّ جلدي تتجمّع تحت ظفري طبقة ترابٍ خشنةٍ؟

لماذا تواصل الزيارات؟ كلّما تناسيت الخارج تزورني وتفتح أبواب الذاكرة التي أودّ إيصادها... وما أخطر الأمل والفأل... لقد أعلمتك أنّني لا أسعى إلى براءةٍ ولا إلى تقديم تبريرٍ... آه... بماذا أهرف؟! إنّك صلتي الوحيدة بالعالم الخارجيّ، ولا يحق ليَ التشكّي... بل يجب أن أقِرّ ببهجتي لرؤيتك، فالحبس كئيبٌ مقيت، لا غنى لي فيه عن التحدّث إلى نفسي، وذلك أوّل الجنون، ليتني متّ وكنتُ نسيًا منسيًا... لا حول ولا قوّة إلّا بالله».

بعد أن فرغث من قراءة الرسالة طويثها ووضعتها في جيبي ومضيث إلى حجرة اللقاء المقيتة فوجدثُ عرفة في انتظاري، وما إن رآني حتّى بادرني بالقول بلهجة لا تخلو من الحدّة:

- يبدو أنّك ما غدت تستعجل لقائي، في المرّات السابقة كنت تصل قبلي وتنتظرني بتلهّف لا يخفى عنّي عندما أصل، أمّا الآن فأحسبك بدأت تملّ ولولا التزامك أمام فاعل الخير المزعوم لزهدت في المجيء، فما أنا إلّا حالة ميؤوس منها، وأقصى ما يُمكن أن تُقدّمه لي هو بعض عبارات المواساة والشفقة.

- استهدِ بالله يا عرفة، ما بعد المحنة إلا منحة...

- تقتبس من عبد الجبّار! يا للخيبة! حسن، حسن... فلْنتهِ من هذا الأمر، عمّ كنّا نتحدّث آخر مرّة؟ آه، نعم، عن الكابوس الغريب الذي عشته وأنا مُستيقظ، والأبحاث التي قمت بها من أجل العثور على تفسير علميّ يُهدّئ من روعي، ثمّ التجربة التي أجريت عقِبَ شعوري بحضورٍ ما غير مرئيّ حولي...

- أجل لكنّك لم تُخبرني بنتائج تلك التجربة.

- لم أحصل على نتائج واضحةٍ، بل مجرّد حشرجاتٍ وهمهماتٍ ما كنت لأتبيّنها لولا برنامج المُعالجة وهذا يعني أنّها ربّما صدرت منّي أنا ولم ألاحظ ذلك من شدّة خفوتها في صيغتها الطبيعيّة.

- آه، نعم، نعم، فهمت، وماذا جرى بعد ذلك؟

- اتّصلتُ بسميّة.

- هل حدّثتها عن الكابوس؟

- حالما تبادلنا السلام تبعثرت أفكاري ولم أجد الكلمات، ولاحظتُ أنّها تكاد تلهث من الانفعال لسبب ما فازددتُ اضطرابًا، لكنّني تماسكت وقلت: *«ليلة أمس عشتُ حالةً غريبةً لم أُخبركِ بها بسبب تأخّر الوقت، وفي صباح اليوم حصل أمر مُتّصل بها فاقم حيرتي*

وتوجّسي...».

وحدّثتها بما كان، من بداية «كابوس اليقظة»، إن جاز التعبير، حتّى انتهائي من التجربة التي أجريتُ من دون تحصيل يقينٍ حاسمٍ فظلّت صامتة برهةً كمن يُعمل الفكر في ما سمِعَ ثمّ صدحت مصعوقةً من خاطرٍ ما خطر لها: *«آه يا ربّي! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم...»* فسألتها والدم يكاد يتجمّد في عروقي: *«ماذا هناك؟»* وجاءني الردّ مُربكًا مُخيفًا: *«لقد استيقظت اليوم في حدود الساعة السابعة تقريبًا على صراخ جدّتي بجنونٍ وهلعٍ، وبعدما هدّأناها أنا وأمّي حتّى غفيت مُجدّدًا سارعتُ إلى جهاز التسجيل الذي خبّأته في غرفتها واطّلعتُ عليه، وإذا فيه جُملٌ بدت لي أوّل الأمر مُبهمةً، أمّا الآن وقد سمعتُ منك ما سمعتُ فإنّي... يا إلهي! سأرسلُ إليك التسجيل».*

وبطبيعة الحال كان لكلامها عمومًا، وذكرها للوقت الذي تعالى فيه الصراخ خاصّةً، أثر الصفعة على وجهي، لكنّني حاولت جاهدًا أن أستعيد بعضًا من توازني وشرعتُ أقرأ ما ورد في الجدول المُرسَل.

اسم مالك الحساب	سمية سلامة
التاريخ	23 ذو القعدة 1441هـ
الساعة	النص
01:33	هلمّ واستقم أعرني أذنيك وقلبك
01:43	لن تستطيع الحركة لن تستطيع الحديث فأنصت بحرص يا عبدي
02:03	هلمّ واستقم يا من اصطفيت وإلا استبدلت بك عبدًا آخر
02:53	هلمّ واستقم أعرني أذنيك وقلبك
03:33	لن تستطيع الحركة لن تستطيع الحديث فأنصت بحرص يا عبدي
03:43	هلمّ واستقم يا من اصطفيت
04:03	هلمّ واستقم أعرني أذنيك وقلبك
04:53	لن تستطيع الحركة لن تستطيع الحديث فأنصت بحرص يا عبدي
05:33	هلمّ واستقم يا من اصطفيت وإلا استبدلت بك عبدًا آخر
05:43	هلمّ واستقم أعرني أذنيك وقلبك
06:03	لن تستطيع الحركة لن تستطيع الحديث فأنصت بحرص يا عبدي
06:53	هلمّ واستقم يا من اصطفيت وإلا استبدلت بك عبدًا آخر وإلا استبدلت بك عبدًا آخر استبدلت بك عبدًا آخر استبدلت بك عبدًا آخر عبدًا آخر عبدًا آخر آخر
07:00	* نهاية التسجيل*

وبينما كنت أنظر مشدوهًا إلى شاشة الهاتف وقد احتبست الدموع في مقلتيّ بلغني صوت سميّة وهي تقول: *«عرفة، أنا آسفة، لا أعرف ماذا يحدث... لم أحدّثك عن التسجيل لأنّني لم أفهم فحواه»*.

شعرتُ بجمرةٍ تلتهب في صدري، ما الذي تودّ الإشارة إليه؟ كنت غاضبًا جدًا، فما عاد يهمّني اعتذارها، ولا حال جدّتها... لقد اجتاحت حياتي وقلبتها رأسًا على عقبٍ، وما انفكّت تتقدّم بي إلى حوافّ خطرةٍ. ومن سخرية الأقدار يا حضرة المحامي أنّها لحظة بلوغي تلك الفكرة بالذات عرضت عليّ أمرًا اقشعرّ له جلدي وحبس أنفاسي.

- أيّ أمرٍ؟

- لقد قالت لي برباطة جأش أحسدها عليها: *«يجب أن تُكلّم جدّتي»*. ولمّا هتفتُ مستنكرًا: *«ماذا؟»* استطردت محاولةً إقناعي: *«أعتقد أنّها حاولت التواصل وإيّاك طول الليل، أقصد تلك القوّة الخارقة التي تُسيطر عليها، لا أعرف بالضبط لكن أظنّ أنّ من يضطهدها يسعى لاضطهادك... وما رأيته وشعرت به لا أحسبه مجرّد خيالاتٍ من فرط التوتّر. يجب أن تكلّمها»*. وعوض أن أعرض عن ذلك المُقترح الخطِر برمّته سألتُ على نحو يوحي بقبولي الفكرة: *«حتّى إن جاريتك في ما عنّ لك، كيف لي أن أصل إليها؟ فأنا لا أستطيع دخول بيتكم وهي لا تستطيع تركه..»* فردّت بسرعةٍ أنبأتني أنّها جهّزت الإجابة من قبل أن أطرح السؤال: *«سأتّصل بك من حجرتها»*.

ومع بلوغي في توريط نفسي ذاك الحدّ لعنتُ اللحظة التي قرأت فيها رسالتها واليوم الذي قدّمتُ فيه العرض! وقد أدركت أنّي ما عُدتُ أستطيع الانسحاب. حتّى لو أخبرت سميّة بأنّي مرعوب ولا أستطيع مجاراتها، ثمّ قطعت صلتي بها، كيف أضمن أنّ ذلك سينأى بي عن التأذّي بعد الذي عشته في الليلة السابقة؟ وكانت النتيجة الكارثيّة لحواري السريع أن قُلتُ مُذعنًا: «*حسن ليكن الأمر كذلك*».

آه يا الله! اعذرني على الدموع يا حضرة المحامي. يجب أن تنصرف. فما عُدتُ أستطيع التحمّل. لقد تحوّلت تلك الذكرى اللعينة إلى يد تعصر قلبي. أشعر بدوارٍ واختناقٍ شديدين.

أبو حمزة! أرجوك تعال. انتهت الجلسة!

الملحق الرابع: ساعة مع الأمين

لقاء راديو

أهلًا وسهلًا بكم أيّها الجمهور الكريم في برنامج «ساعة مع الأمين» الذي نسلّط فيه الضوء على المواضيع الحسّاسة، أو لأقل تلك التي لا يجرؤ غيرنا على طرحها للنقاش! معكم محدّثكم أمين أحمد، ويُرافقني اليوم ضيفان من عالمَين مُختلفين، الشيخ حنبل طه، والدكتورة مؤمنة عبد ربّه، وأنا حقًّا سعيدٌ بهذه الرفقة سعادتي بإصغائكم إلينا عبر موجات الأثير. أمّا موضوع حوارنا اليوم فهو الحادثة التي روّعت قلوب الناس وجرت بالحديث عنها ألسنتهم: جريمة عرفة بن الإمام المُتمثّلة في حرقه المرحومة حليمة حتّى الموت. إنّها جريمة مريعة ولا مراء. ولقد أثارت جدلًا مُحتدمًا على ساحات الشبكات الاجتماعيّة، وقسمت الناس شقّين: شقّ «حرّروا عرفة» وشقّ «أعدِموا عرفة»، وظهر تمايز غير معهود في آراء العامّة بين المطالبة بالقصاص، والمطالبة بالعدالة.

ولاحظنا مؤخّرًا تجدّد النقاش على منصّات الشبكات الاجتماعيّة بعد تسرّب التسجيل الصوتي الذي اشتهر باسم «حوار الثلاثين ثانيةً»، ففي هذا التسجيل يُسمع عرفة وهو يحادث آخر لا وجود له. وإنّما قلتُ «آخر» ولم أقل «شخصًا» لأنّي مثلكم لا أعرف ما إذا كان عرفة يُحادث شخصًا ما أم طيفًا أم خيالًا أم ماردًا من الجنّ! ولا عجب إذن أن يتفرّق جمهور المتابعين مُجدّدًا بين من عدّوه مجنونًا

أو ممسوسًا، ومن هم مُقتنعون بأنّ الحادثة كلّها مُصطنعة. وها نحن نضع الموضوع بين أيدي الخبراء لعلّنا نحصل على إجابات للأسئلة التالية: هل عرفة مجنون؟ أم هو فعلًا ممسوس؟ أيستحق عرفة العقوبة؟ وما نوع هذه العقوبة إن حُقّت: الإعدام أم الحبس المؤبّد؟ وهل من المقبول أن... نخفض له جناح الذلّ من الرحمة؟

سنسمع ضيفينا بكل حيادٍ وشفافيّةٍ، وإليهما أقول: أساس الحوار البنّاء هو الاحترام وحسن الاستماع، وإذا تجاوز أيّ منكما الحدود المسموح بها فلن أتهاون، وسأكتم صوته. وأرجو من كلّ قلبي ألّا أجبر على فعل ذلك. وقبل أن أحيل إليكما الكلمة، سنُصغي معًا إلى عرفة في تسجيلٍ صوتيّ لم يُذع من قبل، كان قد شارك به في أحد الاختبارات التي تُجريها من حين إلى آخر لمن يودّون العمل معنا. ستلاحظون في هذا التسجيل جودةَ حديث عرفة، وحُسنَ إخراجه الحروف، وانتقاءه الدقيق لمصطلحاته، لكن ما أودّ لفت انتباهكم إليه، أيّها الجمهور الكريم، هو محتوى كلماته. والآن ليتفضّل الإخوة في الإستوديو بعرض التسجيل.

«العالمُ مسرحٌ كبير، ومعظمُ الرجالِ والنساء فيه مجرّد ممثّلين،

لكلّ رجلٍ وكلّ امرأةٍ دورٌ يؤدّيه،

بين الدخول والخروج، حسب الرؤية والتدبير»

بهذه الكلمات يُلخّص شكسبير مأساةَ حياتنا... ورغم مُضيّ قرونٍ

على نحته تلك الكلمات، ما تزال تدوّي في مسرح حياتنا.

وليس يخفى على أغلبكم أنّ جيلي يُعاني من أزمةٍ وجوديّة، وإحساسٍ عامّ بالعدميّة، وتلك آفةٌ تفشّت حتّى سادت.

ولو حادث أيّ منكم أيّها السادة شابًا في عشرينيّاته سيلاحظ نبرة الإحباط التي تغشى كلامه عن أحلامه وآلامه، وعن طموحاته وأعبائه. فأنا وأقراني ابتُلينا بحقبةٍ يصعُب فيها التفرّد والتمسّك بمكنونات الذات. لقد مُسخت الحريّة وتحوّرت، وبات المرء يمشي على صراط الآخرين ولا يحيد عنه، ويقف في مسرح الوجود مُتلعثمًا مُترددًا، لا يدري كيف يصوغ نصّ حياته، لكنّه يجيد ترديد نصوصٍ لقّنه إيّاها الآخرون. وما أكثر التلقين في بيوتنا ومدارسنا وجامعاتنا ووظائفنا. ولنا في شيوع عبارة «الأغلال الذهبيّة» أفضل مثالٍ على حالة البلادة السائدة. وإنّه لمن المؤسف أشدّ الأسف أن يحلّ الخضوع محلّ التفكير. ويُمجّد الانصياع فيُسمّى انسجامًا، وتُذمّ الاستقلالية فتُسمّى «تمرّدًا»! ويُغرس في العقول أنّها تقود إلى الخراب مثلما يقود نقيضها إلى الرخاء. وكلّ مُنحرفٍ عن هذا الصراط يثير حفيظة مُلتزميه وقلقهم وحنقهم.

ووفقًا لكلّ ما تقدّم ذكره يسعى الفرد لبركة من سبقوه، ينخرط في جوقاتهم، ويعزف على أوتارهم وينعق نعيقهم. يُزيّن مجالسهم مُتزلّفًا ومُتحذلقًا مثلهم، فحتّى ينسجم بينهم وجب أن يتشدّق بما يتشدّقون به، بل وجب عليه أن يكون بيّغاءهم، يتنفّس الأفكار التي ينفثون، ويُثني عليها ويتبنّاها كبنات أفكاره.

يا أقراني الأعزاء أعرضوا عن ذلك، اهجروا مجالسهم ومنابرهم إذا ما فرضوا على فرادتكم قيودًا، ولا ضير إن لم يفهموكم أو لم يتقبلوكم... فبمثل ذاك ابتُلي الأنبياء والرسل حيثما بُعثوا وهم مَنْ هم من الفضل والسمو. وحسبكم عزاءً أنكم مثلهم: ترفضون الانصياع وتتقدمون على صراطكم بأفكاركم.

مرحبًا مُجددًا أيها السادة، لقد سمعنا كلمات عرفة. ولنسمع الآن كلمات ضيفينا. سنبدأ بك ضيفي الكريم الشيخ حنبل طه، تفضّل مشكورًا...

حنبل طه: بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيّد المرسلين، نبيّنا محمّد، على آله وصحبه أتمّ التسليم...

لننتقل إلى لبّ الموضوع، فلهذا أتينا واجتمعنا. ما من شكٍّ في أنّ ديننا الحنيف يحضّ على الرحمة، وعلى أن يلتمس المُسلم لأخيه المسلم سبعين عذرًا، لكنّ جرمَ عرفة بيّن لا مراء فيه، كما تفضّلت حضرتك بالقول، وما أنا إلّا مقتبسٌ لكلماتك. ولا تسئ فهمي يا أخي، فأنا وأنت مُتفقان في ما يخصّ فداحة الجريمة المرتكبة واكتمال أركانها، وأيضًا في استحالة التغاضي عنها بكلّ بساطة، وإسقاط العقوبة عمّن أجرم، حتّى لو تنازل أهل الضحيّة، ففي جميع الأحوال سيظلّ المجرم عالةً على المجتمع، أليس كذلك؟ من ستتزوّجه؟ من سيوظّفه؟ من سيأتمنه؟ وإن قصد المسجد كيف سيتحمّله من حوله؟ وأقول إن وليس إذا لأنّه بحسب ما بلغني لا يرتاد المساجد.

وممّا تناهى إلى سمعي أيضًا أنّ أباه اعتزل الإمامة، بل أقيل منها. وتلك شهادة أهل حارته نقلتها إليكم كما هي. ولسنا هنا لنخوض في أسرار البيوت أو لنشمت ونتشفّى، معاذ الله يا أخي... لكن يجب ألّا نفكّر في الجريمة كفعلٍ منعزل، فما أمرنا عليه أفضل الصلاة والتسليم بقطع يد السارق عقوبةً فحسب، بل تشهيرًا وتحذيرًا، ليكون عبرةً أينما حلّ ونزل... وفي ذلك حكمةٌ بالغةٌ سامقة. هذا حكم السارق، فما بالك بذلك الذي روّع بيتًا وأهلًا، وسرق روحًا؟ أرى أنّ التشهير واجب، والإعدامَ حقّ. أقول قولي هذا وأستغفر الله ربّ العالمين.

أمين أحمد: شكرًا لك يا شيخ حنبل طه على فصاحة قولك ووضوح رأيك. لكنك لم تتطرّق إلى النقطة الأهمّ: لو افترضنا جدلًا أنّ عرفة بالفعل ممسوس، هل يبرّر ذلك جريمته؟

حنبل طه: أمّا هذا فوحلٌ أتحرّج من الخوض فيه، لكثرة من يدّعون أنّهم ضحايا المسّ لتبرير جرائمهم... الأب الذي اغتصب بنته، والأمّ التي أغرقت ابنها، والأخ الذي قطّع أخاه... ثم نتبيّن لاحقًا أنّ أقوالَهم ادعاءات زائفة واستغلال مُشين للدين.

أمين أحمد: لكن ألا يشفع لعرفة تاريخه الخالي من الجرائم؟

حنبل طه: سأترك ذلك لأهل الصنعة، فلست ضالعًا في فقه القضاء.

آمين أحمد: واضح جدًا، شكرًا يا شيخ حنبل. أحيل الكلمة إذن إلى

دكتورة مؤمنة عبد ربّه.

مؤمنة عبد ربّه: مرحبًا بكم جميعًا، لن ألفّ وأدور، ولن أجامل وأماطل. أختلف مع الشيخ تمامًا، وأعدّ ما خلُص إليه في خصوص عرفة إجحافًا بيّنًا، والرأي عندي أن نلتمس لذلك المسكين سبعين عذرًا! فمثلما اطّلع الشيخ على ماضيه، اطّلعت عليه أنا كذلك، وأوّل ما استوقفني فيه أنّ أباه نفاه وحبسه... أيّ عذاب عاناه! وأيّ شرخٍ نفسيّ عاشه! ألم يُؤكّد سيغموند فرويد مرارًا وتكرارًا أنّ الابن لا يصبح رجلًا إلّا بإذن أبيه؟ فماذا عن ذلك الذي حُرم صحبته؟ وماذا عن العزلة الناجمة عن الجائحة أليست في غياب الدعم النفسيّ سبيلًا مُعبّدةً إلى الجنون؟! وها إنّنا بدلًا من الحثّ على مُعالجة الأسباب نُطالب بالتنكيل والعذاب؟ حرام عليك يا شيخ حنبل! طبعًا لو كان من جماعتك لالتمست له سبعمائة عذرٍ!

أمين أحمد: يا دكتورة مؤمنة أرجوك تجنّبي التهم وتشخيص الأمور! أعتذر لك يا شيخ عمّا قيل، وهو لا يمثّل البرنامج وأخلاقه بتاتًا! دكتورة مؤمنة، لا تقاطعيني وإلّا كتمت صوتك! هذا اتّفاقنا منذ البداية.

حنبل طه: لا عليك يا أخي فالذنب ليس ذنبك... وسألتمس العذر للدكتورة! ولنعد إلى نقاشنا. أرى أن السيّدة مُتمسّكة بآراء الغرب وتحاول أن تدسّها في صحوننا، ولكن يجب أن نتصدّى لذلك! والحمد لله الذي جعلني لأمثالها بالمرصاد، وأجزم أنّها ممّن يموّهون الكلام ويحرّفون التسمية، فتدعو من مسّه الجنّ مضطربًا عقليًا،

وتُطلق على اللوطيّين...

مؤمنة عبد ربّه: اسمهم مثليّين! يا...

أمين أحمد: حذّرتك يا دكتورة مؤمنة. وأستاذ حنبل، لنتجنّب الخروج عن الموضوع، فنحن لسنا هنا لتأوّل الأسماء ودلالاتها.

حنبل طه: لقد قلت قولي ولا أتراجع عنه: عرفة يستحقّ العقوبة القصوى.

أمين أحمد: وماذا عنك يا دكتورة؟ لقد قُلتِ إنّ عرفة قد يكون ضحيّة اضطرابٍ عقليّ دفعه إلى الجريمة، وأرجو أن تتوسّعي في ذلك...

مؤمنة عبد ربّه: سأفعل، لكن بشرط عدم المقاطعة أو كتم صوتي.

بطبيعة الحال، يصعب عليّ تصنيف حالة عرفة ما لم أُعاينها مُطوّلًا، وهذا شبه مُستحيلٍ وهو مسجون، لكنّني تفكّرت في أمره كثيرًا، وبحسب ما سمعناه، ثمّة إجماع على حُسن سُمعته، مع إشارةٍ مُتكرّرةٍ إلى اتّسامه بالانطوائيّة، والأرجح عندي أنّه يعاني من كآبةٍ مزمنةٍ، وأحسبه ما اختار التعليق الإذاعيّ وظيفةً إلّا ليتحاشى الاختلاط بعددٍ كبيرٍ من الناس. فهي من الوظائف القلائل التي تيسّر لمُمتهنها كسب المالِ والمكانةِ الاجتماعيّةِ، وتجنّبه الاحتكاك المباشر بالناس وما يتبعه من ضغوطات.

أمين أحمد: معذرة على المقاطعة يا دكتورة، من أين عرفت ذلك عنه؟

مؤمنة عبد ربّه: ما سمعناه في التسجيل أوحى لي بهذا، ويُمكن أن أُضيف مُعطياتٍ أُخرى استنتجتها إلى جانب اكتئاب عرفة المزمن، وهي: حساسيّته المفرطة، وذكاؤه الشديد، وميله للعزلة، وتقلّب مزاجه باطّرادٍ. لكن يظلّ كلّ ما قُلته مجرّد تخميناتٍ ما دمتُ لم أعاينه بنفسي. وفي السياق ذاته ثمّة افتراض آخر، وهو أنّ عرفة عانى من أزمةٍ نفسيّةٍ آذته أذًى مُزمنًا. وأنا كما يعلم جلّ المُهتمّين بالدراسات الأكاديميّة لي ورقةٌ بحثيّة في هذا الشأن قدّمتها أيّام دراستي العليا بقسم الدراسات النسويّة والصحة العاطفيّة، وهي...

حنبل طه: أستغفر الله العظيم، اللهم ألهمني الصبر...

أمين أحمد: شيخ حنبل لا تجبرني على كتم الصوت! يُرجى احترام الطرف الآخر، فنحن لا نستضيف إلّا من له سمعة وباع في مجاله! استمرّي يا دكتورة، وأعتذر عمّا حدث.

مؤمنة عبد ربّه: بالفعل التوصّل إلى الحقائق عبر منهج علميّ صارم أمر يحتاج إلى كثير من الصبر، فلا حرج على شيخنا. المهمّ إذن أنّ بحثي المذكور كان عنوانه:

«ميدوسا: مدخل لدراسة الصدمة والانمساخ»

وميدوسا في الميثولوجيا الإغريقيّة امرأةٌ سخطتها الآلهة فحوّلت شعرها إلى باقةٍ من الأفاعي، وسلّحتها بنظرةٍ قاتلةٍ تُجمّد الناظر إلى عينيها حقًّا لا مجازًا. ولقد عاشت على تلك الحال أعوامًا في جزيرةٍ نائيةٍ حتّى بتّر البطل بيرسيوس رأسها.

لكن ما يجهله كثير من الناس أنّ ميدوسا لم تكن طيلة حياتها مسخًا، فهي في الأصل كاهنة جميلة في معبد أثينا! لكنّ بوسيدون، إله البحر، اغتصبها في حرم المعبد. وفي نظام أرباب الإغريق، لم تكن هناك عواقب على الذكر المُغتصب، وتبعًا لذلك لم تُعاقب الآلهة أثينا بوسيدون على جرمه، وصبّت غضبها على ميدوسا.

وما طرحته في ورقتي البحثيّة هو ذلك التمييز الحاصل منذ فجر التاريخ بين الرجل، المُتمتّع بالسلطة والامتيازات والمرأة المُستباحة لا محالة مهما علا شأنها. وأذكّر مرّةً أخرى بأنّ بوسيدون ربّ البحر هو الجاني في هذه القصّة. وحتّى والأمر كذلك حُقّ له أن يفِرّ من مسؤوليّته وجريمته بلا أدنى اقتصاص، وسلّط العقاب على ميدوسا. فالمرأة وهي الضحيّة لذلك الفعل الإجراميّ الشنيع، وما يُمكن أن يترتّب عنه من تبعات مثل الحمل والإجهاض، تنالها في الآن ذاته يد العقاب سواء بالجلد والرجم، أو بما قد يحدث من جرائم الشرف في بعض الأديان والثقافات. ولو افترضنا جدلًا أن الأقدار ترفّقت بها ولم يُصبها شيء ممّا ذكرت، فماذا عن الأضرار النفسيّة والجسديّة الدائمة التي تُخلّفها حادثة الاغتصاب المروّعة؟ تبعًا لكلّ ذلك غدت ميدوسا الرمز الأمثل لمأساة المُغتصَبة. ومادامت القصّة رمزيّة لنا أن

نؤوّلها على أوجه عديدة. ومن ذلك أنّها تصوير لمعاناة الضحيّة في المجتمع الباطش. ففي اعتقادي ما عزلة ميدوسا وتوحّشها بعيدًا عن المجتمع الإنساني إلّا صورة للتهميش والقمع الذي تعانيه الضحيّة في مجتمعها، وما انمساخ وجهها وجلدها وشعرها إلّا إحالة على تفسّخ نفسيّة الضحيّة وآثار ذلك في الجسد والسلوك.

وعرفة كميدوسا، كان شخصًا طبيعيًّا، ثم غدا كائنًا مُرعبًا. وكلاهما حُرم الصحبةَ البشريّةَ ثمّ مارس العنف، هي بتحويل كلّ من يقترب منها إلى حجر، وهو بإضرامه النار في بيت العجوز حليمة. وتخميني أنّه أُصيب بصدمة عصبيّة لا علم لأحدٍ بها سواه، وربّما يكون نسيها، والإلمام بتفاصيلها سيُغيّر ولا شكّ من آرائنا في ما جرى. هناك مسخٌ يرقد في لا وعي عرفة، ويجب أن نعرف ما أصابه، لأنّه على الأرجح ضحيّة أمر ما لا يدركه... ولذا أنا ألتمس له سبعين عذرًا.

أمين أحمد: أرى أنّ طرحك جدليّ وغير مألوف، لكن كيف نضمن أنّ عرفة، لن يدّعي أمرًا كالذي ذكرتِ لينجو من العقاب؟

مؤمنة عبد ربه: توجد مقولة مشهورة في اللغة الإنجليزيّة مفادها أن علم النفس سيكولوجي، وليس إكسكيوسلوجي، أي أنّه ليس علم الأعذار. بالطبع لن ندرك حقيقة عرفة وهو هناك في سجنه. ومن يعرفني يعلم أنّي لطالما تحدّثت في منصّات التواصل عن أهمّيّة الصحّة النفسيّة والعاطفيّة، لتجنّب انفجارات دواخل الإنسان، وحدوث ما لا تحمد عقباه.

أمين أحمد: شكرًا لك دكتورة، شيح حنبل، لقد سمعت ما قالته الدكتورة، ما رأيك؟

حنبل طه: احم، بسم الله الرحمن الرحيم، إنّ ما طرحته الدكتورة هو ما يفتح أبوابًا لا تحمد عقابها، ومع احترامي الشديد للعلم الحديث، سأرتكز على قصّة من تراثنا الصحيح، فحواها أنّ رجلًا سرق في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب، وأتوا به إليه فسأله الخليفة: «ما حملك على السرقة؟» فأجابه: «حملني عليها قضاء الله وقدره». فكان ردّ الخليفة المُحنّك: «وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره». ثمّ أمر به فقطعت يده. والمغزى من هذا أنّ الاحتجاج بالغيبيّ لا يقبله أيّ إنسان بسهولة، في غياب المرجعيّة اللازمة. لكن إن كان في ما قالته الدكتورة صحّة، وعرفة حقًّا ضحيّة ما يجهل، فقد رُفع عنه القلم. والثابت بالسند الصحيح أنّ المرء يمسّه السحر والجنّ، لا سيّما من يشكون ضعفًا في تكوينهم الدينيّ، وأكرّر، إن كان ذاك حال عرفة. فهو عندي معذور. ومن الواجب والضروريّ أن يُعالج بالرقية.

أمين أحمد: جميل جدًا، ها قد اتّفق ضيفانا أخيرًا على أمرٍ وجيهٍ هو أهمّيّة مراجعة حالة عرفة، رغم اختلافهما في تقدير أسباب الجريمة، لكنّ ذلك ويا للأسف اقترن ببلوغنا نهاية الجلسة. ولم يبق لنا سوى أن نشكر الضيفين الكريمين على حضورهما، وسعة صدريهما وغزير علمهما. وأنت أيها المستمع الكريم، شاركنا صوتك بالتعليق أدناه على ما رأيت وما سمعت.

كان معكم أمين أحمد من إستوديو «ساعة مع الأمين»، فضاء

الحوارات البنّاءة، شكرًا لكم، وعمتم مساءً(24).

الزيارة الثامنة

الأربعاء، 5 رجب 1442 ه

- مرحبًا عرفة، آمل أن تكون حالك قد تحسنت...

- مرحبًا يا حضرة المحامي... وددتُ لو أقول نعم، لكنّ الحقيقة غير ذلك، فحالي ما انفكّت تتدهور، والعزلةُ والقلقُ إبرتان تغزلان كفني. لا أستطيع التظاهر بالقوّة وقد نخرت روحي دودة القمع الحقود الجشعة. لكن ذكّرني، أين انقطع حوارنا آخر مرّة؟

- لقد حدّثتني بما دار بينك وبين شميّة حتّى اللحظة التي طلبت فيها منك التواصل وجدّتها.

- آه... صحيح... نعم... ما زلت أذكرُ اضطراب قلبي وتيبّس أطرافي في تلك الليلة. وقد التهب صدري كجمرةٍ من الدرك الأسفل في جهنّم. ولمّا كنتُ أعلم أنّ أحاسيسي شاذّة عن أعراف الرجال اضطُررت لوأدها في أعماقي، وظللت أحوم في غرفتي كفأرٍ حبيس، وصوت في ذهني يصرخ ويردّد: لا أريد هذا الاتّصال! لا يحقّ لها فعل ذلك بي. لا يحقّ لها جرّي إلى جحيمها.

كم أشفق على نفسي! فقبل تعرّفي إلى سميّة كنت أظنّ الجنّ والعفاريت خرافةً، أو أسطورةً ابتدعها رجل الكهف لمّا رأى الأشجار

تتحرّك بفعل الرياح، وسمع حفيف أوراقها وأصوات الحيوانات في الغابة. وكي لا أخرج عن ملّة سيّدنا محمّد عليه الصلاة والسلام أقنعت نفسي بأنّ الجنّ مجاز، ورمز لأمراض نفسيّةٍ وعضويّةٍ استعصى علينا فهمها. فبفضل تقدّم العلم أدرك الإنسان أنّ الصاعقة لا تُلهب قمم الأشجار تعبيرًا عن غضب زيوس، وألّا علاقة بين العواصف في البحار وتعكّر مزاج بوسيدون، وكذلك أنّ الشخص الذي ينبعج جسده ويُلوى لسانه لم يمسّه جنّي، بل هو مصابٌ بالصرع. نعم، لطالما كنتُ مُقتنعًا بوجود تفسيرٍ لكلّ شيءٍ، وإن لم نصل إليه، فنحن قاب قوسين أو أدنى منه. والآن، ها أنا غارقٌ في وحل حيرتي بلا أيّ تفسير مُقنع، ولا قُدرة على إيجاده، ولا يوجد مَخبر أو مركز أبحاث على سطح البسيطة في استطاعته أن يفسّر لي ما يحدث.

- ألا ترى أنّ رأيك فيه انتقاص وتقليل من شأن ما لا يمكن إدراكه؟

- ماذا تقصد؟

- اعذرني... لقد تجاوزت المُناط بعهدتي، فالمُفترض أن ألتزم الدفاع عنك لا غير، وليس من اللائق أن أخوض في أمور أخرى وأجادلك.

- يا حضرة المحامي، أنا رجل كثير الهذر كما ترى، ولا صديق لي في هذا السجن. فأرجوك قل كلّ ما تريد قوله ولا تتردّد...

- بارك الله فيك. وأنت تتحدّث قبل لحظات جالت بخاطري الآية الكريمة: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾، وكنت كلّما قرأتها استحضرتُ مشهد أسماك النهر في مسقط رأسي وهي تسبح يمنةً ويسرةً من دون أن ترى ما فوقها أو تحتها لأنّ ذلك خارج حدود وعيها، فإذا اصطدمت بساقي أو قدمي حسبتني حجرةً معشوشبةً. تخيّل معي لو أنّني أمسكت بسمكةٍ وأخرجتها من الماء، ماذا سترى؟ عالمًا جافًّا، وكائنًا يتحرّك بلا زعانف، ويتنفّس بلا ماءٍ! والمهمّ في الأمر أنّ ذاك ما ستراويه تلك السمكة لقومها بعدما أعيدها إلى الماء، وطبعًا سيصعب عليهم تصديقها!

- هل تقصد أنّنا البشر شأننا شأن السمك، نعيش في عالم محدود الأبعاد، ولا نُدرك ما يجري في أبعادٍ أخرى تتجاوز مجال بصرنا وفهمنا؟

- أحسنت! فكما يرانا إبليس وقبيله من حيث لا نراهم، نرى نحن السمك من حيث لا يروننا. لقد خلق المولى عزّ وجلّ الجنّ من مارجٍ من نارٍ. وكما يتجاوز واقعنا واقع السمك المحدود، ألا يكون من الصواب أن نتواضع قليلًا ونسلّم بوجود كائنات خارج نطاق إدراكنا المحدود؟

- لا أملك ردًّا أحاجّك به، ولستُ أنكر أنّ تفسيرك بدا لي مستساغًا، لكنّ تمحيصه يحتاج إلى فسحةٍ من الوقت وقدرةٍ على التركيز

وكلاهما غير متوفّر لي الآن. فلنعد إلى قصّتنا، لقد تعبت من الكتمان وأريد أن أطلعك على كلّ شيء...

بينما كنتُ غارقًا إذن في وحل أفكاري ارتجّ هاتفي فجأة فقفزت مذعورًا، قبل أن أستوعب الأمر وأعود وأنظر إلى شاشته. كان المتّصل هو سميّة، والمكالمة مرئيّة! إنّها تريد أن تراني وأراها. لعَنتُها في سرّي وضغطت زرّ التواصل فرأيت باب الحجرة المشؤومة على الشاشة، وحدستُ أنّ محدّثتي تتحرّك بحذرٍ كي لا ينتبه أهل البيت إلى ما نحن بصدده. وما هي إلّا لحظات حتّى سألتني: *«جاهز؟»* فأجبتها: *«توكّلي على الله»* وأصخت السمع إليها وهي تطرق الباب بهدوء وتقول: *«جدّتي، صاحية؟ سأدخل»*. ثمّ تهمس لي: *«سأكتم صوتك»*. ومع آخر حرفٍ نطَقَته فتحت الباب ودخَلَت. وأخذت الصورة تهتزّ، فلم أستطع تبيّن ملامح الجدّة في تلك اللحظة وسميّة تحضنها وتقبّلها، لكنّي سمعت صوتها الواهن وهي تقول: *«أين كنت؟ منذ زمن لم أرك!»* وعلى الفور أدركت حفيدتها أنّها نسيت هرعها إليها في صبيحة ذلك اليوم نفسه، فجلست بجانبها وسألتها برفق: *«جدّتي، أتذكرين أيّ شيء؟»* ولمّا أجابت الجدّة بالنفي وقد بدا عليها الحذر حاولت سميّة التسرية عنها بالقول: *«لِمَ لا تخرجين للقاء أبي وأمّي؟ سيسعدان جدًّا بذلك»*، وليتها ما فعلت، فقد هيّج ذلك المُقترح مخاوف العجوز المسكينة حتّى إنّها هتفت بهلعٍ بالغٍ: *«لا أستطيع، إذا اقتربت من الباب يختفي ويصير كلّ شيء ظلامًا»*. وبعد أن صمتت لحظات بدت فيها كمن خنقته العبرة استطردت: *«سميّة، ماذا يحصل لي؟ أنا خائفة. يا الله أين أنت...»* يا لتلك

الكلمات ما أقساها، فليس أشقّ على الإنسان من خسران ثقته بالله. وكي لا تُمعن المرأة البائسة في التجديف قاطعتها حفيدتها: «*لا تفقدي إيمانك، فذاك ما يريده الرجيم. سنفعل ما في وسعنا، أعدك*». وحالما ورد ذكر الشقيّ الأعظم انقلب كلّ شيء رأسًا على عقب فإذا حليمة تغرغر، وسميّة تشهق، والعدسة تتراجع! ثمّ سمعت سميّة تهمس لي: «*عرفة! عرفة! إنه هنا!*» فسألتها بتوجّس: «*من تقصدين؟*» وجاءني الردّ مُطابقًا لمخاوفي: «*الطارق! إنه هنا!*». وما شاهدته بعد ذلك كاد يُذهب عقلي، فبمجرّد أن رفعت مُحدّثتي عدسة الهاتف صوب وجه جدّتها علمت يقينًا أن كائنًا آخر حلّ محلّها، أو بالأحرى اختلط بها. نعم هذا هو الوصف الأدقّ، فالسحنة التي رأيت فيها شبه من سحنتها ولكنّها غدت متموّجةً! والجبهة اتّسعت واحدودبت، والعينان انتفختا وغشاهما خبث صريح، والفك امّسخ وأصبحت الأسنان داخله صفراء قذرةً متفرّقةً، وأطرافها كجذور شجرةٍ اقتُلعت من الأرض. أمّا أشدّ التغيّرات التي طرأت عليها شناعةً فهو تورّم عروق رقبتها وانتفاخها انتفاخًا غير طبيعيّ. وبعد انتفاضةٍ متشنّجةٍ وشخير خرج من حنجرتها كشخير الخروف المذبوح أطبق على الحجرة صمت ثقيل عجزنا عن كسره ونحن ننظر إلى الوجه الشيطانيّ القادم من الدرك الأسفل. وظلّ الأمر كذلك حتّى تجرّأت سميّة وهتفت بذاك الشيء الساكن جدّتها: «*ماذا تريد من جدّتي؟ ماذا تريد منّي؟!*».

لكنّ مسخ الجدّة استمرّ يحدّق في سقف الحجرة كالمشنوق ولم يُبدِ أيّ ردّ فعل، وهو ما استفزّ الشابّة الساخطة وأذكى

جرأتها فاقتربت منه وهزّت أكتافه بعنف. وعندئذ خطر لي سؤال فألقيته عليه من دون أن أشعر: «*من أنت؟ أخبرني باسمك! تكلّم يا لعين!*» (25) وبسبب سؤالي الأخرق ذاك صوّب المسخ عينيه إليّ عبر شاشة الهاتف التي أتاه منها صوتي. وفي جزء من الثانية رأيت عيني حليمة ووجهها المرعوب، ومن فمها المفتوح حدست صرخةً بلا صوتٍ يمزّقها الفزع واليأس. ثمّ اختفى كلّ ذلك في لمح البصر وعاد الوجه الماكر الأشِرّ، فتجمّدتُ من الصدمة ولم أُفق منها إلّا على صراخ الرجيم صرخةً شوّشت الشاشة وعطّلت الصوت، وتعالى معها صوتُ خبطٍ وطرقٍ كأنّ زلزالًا ضرب الحجرة. ثمّ تهاوى الجسد المُتحوّل فوق حاشية السرير، ساكنًا، ساكتًا.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- يا لتلك الذكرى! لقد تسرّعت سميّة وأغلقت كاميرا الهاتف فما غدت أرى شيئًا، ولم يمضِ على ذلك نصف دقيقة تقريبًا إلّا وهي تصرخ مرعوبةً لتُعلمني أن الطارق سيقتلها! ومع صراخها المدوّي سمعتُ صوت دكٍّ وطرقٍ شديدين على الباب كأنّ أحدًا ما يُريد كسره!

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

- المعذرة يا حضرة المحامي أنّي كنت حاضرًا وغائبًا في الآن ذاته، أعلم ما يجري وليس لي ما أقدّمه سوى النصيحة، وحين طلبت من

سميّة أن تتّصل بأبيها قالت إنّ الطارق حبسه وأمّها في مضجعهما ورجتني أن أنقذها، فاسترشدتُها العنوان وأسرعت إليها...

يا ربّ العالمين! لِمَ هذا الزعيق يا أبا حمزة؟ أرجوك امنحني بعض الدقائق. الله يوفّق لك حمزة ويجعله من الفائزين! بضع دقائق فقط. لا حول ولا قوّة إلّا بالله... حسن لا تصرخ. آسف يا حضرة المحامي، سأخبرك بما جرى في الجلسة المقبلة...

- أمهله يا أبا حمزة. تكلّم يا عرفة، وكفّ عن إخفاء علاقتك الخاصّة بالطارق! أعرف أنّك كنت تتحاشى الحديث عنه صراحةً! أرجوك. حدّثني عنه ولو بعجالة.

- لا أعلم من أين جئت بهذا! وأنت يا أبا حمزة ما بالك مُتسمّر تُصغي لما يقول؟! ألم تأت لإخراجي؟ قم بعملك إذن.

فاعل الخير
(المكالمة الثانية)

طوال الطريق الفاصلة بين سجن نوحٍ وبيتي غرقتُ في تمحيص ما قاله عرفة وتخمين ما أخفاه وقد تملّكني امتعاض غير مألوف من تأجُّل بوحه بالجزء الأخير من الأحداث. وفي نهاية المطاف الذهنيّ أنشأت تصوّرًا مؤقّتًا لما جرى وقرّرتُ أن أحتفظ به في نفسي. ثمّ هاتفت الأستاذ زين وأطلعته على فحوى حديث عرفة من دون أن أُشير إلى ما دار بيننا في آخر اللقاء، فبدا في صوته جزع بالغ وهو يسألني مُستنكرًا:

- هل ادّعى حقًّا أنّ الطارق هاجمها؟

- نعم.

- ولم يذكر أيّ مـــــ...معلومات أخرى؟

- لم يسعفنا الوقت...

- المجنون! الكذّاب! المفتري!

- أرجوك هدّئ من روعك.

- عليه من الله ممـــ...ما يستحقّ! لقد ضيّع مالي ووقتي ومستقبلي! عليه من الله ما يستحقّ!

- أرجو المعذرة، ما الذي وددت معرفته بالضبط! وما دخل مستقبلك؟

- لا شأن لك بهذا! لـلـ...لَقد انتهى عقدنا وما بيننا! توقّف عن زيارته. فـمـــ... ما عدث محتاجًا إليه.

- أرجوك استهدِ بالله! يجب أن ننقذه! إنّ عقله معطوب! اسمح لي بزيارة أخيرةٍ لعلّها تكشف لنا جزءًا خافيًا من الحقيقة!

- فليتعفّن الداعر في زنزانته! أأأأنا في غنى عنه. سأدفع لك ما تبقّى من أتعابك.

- أستاذ زين أرجوك....

وقبل أن أكمل جملتي أغلق محدّثي خطّ الاتّصال، فقرّرت أن أرسل إليه التسجيلات والوثائق عملًا بمقتضى الأمانة المهنيّة ثمّ أواصل السعي إلى الحقيقة من أجل تحقيق العدالة لا غير.

جريمة في العنبر

مكالمة من سجن نوح

بعد مضيّ بضعة أيّامٍ على اللقاء الأخير الذي جمعني بعرفة اتّصل بي أحد الموظّفين في إدارة سجن نوح وأعلمني بكلماتٍ مُقتضبةٍ أنّ مأمور السجن يطلب مقابلتي فسارعت إليه، ولم أنتظر طويلًا حتّى استقبلني في مكتبه. وبعد تبادل السلام بادرني قائلًا:

- بحسب الأوراق التي أمامي حضرتك كنت محامي المُتّهم عرفة، أليس كذلك؟

- بل ما أزال كذلك، هل جدّ جديد؟

- ثمّة أمر وقع و... أردت القول إنّ منوَّبَكَ الآن في ذمّة الله...

كان وقع الخبر عليّ شديدًا فشرد ذهني وتكلّم لساني من دون وعي:

- ماذا تقصد... أعني... كيف... بل ماذا حدث بالضبط؟

- نحن بصدد جمع شهادات المساجين وحين ينتهي التحقيق سنصدر تقريرًا نبيّن فيه ما جرى بالتفصيل.

- على الأقلّ أخبرني بما توصّلتم إليه حتّى الآن.

- يقول السجناء إنّه فقد صوابه بالتدريج، وانتهى به الأمر إلى الصراخ بلا سببٍ كأغلب المجانين، وخبطِ الجدران بكلّ قوّته، جلّ الوقت من الليل والنهار...

- ومتى بدأ ذلك؟

- بعد زيارتك الأخيرة. وبحسب المعلومات المتوفّرة لدينا أوّل ما لوحظ عليه أنّه أصبح يتحدّث إلى نفسه، أو إلى عفريتٍ لا يراه سواه، فيُسمع وهو يترجّى ويتوسّل، ولا أحد يُدرِك مغزى ما يقوله. ولقد أكّد الذين قدّموا شهاداتهم حتّى هذه اللحظة، ومنهم سجّانان، أنّ تلك المحادثات كانت تتخلّلها صرخات هستيريّة وعدوانيّة. وبطبيعة الحال لم يكن للإدارة من خيار سوى عزله في حبسٍ فرديّ. وهناك ازداد سلوكه سوءًا فطفق يصرخ بأعلى صوته ويخبط على القضبان خبطًا شديدًا مُزعجًا لم يستطع أحد إقناعه بالكفّ عنه، ما اضطرّ بعض السجناء إلى سدّ آذانهم ببطّانياتهم. أمّا الأغلبيّة فطالبوا السجّان إدريس بكبح جماحه لكنّه رفض الاقتراب منه تجنّبًا لأيّ طارئ لا تُحمد عُقباه، وحسنًا فعل. وفي الليلة الماضية عاد عرفة إلى صمته المطبق فجأةً، وكأنّه غاب عن الوعي. حتّى إذا أوشك الفجر على البزوغ، صحا الجميع على صريخ مُروّع، وشمّ أغلبهم رائحة لحمٍ يحترق، وشرعان ما أدركوا هُويّة المُستغيث. وما جعل إنقاذه مُستحيلًا أنّ الحادثة وقعت قبل بداية الدوام العاديّ، أي خلال

الفترة التي يقلّ فيها عدد السجانين لأنّها في الأصل مُخصّصةٌ للنوم، وهذا معمول به في كلّ دول العالم وليس من اجتهاداتنا.

- لا حول ولا قوّة إلا بالله، حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل. لكن كيف... كيف أشعل النار؟

- أغلب الظنّ أنّه هرّب أعواد كبريتٍ لإشعال سجائره، فالمشهور عنه أنّه كثير التدخين. ولْتعلَم أنّنا لطالما حاولنا منع السجناء من التدخين بإجراء تفتيشاتٍ مفاجِئةٍ... لكنّهم بارعون جدًّا في إخفاء السجائر، حتّى إنّ الواحد منهم لا يتورّع عن تخبئتها في دبره. المُهمّ الآن أن نفهم ما حدث. وكلّي ثقة بأنّنا عند انتهائنا من التحقيق سنُلمّ بالحقيقة كاملة. أقول هذا لأنّ السجين الوحيد الذي يُتيح له موقع حبسه الفرديّ رؤية حبس عرفة رجل أخرس ومازلنا لا نعلم هل الأسلم أن نطلب منه الإجابة كتابةً، وذلك أسرع وأنجع، أم نتّبع اللوائح ونجلب خبيرًا في لغة الإشارة يُترجم لنا إجاباته؟

- هل تقصد ذاك السجين المُكنّى بـ«الحاجب»؟

- أجل، هل تعرفه؟

- لقد حدّثني عنه عرفة مرّةً. لكن أخبرني ألم يصرخ عليه رحمة الله بكلامٍ ذي معنى وهو يحترق؟

- بحسب ما بلغني ردّد عبارتين، الأولى: «عليّ أن أرحل»، والثانية:

«حرّرني»، وربّما ذلك ما جعل السجّان إدريس يتأخّر في الهبوب إلى نجدته ظانًّا أنّه يطلب منه إطلاق سراحه كما كان يفعل في أغلب نوباته السابقة. وما أكثر السجناء الذين يفتعلون مثل تلك النوبات ويؤذون أنفسهم إيذاءً محدودًا على أمل أن يُنقَلوا إلى جناح العناية الصحيّة.

- لو سألتني رأيي منذ ظهرت عليه الاضطرابات المذكورة لأكّدت لك أنّها حقيقيّة، فقد كانت حاله النفسيّة في غاية السوء... المسكين عاش مُعذّبًا ومات محروقًا!

- ألم يحرق هو غيره؟ فلنقل إذن إنّه تجرّع من الكأس نفسها.

- هل أبلغت ذويه؟ إن لم تفعل بعد... أرجوك لا تكرّر جملتك الأخيرة وأنت تتحدّث إليهم.

- هذا هو السبب الثاني لطلبي لقاءك. لقد اتّصلت بأبيه مرّات عديدة لكنّه لم يُجب... وأنا في حاجة إلى شخص يوقّع أوراق الدفن وإخلاء مسؤوليّة السجن.

- آه فهمت... ولا أدري كيف أساعدك، فما تطلبه يتجاوز صلاحيّاتي.

- ليس قصدي أن تنوب عن والده في التوقيع، بل أن تنوب عنّا في التحدّث إليه.

- حتّى هذا لا أستطيع فعله والأفضل أن تُعاود الاتّصال به وإن لم يُجب أرسل إليه رسالةً هاتفيّةً مكتوبةً أو صوتيّةً...

وبعد أن تمكّنت من إقناعه بوجهة نظري تثبّتُ من صحّة الرقم الذي كان يتّصل به ثمّ ودّعته وغادرتُ وأنا في غاية الحزن على موت عرفة. وسرعان ما تنامى داخلي سؤال أثقل كاهلي وأضرم نيرانًا في أحشائي: «ألا يُمكن أن يكون نبشي ذاكرته ومحاصرتي إيّاه آخر مرّةٍ بالسؤال عن علاقته بالطارق من أهمّ الأسباب التي دفعته إلى الانتحار؟» وإزاء صعوبة تأكيد ذلك أو نفيه قرّ في روعي أنّ عليّ رفع الشين عن سمعته، وغدا السؤال الألحّ: من أين أبدأ؟

مدير ثلوثيّة الثقافة
(المكالمة الثانية)

- ألو، السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، مرحبًا أستاذ حمدي.

- كيف حالك يا حضرة المحامي؟

- الحمد لله.

- لقد سمعت أنّ عرفة مات في السجن، أصحيحٌ ذلك؟

- نعم، رحمه الله.

- رحمه الله وغفر له.

- أقدّر سؤالك عنه وترحمك عليه.

- لقد شاهدت برنامج «ساعة مع الأمين»، وسمعت ما دار من حديث عن التسجيلات المسرّبة فبحثت عنها واستمعت إلى بعضها، ومنها حوار عرفة مع نفسه... وفهمت أنّني أسأت الحكم عليه. لقد

كان في أمسّ الحاجة إلى المساعدة، وأنا بكلّ أنانيّة لم أفكّر إلّا في ثلوثيّتي اللعينة.

- عفا الله عمّا سلف يا أستاذ حمدي، قدّر الله وما شاء فعل.

- ونعم بالله... لكن ليس هذا سبب اتّصالي...

- أظنّك ستخبرني باسم الشخص الذي طلب رقم عرفة، أليس كذلك؟

- بلى... فما أدركته مُتأخّرًا أنّ عرفة لم يكن كاذبًا في ادّعاءاته بل مُتوهّمًا، والوهم قد يصنعه المرء لنفسه وقد يكون شركًا يحيكه له آخرون، وبعد تسرّب «سجلّات عرفة» لم يبق لديّ من شكّ في وجود يد خفيّةٍ لها علاقة بما جرى. وسرعان ما خطر لي أنّك الشخص الوحيد القادر على إجلاء ما خفي من الأمور فقرّرت مُهاتفتك ومنحك المعلومة التي أردت.

- أشكرك من أعماق قلبي يا أستاذ حمدي، وأهنّئك على حسن تخمينك. لكن دعني أنا أيضًا أخمّن. هل كان الشخص الذي طلب رقم عرفة أحد السائلين في ختام الجلسة المخصّصة لسينما الرعب؟

- أجل، كيف عرفت؟

- وهل اسمه زين؟

- نعم، هو بعينه!

- صدقًا، كلّ عبارات الشكر لن توفيك حقّك يا أستاذ حمدي.. اتّصالك جاء في الوقت المناسب ...

- العفو، ألا تريد رقمه؟

- كلّا، فهو موجود عندي، ومنذ وقت طويل... جازاك الله خيرًا.

- إذن أستودعك الله، وبالتوفيق في ما تسعى إليه.

- أجمعين، في أمان الله.

فاعل الخير
(المكالمة الثالثة)

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

- وعليكم السلام. خيرًا؟ ألم تتسلّم مستحقّاتك كـ...كـ....كاملةً

- لم أتّصل بك من أجل هذا يا زين...

- ما سبب اتّصالك إذن؟ وما بالك تُناديني باسمي مباشرةً؟

- لماذا أخفيت عنّي أمر اتّصالك بعرفة عَقِب استضافته في الثلوثيّة؟

- لا شأن لك بهذا.

- لقد وكّلتني وأوصيتني ببذل قصارى جهدي لإنقاذه، فلماذا سرّبت التسجيلات؟ لماذا تريد أن تظهر للناس أنّه مجنون؟

- لا أرى رر..رابطًا بين اتّصالي به وما تقوله الآن...

- أنا من يُقدّر ما إذا كان هناك رابط أم لا. قُل، لِمَ اتّصلت به؟

- الموضوع في غـغـ..غاية التعقيد.

- عرفة انتحر يا زين، أتدرك معنى ذلك؟ وأنا من دمّر نفسيّته بتقليب صفحات الماضي. وسأحمل هذا الذنب على عاتقي ما حييت. لذا أنت مدين لي بالحقيقة. تكلّم وبلا كذبٍ أو مراوغة.

- لا تصرخ... فـ...فـ...أنا لم أكذب عليك... أنا حقًّا لم أتّصل بعـ..عـ..رفة يومئذ، بل سميّة من فعلت ذلك.

- وما هي علاقتك بسميّة؟ ولماذا لبّت طلبك؟

- لقد كانت خـ..... خطيبتي، تعرّفتُ إليها بعد محاضرتها في الثلوثيّة... ثمّ تقـ...قـ...دمت لخطبتها. إنّها الشخص الوحيد الذي تفهّم ما عشته وقبِلني بلا تحفّظات...

- ومن أجلها وكّلتني! كنت تريد معرفة تفاصيل القصّة من عرفة حتى تبرّئ خطيبتك! وحين كدت تفقد الأمل، سرّبت التسجيلات، كي يستقرّ في النفوس أنّه مجنون وأنّ سميّة بريئة.

- صحيح. لكنّي كـ...كـ..كذلك أردت مسـ...ساعدته ...

- كفّ عن الكذب! لم تكن لديك أيّ نيّة لمساعدة عرفة. يكفي أنّك لم تُبد ولو مرّةً اهتمامًا بحالته الصحيّة. ومن أجل الحصول على ما

تريد دفعتني إلى استنزافه دفعًا. والآن عليك أن تُجيبني، لماذا طلبت من سميّة الاتّصال بعرفة؟

- هذا لا يعنيك.

- تكلّم يا زين! لماذا جعلتها تقتحم حياته وتقلبها رأسًا على عقب؟

- لأنّني أعرف عـــ...عـــرفة من قبل استضافته في الأمسية .. بل أعرفه منذ سنين...

- وبعد؟ قل ما لديك دفعةً واحدةً.

- عـــ...عـــ...عرفة هو أأخي الصغير.

- لكنّه لم يُحدّثني عنك قطّ، وكلّ كلامه كان يوحي بأنّه وحيد والديه!

- إنّه أصغر منّي بِنـــ...بِسبع سنواتٍ. ولم يرني مُنذ كان في الخامسة. وأنا عَـغـغـ...على يقين من أنّه طردني من ذاكرته.

- لِمَ استعملت هذه العبارة ولم تقل نسيَني؟ ألتجعله مُذنبًا؟

- لا شأن لك بهذا.

- أجب يا زين ولا تُتعبني!

- قلت لك هذا ليس مِمِن شأنك... مع السلامة. ولا تتـ... تتصل بي مرّةً أخرى وإلّا سأغلق الخطّ في وجهك.

الجزء الثاني
أوراق مهجورة
تقديم

بعد انقضاء أشهر على وفاة عرفة، اتّصل بي مأمور سجن نوح وطلب منّي الحضور لإنهاء بعض الإجراءات في مكتبه. فتوجّهت إلى هناك والتقيته لقاءً قصيرًا أخبرني خلاله بأنّ القضيّة أُغلقت وتمّ تسجيلها انتحارًا. ثمّ سلّمني ثلاثة مظاريف بنّيّةً متينةً، احتوى كلّ منها على مجموعةٍ من الأوراق، وجميعها تخصّ عرفة. فلمّا عاينتها تبيّن لي أنّها وُزّعت كالآتي:

1. رسائل الأمّ (وهي مجموعة رسائل أرسلتها أمّ عرفة إلى ابنها لكنّ تحجير إدارة سجن نوح التواصل بين السجناء وذويهم حال دون تسلّمه إيّاها).

2. رسائل عرفة (وقد حمّلها عرفة هواجسه وخواطره، وعلى غير المُتوقّع وجّهها كلّها إلى أبيه لكنّها لم تبلغه).

3. تدوينات الحاجب: (ويُمكن وصفها بأنّها مُقتطفات ممّا دوّنه السجين «معمّر محمّد» الذي أشار إليه عرفة من قبل في أحد حواراته معي -الزيارة الرابعة- الجمعة، 27 ربيع الأول 1442 هـ).

ملاحظة: تفتقر جميع هذه الوثائق إلى تواريخ مُحدّدةٍ تعينني على فهم سياقات كتابتها، لكنّها في مجملها تقدّم لنا معرفةً أفضل بحال عرفة من زوايا متعدّدةٍ. وجدير بالذكر أنّي لم أعرض من رسائل الأمّ وعددها عشر، سوى أربعٍ بدت لي الأهمّ. وإنّما فضّلتُ الانتقاء تجنّبًا للإطالة وحفظًا لبعض الخصوصيّات.

القسم الأوّل: رسائل الأمّ

الرسالة الأولى:

ابني وحبيبي عرفة، يا فلذة كبدي وبؤبؤ عيني...

كم أشتاق إليك، وكم أفتقد وجودك...

لقد تعذّرت عليّ زيارتك يا بنيّ، ولم أتلقّ منك اتّصالًا، فلم يبق لي من منفذٍ إليك سوى الكتابة، لعلّك تقرأ كلماتي وتفهم مقدار عاطفتي واشتياقي إليك.

ستسأل، كيف لأمّك شبه الأمّيّة أن تصوغ رسالةً وجدٍ بهذا الإتقان؟ وأنت مدركٌ، يا ابني الحبيب، أنّ قراءات أمّك لا تعدو القرآن الكريم ومعايير البهارات على أغلفة الأطعمة. وكم وددتُ لو أنّي كاتبة ما تطالعه عيناك، لكنّ الفضل في ذلك يعود إلى جارتنا المُعلّمة «أمّ راضي». فقد حدّثتها ذات صباحٍ عن اشتياقي إليك، وذكرت لها تحجير أبيك عليّ زيارتك في السجن، بسبب ما سمعه عن تحرّش الحرّاس بالزائرات واستخدامهم شتّى الطرق المُلتوية في ذلك، خائنين الأمانة التي أُوكلت إليهم بكلّ شهوانيّةٍ ودناءةٍ. وأنت تعلم ما وقر في قلب أبيك من إعراض عن مدّ يد العون لي في أيّ أمرٍ يخصّك، وأنا كما تعرفني قليلة الحيلة أمامه. والحمد لله أنّ أمّ راضي جزاها الله خيرًا اقترحت عليّ أن أقول ما في خاطري وتكتبه هي

بأسلوبها.

آه يا ابني كم أشتاق إليك... لقد حرموني نور عيني... أنا أعلم براءتك، برغم اعترافك بجرمك وبرغم سجنك وبرغم ما يُتداول من أمرك. إي نعم أنا أجهل دوافعك، لكنّني أحسبها من تدبير الله وتقديره، ألم يأخذ موسى عليه السلام روحًا؟ ألم يفعل الخضر عليه السلام الأمر نفسه؟ وفي الحالتين خَفِيَت المآلات والنتائج، لكنّها كانت مكتوبةً محسوبةً من ربّ العالمين. وإذا كنت مخطئة في تقديراتي فأستغفر الله وأتوب إليه، ولعلّك في البرزخ، يطهّرك الله ويهديك، ويكفّر عنك سيّئاتك التي ارتكبت. وكيف لي أن أشكّك في حسن طينتك، وأنت اللطيف الحنون... أنت ابني عرفة، البريء الهادئ المنعزل، لست قادرًا على ارتكاب جريمة، وما تعيشه الآن ابتلاءٌ من الله عزّ وجلّ ليختبر صبرك وصبري، فلنسأله أن يلهمنا إيّاه يا ابني الحبيب.

أرجو أن تتسلّم الرسالة في أقرب وقتٍ، وسأكتب إليك كلّ أسبوعٍ يا حبيبي، يا قرّة عيني.

مع السلامة يا حياة أمّك.

الرسالة الثانية:

ابني حبيبي،

ما صحوتَ صباحًا ولا نمتَ مساءً إلّا وأنا معك، وأنت معي، في قلبي ووجداني.

يصعب عليّ تخيّل حالك في السجن. أمستساغ طعامك؟ أنظيفة زنزانتك؟ أتستحمّ كلّ يوم؟ أتتناول أدويتك بانتظامٍ؟ لقد وجدتُ وأنا أنظّف غرفتَك علبةَ دواءٍ تخصّك. ولمّا أطلّعتُ عليها أمّ راضي قالت إنّ اسمه «ليثيوم»، وإنّه نوعٌ من المُهدّئات. لم أكن أعلم أنّك تستخدمه. وأمّا وقد علمت فإنّي حاولت إرساله إليك مع بعض الملابس والطعام، لكنّ الحرّاس عند البوّابة رفضوا استلام أيّ شيء من ذلك. وأمام كلّ هذا التضييق لم يبق لي ما أقدّمه إليك سوى الدعاء والرسائل.

أرجوك طمئن قلب أمّك إذا قرأت الرسالة، اعطف عليها برد تُطلِعها فيه على ظروفك وأحوالك.

إن شاء الله يُكتب لك فرج قريب يا حبيب أمّك.

في أمان الله.

الرسالة الثالثة:

ولدي الحبيب عرفة،

كم يؤلمني أن أزيد من همّك بهذه الرسالة يا بنيّ الحبيب، ولكن ما

باليد حيلة، ثمّة مصائب لا نستطيع إخفاءها، والدك في ذمّة الله. لقد أصابه الفيروس اللعين، فعزلته في حجرتك. وعبثًا حاول المسكين مداواتها بالرقية، رافضًا تناول الدواء. وبطبيعة الحال لم أقو على مجابهة عناده، وكلّ ما استطعت فعله هو المواظبة على إطعامه. لكنّ حاله استمرّت في التدهور، وفي أيّامه الأخيرة بكى مرارًا من اشتياقه إلى المسجد والجماعة. حتّى إنّي رجوت نساء الحارة أن يطلبن من أزواجهنّ زيارته والتهوين عليه، أو على الأقلّ الاتّصال به ليعرف قدره عندهم، لكنهنّ تجاهلنني.

حسبي الله ونعم الوكيل، هو دون سواه قادر على شفاء قلبي المحروق... لقد فقدتُ أباك، ولم يبق لي سواك. لماذا لم تكتب إليّ حتّى الآن؟ ألا تشتاق إلى أمّك؟ ألا تعلم أنّ غيابك يُمزّق نياط قلبها؟ لقد ابيضّت عيناي بكاءً وجزعًا، وكيف لا تبكي من كانت ذات يومٍ برفقة زوجٍ وولدين، ثمّ غدت وحيدةً بلا سندٍ.

لا تحرمني من رسائلك فرّج الله كربك، فما عاد لي في الدنيا غيرك.

مع السلامة يا حبيبي،

ملاحظة أمّ راضي:

أخي الفاضل عرفة،

أمّك لا علم لها بإضافتي هذه السطور، وحسبي الله شاهدًا على

أنّني كتبتها مُضطرّةً. ولولا اقتناعي التامّ بنقاء سريرتك ما كُنت فعلتُ ذلك. وأظنّك ستتساءل: «أنّى لها أن تُحيط بخبايا روحي ومعرفتها بي بسيطة؟» وإليك جوابي: بعض هذه الخبايا، وما هي بالقليلة، كشفتها لي والدتك مُنذ سنوات خلت يوم أطلعتني على مُفكّرتك وترجّتني أن أجيبها بصدق عن السؤال الذي ما فتئ يُقضّ مضجعها: «هل أنت مُلحد كما يدّعي أبوك؟» فكان ردّي وفقًا لفهمي وقناعتي وانتمائي إلى جيلك، ولست أكبرك إلّا بثلاث سنواتٍ أو أربعٍ على الأقصى، أنّ جلّ ما احتوته تلك المفكّرة من مقولاتٍ وقصائد ونصوصٍ ورسومٍ يُفاقم اللبس ويُحرّك الشبهات ولكن ليس فيه جهر بإلحادٍ أو كفرٍ صريحٍ ولا حتّى إيحاء قويّ بفساد العقيدة، بل إنّ أوضح ما يُستشفّ منه هو رهافة الحسّ وصدق البحث عن يقين حقيقيّ يشفي الروح القلقة الطالبة للسكينة. هذا في ما يخصّ معرفتي بك. أمّا تدخّلي في رسالة أمّك فمن أجل استجدائك الكتابة إليها. لقد عافت الأكل وقلّ نومها وأثّر السهر والقلق في صحّتها فضعف جسدها، واشتدّت آلامها. وما زاد الطينة بِلّة أنّها هي أيضًا أصابها الفيروس الفتّاك، فما عدتُ أستطيع مُجالستها، وتبعًا لذلك اضطررنا إلى التواصل هاتفيًا لكتابة هذه الرسالة. إنّها في أمسّ الحاجة إليك. وكي تفهم حجم مُعاناتها يكفي أن تتخيّلها وهي قابعة في بيتكم وحدها بلا أنيس ولا مُعين، وكلّ ما تنتظره أحد أمرين إمّا رسالة منك أو حتفها.

لا أفهم سبب عدم مراسلتك إيّاها، ويعلم الله كم حاولت التخفيف عليها باختلاق الأعذار لك. أرجو أن تكتب إليها فتزيح بعضًا من همّها

وتكسب ذلك في ميزان حسناتك.

واعذرني على التدخّل بينكما.

كل الودّ والاحترام

أنيسة «أمّ راضي».

الرسالة الرابعة والأخيرة:

الفاضل عرفة،

أنا أنيسة، وهذه الرسالة ستكون آخر ما يصلك منّي.

عظّم الله أجركم، فقد فاضت روح أمّك إلى بارئها. رحمها الله وغفر لها. شرعان ما لحقت بأبيك، والأرجح أنّ سبب الوفاة هو الفيروس المُتفشّي نفسه، لكن أمّي تقول إنّ القلب المكلوم يخذل صاحبه، وكانت قد رأت حال والدتك طوال فترة مرضها إذ دأبت زيارتها معي لمدّها بما تحتاج إليه من الطعام والدواء.

ستجد مع هذه الرسالة نسخة من تقرير قديم. أرجو أن تطّلع عليه، ففيه ما يخصّك، وبحسب وصيّة أمّك من حقّك معرفة فحواه، رغم ما كان من إصرار أبيك على الحيلولة دون ذلك. وهذا رقمي لعلّك تضطرّ إلى الاتّصال بي في يوم من الأيّام لسببٍ ما:

كل الودّ والاحترام

أنيسة.

تقرير إخلاء طرف

التاريخ: 5 أيلول 2015

مصحة جامعة أيوب الطبية

العيادة الأكاديمية الصحية

قسم الإرشاد والتوجيه النفسي

اسم المريض: طارق بن [redacted]

عمر المريض: 31 سنة

ملخص الحالة (1996 – 2015 م):

- رهاب اجتماعي
- عنف
- انحراف سلوكي
- إحساس دائم بالاضطهاد مع رغبة جامحة في الانتقام عبر

الهيمنة والسيطرة، وهو ما يُعدّ أحد الأعراض الأساسيّة للبارانويا.

العلاج:

1. ليثيوم (Lithium)

2. الفالبروات (Valproate)

3. كاربامازيبين (Carbamazepine)

==========

ملخّص الحالة

بسم الله الرحمن الرحيم

يسرّ إدارة قسم الإرشاد النفسيّ أن تُقدّم للدارسين مُلخّصًا لسيرة المريض طارق بن [redacted]،

ولا بدّ من القول أوّلًا إنّه قد تمّ تأهيله صحّيًا بفضل الله ومن بعده هيئة الرقية والعلاج النفسيّ التعاونيّة.

استمرّ تلقّي الأستاذ طارق العلاج في المصحّة ما يقارب عقدين

من الزمان (ومن المؤسف أنّنا لا نملك كلّ التقارير الموثّقة حالته بسبب حريقٍ أتلف حوالي ثلاثة أرباع الوثائق التي كانت موجودةً). وثمّة إجماع من مُعالجيه على أنّ حصص تأهيله في الأعوام الأولى كانت عسيرةً، فقد بدا مُراهقًا مُفرط الحركة مُشتّت التركيز حادّ الطباع. وتطلّب علاجه التحقيق في تاريخه النفسيّ ومحاولة تقويم سلوكه المضطرب. وبتكرّر تطرّق الأطبّاء إلى حالته، عرفناه في مراهقته وشبابه وبداية كهولته وها هو اليوم فرد مشفيّ معافى.

وبالعودة إلى الوراء أوّل ما يُلاحظ أنّ التاريخ النفسيّ للمريض طارق مُشبّع بالمرارةِ وطافِح بالصدمات وبالنكسات العاطفيّة، فقد كان والده صارم التربية قاسي الطبع عنيف السلوك، من ذاك النوع الذي لا يحلّ الإشكالات بالحوار والاحتكام إلى المنطق بل بالضرب والترويع. وهو ما سبّب للطفل طارق قصورًا في القدرة على التواصل. من أهمّ أعراضه الشعور الدائم بالخوف عند التحدّث إلى أيّ كان، والتأتأة في الكلام، (المُصنّفة من المُختصّين ضمن أشهر تجلّيات فقدان الثقة بالنفس من دون أيّ إشارة إلى ارتباطها باعوجاج اللسان كما يظنّ العامّة.) وما زاد الولد مُعاناةً أنّ عاهته تلك جعلته عرضة للسخرية والاستهزاء من أقرانه طوال فترة الطفولة.

وثمّة حادثة ذكرها طارق عدّها أغلب الأطبّاء الذين تابعوا حالته بداية تحوّله من الطفل الوديع العازف عن الشجار والعراك إلى الطفل العنيف المؤذي، وفحوى هذه الحادثة أنّه في يومٍ ما شكا إلى أبيه باكيًا سخرية أطفال الحارة منه فصفعه وأمره بالكفّ عن البكاء

والتذمّر، مؤكّدًا له أنّ السخرية ستستمرّ ما استمرّ ضعفه وخنوعه. وما فهمه طارق من ذلك الردّ أنّه تشجيع صريح على العنف، وإذا أضفنا إليه سلبيّة الأمّ وعزوفها عن مواجهة زوجها لحماية ابنها وإشعاره بالأمان، خوفًا مما سيترتّب عن تلك المواجهة، يغدو من الطبيعيّ أن يسلك الطفل المُشوّه نفسيًّا السبيل التي سلك، مُظهرًا من العدائيّة والقسوة والساديّة ما يصعب تصديق صدوره عن فتى لم يُكمل عامه السادس. حتّى إنّه لم يكتف بإيذاء مَن حوله من البشر، لا سيّما الأطفال، بركلٍ أو قرصٍ أو عضّ أو كلّ ذلك مُجتمعًا، بل عمد أيضًا إلى التنكيل بالحيوانات الأهليّة كالطيور والقطط والكلاب الضالّة.

ثمّ وُلد أخوه عرفة، فاستأثر باهتمام والديه على حسابه. وفي مثل تلك الحال من المفهوم أن يُطوّر البكر مشاعرَ أنانيّةٍ وحسدٍ تجاه سارق الحنان والاهتمام. لكنّنا لا نملك اعترافًا من طارق بأنّه عادى شقيقه وهو رضيع، فالتأكيد الوحيد لوقوع ذلك ورد على لسان والده يوم جاء به إلى المصحّة، ومن المُحتمل أنّ مشاعر العداء الصريح قد تجلّت في وقتٍ آخر لا يمكننا تحديده.

أمّا نقطة التحوّل الأهمّ في حياة طارق فهي ولا شكّ وقوعه تحت يدي مُؤدّبٍ ضالّ ذكّره في التقارير التي لدينا بكنية «سيبويه» ولم يُوضّح ما إذا كان هو من أطلقها عليه أم غيره، مُكتفيًا بالقول إنّها من تبعات حرص مؤدّبه الشديد على سلامة النطق وخلوّ اللغة من اللحن. وكان والده قد لاحظ بلوغه من القسوة والتمتّع بالإيذاء حدًّا

فاق كلّ التوقّعات، وهو في العاشرة من عمره لا غير، فأقرّ العزم على معالجة تأتأته والحدّ من عدائيّته في الآن ذاته بإيكال أمره إلى مُؤدّبٍ معروفٍ بالصرامة وسعة العلم، ينوب عنه في تلقينه القرآن والحديث ومآثر الصحابة والصالحين ويكفيه شرّ الحنق والغضب اللذين كانا يتملّكانه كلّما قام بذلك. وكي ينجح الرجل في مُهمّته سُمح له باعتماد أيّ أسلوب يراه مُناسبًا لردع الولد الشرس وتقويم سلوكه المُشين.

وبعد مرور ما يُناهز السنة على مباشرة المُؤدّب تدريس طارق بوتيرة ثلاث حصصٍ مسائيّةٍ كلّ أسبوعٍ أيقن الوالد أنّه حسنًا فعل باستقدامه لِما أظهره ابنه البكر من بوادر تحسّنٍ في الكلام وفي السلوك ولو بقدرٍ بسيطٍ. واستمرّ الأمر كذلك أشهرًا أخرى ثمّ غلب الطبع التطبّع، فعمد الولد ذات يومٍ إلى رسم كابحِ جماحِه على صورة «شرشبيل»، وهو شخصيّة شرّيرة مشهورة في سلسلة الصور المتحرّكة «السنافر»، ولم يكتف بالرسم المُشين بل أضاف إليه جملةً ساخرةً. ومن سوء حظّه أنّ الشيخ اكتشف الأمر فجنّ جنونه وضربه على مؤخّرته ضربًا مُبرحًا جعله يُجهش بالبكاء. وكي يزيد من قمعه أمره بالكفّ الفوريّ عن النحيب للشروع في الدرس، لكنّ الصبيّ لم يُذعن وأجاب ودموعه تنهمر غزيرة بأنّ الحرقة في مؤخّرته شديدة ولا يُمكن احتمالها. عندئذ لبس المُؤدّب الشاذّ قناع الشفقة وطلب منه أن ينزع ثيابه ليُريه مكان الألم، ثمّ استطرد وقد استشعر تردّده خالطًا الترغيب بالترهيب: «هيّا، أرني حقيقة ادّعائك وإن تبيّن أنّك تكذب سيكون العقاب أشدّ من كلّ ما خبرته». كان التهديد صريحًا

مُخيفًا، فاضطرّ الطفل صاغرًا إلى كشف جزءٍ صغيرٍ من مؤخّرته على مضضٍ، وما إن فعل حتّى مدّ الشيخ يده إليها ليُعرّيها كلّها، وطفق يُداعبها كأنّما ليُخفّف من ألمها... وفي غمرة ذهول ضحيّته وعدم فهمه لما يجري بالضبط كمّم فمه وركبه لحظاتٍ لهث خلالها بشدّة من النشوة الدنسة. ولم يفته بعدما أطلق زفرة انطفاء الجمرة أن يُحذّره من مغبّة إفشاء ما جرى مُؤكّدًا له أنّه سيتّهمه باختلاق الأباطيل للتملّص من الدرس والتخلّص من الشخص الوحيد الذي نجح في تأديبه، ومهما دافع عن نفسه لن يُصدّقه أحد وهو المعروف بغيّه وسوء سلوكه.

وظلّت الجريمة سرًّا كما أراد الشيخ الآثم، فتشجّع على المضيّ قدمًا وجَعْلِ فعله الشنيع أحد أنواع العقاب التي يستطيع اللجوء إليها عند الضرورة، زاعمًا للفتى أنّه إذا أراد تجنّب ما يكره فعليه الانضباط والطاعة وترك الحماقات. وبالرغم من بذل المسكين قُصارى جهده للالتزام والحدّ من طيشه لم يَعدم المُعتدي الحيلة لتضخيم أبسط هفواته وإظهار الغضب منه ثمّ مُفاحشته تحت ذريعة التهذيب والتأديب! وما تُخبرنا به الوثائق التي سَلمت من التلف أنّ ذلك التسلسل تكرّر مرّتين في شهرٍ واحدٍ، وأنّ المُواقعات كلّها بلا استثناء جرت في غرفةٍ كان طارق يُسمّيها «غرفة السرداب»، لأنّ أصلها قبو واسع، هُيّئ ذات صيفٍ وطُليت جدرانه وأُثث أثاثًا جيّدًا ليُصبح غُرفةً مثاليّةً للدراسة بما يتوفّر فيها من هدوء، فهي بعيدة عن جميع غرف البيت عدا حجرةً ضيّقةً تشترك وإيّاها في حائط به شبّاك صغير، وحتّى تلك الحجرة قلّما يدخلها أيّ من أفراد

العائلة، وقد خصّصت حصرًا لتخزين الأمتعة القديمة والأجهزة المعطوبة التي يُمكن أن يُحتاج إلى بعض قطعها السليمة يومًا ما(26).

في غرفة السرداب إذن، راكم المؤدّب الشبق جرائمه، ومن فرط انتشائه بها قام مرّةً (والأرجح أنّها المرّة الرابعة إذا سلّمنا بذكر طارقٍ للمواقعات كلّها) بنزع قناع الغضب المُصطنع الذي كان يُظهر فعله الشنيع بمظهر العقوبة وتحدّث إلى ضحيّته بكلام ترتّبت عنه عواقب وخيمة. ولفهم الأمر جيّدًا علينا أن نعود إلى زمن الحادثة أي ما بعد العصر بقليل في أحد أيّام العُطلة، والمكنّى «سيبويه» يُعرّي تلميذه ويقول له ساخرًا وهو يولج فيه: «أيّها الماكر اللئيم أظنّك صرت تتعمّد ارتكاب ما يُغضبني لأمتطيك فتستمتع هه هه هه...» ثمّ يستطرد بعدما سمع شهقةً مكتومةً: «أنت تُحبّ هذا أليس كذلك؟ ما بالك لا تُجيب؟ آه نسيت أنّ أغلب النساء يخجلن من إظهار رغبتهنّ حتّى وهنّ مُهتاجات هه هه هه... بمُؤخّرة كهذه حُقّ لك أن تتغنّج مثلهنّ...» وعلى غير المُتوقّع لم يتصدّ الفتى ولو بكلمةٍ لتلك الإهانات الأشدّ من وخز الإبر، بل أشار إلى الشبّاك الصغير في الجدار وقد أعجزته التأتأة عن الإفصاح، فالتفت راكبه إلى هناك من دون أن يفهم قصده، حتّى إذا لاحظ حركةً خفيفةً جدًّا لظلٍّ ما وراء الشباك قبل اختفائه أدرك الحقيقة الصادمة: ليس طارق من أطلق الشهقة المكتومة بل شخص آخر في الغرفة المجاورة رأى كلّ ما وقع بينهما.

وبالرغم من هول المُفاجأة لم يطل ذعر الشيخ الداعر وارتباكه، فقد

أنبأته كلمة «عـ..عـ..عرفة» التي نُطقت بعد لحظات من التأتأة بأنّ المُتلصّص هو الأخ الأصغر البالغ من العمر خمس سنوات فحسب، وأصبح منشوده العاجل أن ينجح في ترويعه لمنعه من الوشاية به. ومن أجل ذلك أجاب شقيقه بصوتٍ مُرتفعٍ: «لا تعبأ به، إذا لم يلزم الصمت سيُعاقبه أبوك عقابًا وخيمًا على ما في كلامه من فُحشٍ، وسوف نُكذّبه معًا، ثمّ سأُخبر أترابه في الكُتّاب بأمر بوله المُتكرّر على نفسه، وبعد ذلك سأجد الفرصة المُلائمة لأُذيقه ممّا يتحدّث به كما أذقتك أنت فيتأدّب».

وحالما خرج طارق من غرفة السرداب طفق يبحث عن أخيه في كلّ أرجاء البيت إلى أن وجده في ركن من السطح جاثيًا على ركبتيه يتقيّأ داخل سطل أزرق قديمٍ(27) ووجهه مُصفرّ. فوقف لحظات يتأمّله ثمّ انصرف وقد قرّ في روعه أنّ اصفرار وجه عرفة وعدم مسارعته إلى والديه لإخبارهما بما رأى يؤكّدان نجاح المُؤدّب في ترويعه وصرفه عن الوشاية.

ما جرى بعد ذلك مذكور في التقرير الطبّي العامّ لحالة طارق من مصدرٍ واحدٍ هو والده وهذا نصّه الكامل كما ورد على لسانه يوم جاء بابنه إلينا وهو لا يعلم بالضبط ما أصابه:

«في يوم مشؤومٍ من العطلة الأخيرة، كفى الله المؤمنين أمثاله من الأيّام، لم يحلّ المساء إلّا وولداي طريحا الفراش يهذيان من الحُمّى، وبسبب التزامن في المرض والتشابه في الأعراض رجّحنا أنا وأمّهما

ان يكونا قد تعرّضا إلى ضربة شمس وهما يلعبان أو أكلا طعامًا مُلوّثًا من دون درايتنا فلم تتحمّله أمعاؤهما وانجرّ عن ذلك ارتفاع في حرارة جسديهما. وتبعًا لتقديراتنا، عفا الله عنّا، اكتفينا بسقيهما الدواء ووضع الكمّادات الباردة على رأسيهما. واستمررنا على الحال نفسها يومين كاملين لم تظهر خلالهما ولو بادرة تحسّن واحدة على أيّ منهما. وفي اليوم الثالث انخفضت حرارة طارق انخفاضًا ملحوظًا، واستعاد وعيه وأقبل على الطعام بشهيّةٍ مفتوحةٍ، لكنّ علامات التشافي تلك اقترنت بتغيّرٍ صادمٍ في شخصيّته، وإذا ابني البِكْر ويا للعار يتحدّث بلسان أنثى! ولست أقصد رقّة الصوت أو طريقة الكلام، فلا شيء من ذلك تغيّر، بل أقصد فحوى حديثه وتمثّله لنفسه، كقوله لأمّه مثلًا إنّه حين يكبر سيتزوّج رجلًا فارع الطول، وإنّه سيجتهد في الدراسة ليُصبح طبيبةً... والأدهى والأمرّ أنّه ما عاد راضيًا بملابسه وأصبح يُطالب بثيابٍ نسائيّةٍ! وعبثًا حاولنا طوال النهار وبعضٍ من أطراف الليل إعادته إلى طبيعته، فلا الترغيب نفع ولا الترهيب ردع. ولم يبق لنا سوى تركه لينام ليلته تلك لعلّه حين يصحو صباحًا يعود إلى شخصيّته المعهودة. لكنّ شيئًا من ذلك لم يحدث، فباستثناء تغييب الحُمّى نهائيًا لم يحمل اليوم الموالي أيّ جديدٍ واستمرّ الولد يتحدّث بعقل فتاةٍ. ولمّا نفد صبري وضعت بين يديه المُصحف وطلبت منه ألّا يكفّ عن القراءة حتّى أعود، ثمّ انطلقتُ إلى المسجد. ولم أنس أن أغلق عليه باب حجرته لتتفرّغ أمّه إلى رعاية أخيه الصغير الغارق في عرقه وهذيانه من شدّة الحمّى المُستمرّة منذ أيّام بالوتيرة نفسها. وهناك في المسجد لم أجرؤ على استشارة أيٍّ من معارفي في موضوع «بِكْري» تجنّبًا

للقيل والقال واكتفيت بسؤال واحدٍ من الإخوة يعمل في سوق الأعشاب والحشائش عن وسائل لتخفيض الحمّى غير التي يعرفها الجميع، لعلّ إحداها تُفيد ابني الصغير. وبينما كان يُلقي على مسمعيّ وصفةً قال إنّها مُجرّبة أقبل نحوي مُؤدّب طارق مسلّمًا وانتظر حتّى أكمل الرجل كلامه ثمّ سألني عن حال الولَدَين (وكنت قد أعلمته بأمر الحمّى التي أصابتهما ليُرجئ تدريس طارق إلى موعد لاحقٍ) فانتحيت به جانبًا وأطلعته على ما استجدّ وأنا أكاد أذوب من الخجل. وما إن فرغتُ من الكلام حتّى قال بلهجةٍ جازمةٍ: «الأمر واضح جليّ، ابنك ملبوس، وما يردِ على لسانه ما هو إلّا كلام الجنّية التي تملّكته. فالجنّ كما البشر فيهم الإناث والذكور. وأحسبه، وأنت أدرى الناس بطيشه، أتى أمرًا أغضبها فلبسته عقابًا له على صنيعه». والحقّ أنّ تلك الكلمات ذكّرتني بيومٍ غير بعيدٍ حدّثتُ فيه طارقًا عن معاناة جدّتي من المسّ واضطرارها إلى إذابة الشمع في أذنيها لتعزلهما عن همس الجنّيّ ووسوسته، فردّ ساخرًا بما معناه أنّها فعلت ذلك لرداءة الأغاني التي كان الجنيّ يُغنّيها لها، ثمّ غرق في الضحك.

وبغضّ النظر عن التوافق الغريب بين تلك الذكرى وإشارة المُؤدّب لقيّت فكرة المسّ التي ذكر قبولًا في نفسي وأنا الرجل المؤمن بوجود الجنّ إيمانه بكتاب الله عزّ وجلّ، لكنّي لم أشأ إطلاعه على شيءٍ ممّا جال بخلدي واكتفيت بالقول: «لو أنّ الأمر كذلك فما من حلّ سوى الرقية ...» فأجابني باللهجة الجازمة نفسها: «وما أدراك ما الرقية، ترياق المؤمنين وإعجاز الله المُبين!» وكان آخر ما دار بيننا أن أوصيته بالامتناع عن محادثة أيّ شخصٍ في الموضوع ولو بنيّة

المساعدة وشكرته على اجتهاده في تدريس ابني وكذلك على لفته نظري إلى فرضيّة المسّ، ثمّ غادرت وكلّ همّي أن أجد راقيًا كفؤاً، فالرقاة كما الأطبّاء فيهم الخبراء وفيهم المُبتدئون، ويجب أن يكون الانتقاء من خارج دائرة معارفي وما أوسعها! لأنّ أسوأ ما يُمكن وقوعه لرجلٍ في مثل مقامي هو أن يُصبح وأسرته مُضغًا تلوكها الأفواه.

وشاءت الأقدار أن تزيدني عبئًا على عبءٍ فاشتدّ وهن ابني عرفة في ذلك الوقت بالذات مُنبئًا بأنّ استمرار الحمّى بدأ يُدمّر مناعة جسمه وهو ما حتّم عليّ نقله إلى المستشفى ليحظى بالرعاية الطبّيّة اللازمة. ولعلّ الله قدّر ذلك لألتقي هناك بمُمرّضٍ دمثٍ وأتجاذب وإيّاه أطراف الحديث عن الطبّ عمومًا ثمّ عن الطبّ النبويّ والحجامة والرقيِ فيذكر لي مصحّتكم بكل خيرٍ عادًّا إيّاها مثالًا يُحتذى في التوازن بجمعها بين الرقي والطبّ النفسيّ الحديث من دون إنكارٍ لنجاعة هذا أو ذاك في علاج الأنفس بشرط أن يُستعمل كلّ منهما حيث يجب استعماله، ولقد أكّد الأخ الكريم أنّ رقاتكم ذوو كفاءة عالية شأنهم شأن الأطبّاء. وها أنا بينكم لأستودعكم ابني العليل عسى الله أن يكتب له الشفاء على أيديكم».

عند هذا الحدّ ينتهي كلام والد طارق. ولا بدّ من القول إنّه حين جاء بابنه إلى المصحّة تعهّد بزيارته مرّةً في الشهر على الأقلّ، ثمّ رفعِ الوتيرة إذا ظهرت عليه بوادر تحسّن. وبالفعل عاد في الشهر الموالي كما وعد فحدّثه المُعالجون عن الصعوبات التي واجهوها

وهم يحاولون إلزام ابنه بقواعد العلاج بسبب نفوره الشديد من كلّ ما حوله وانعدام ثقته في أيّ كان فضلًا عن تعدّد العُقد المؤثّرة في سلوكه وتداخلها. مؤكّدين في الآن ذاته أنّ ذلك لن يُحبط عزمهم بل سيزيدهم إصرارًا على النجاح في إبرائه. ثم طرحوا بعض الأسئلة عن علاقة طارق بكلّ فردٍ من أفراد الأسرة كي يحيطوا بتمثّله لفكرة العائلة فذكر الأب في ما ذكر أنّ ابنه الصغير عرفة بعدما أفاق من غيبوبته التي سبّبتها الحمّى نسي وجود أخيه نسيانًا مُطلقًا وكأنّ الحمّى اللعينة فسخت أخاه من ذهنه دون غيره. وأضاف موضّحًا أنّه وزوجته أزمعا مُجاراته في ذلك وتحاشي ذكر طارقٍ إلّا إذا تماثل للشفاء مخافة أن ينعكس وضعه الراهن بالسلب على نفسيّة الولد الصغير إن عاينه أو حتّى علم به. وهو ما استهجنه الخبير النفسيّ القائم على حالة طارقٍ، لكنّ الأهمّ عنده كان ذلك الجزء الخاص بنسيان الشقيق الأصغر وجود أخيه برمّته، إذ رأى فيه اضطرابًا نفسيًّا من نوع آخر، وخمّن أنّ ما آل إليه كلّ من الأخوين مردّه إلى أمر بينهما يجهله الجميع. وقرّر التركيز في أثناء محاورته طارقًا على تلك النقطة.

وبعد بضعة أشهرٍ نجح الخبير المُحنّك في دفع الولد إلى رواية بعض ما جرى، وإن بتغيير شخص المُعتدَى عليه وادّعاء أنّه أحد أصدقائه، وفقًا للحيلة المعروفة في حالات البوح العسير. والمؤسف أنّ والده منذ علم الحقيقة الشنيعة قطع صلته به نهائيًّا وما عاد يأتي لزيارته مُكتفيًا بإرسال كلفة العلاج مع صهره بانتظامٍ. واستمرّ الحال كذلك سنواتٍ عديدةً حتّى بلغ طارق درجةً مرموقةً من التوازن

النفسيّ، وكان وقتئذٍ في مُستهلّ عقده الرابع، فمنحه أبوه مبلغًا يُعينه على بعث مشروع صغيرٍ وجهّز له سكنًا، وهكذا صار مؤهّلًا للعودة إلى الحياة العاديّة بحمد لله وفضله.

نتمنّى له كلّ التوفيق.

القسم الثاني: رسائل عرفة

الرسالة الأولى:

إلى أبي الغالي،

أعلم أنّ رسالتي هذه ضرب من العبث، فهي لن تصل إليك، ولست أدري لِمَ أكتبها وأنا موقن من أنّك لن تقرأها، ولا لماذا أرجف وأتعرّق وأنا أكتب؟ أجل، لماذا أكتب إليك ما لن تقرأه؟ لماذا رشوت السجان ليأتيني بالورق والحبر؟ ولماذا أسوّد الورق وأستنزف الحبر والمال؟ لعلّي أُريد أن أداوي خوفي منك وأقول لك ما جبنت عن قوله. ففي معزلي هذا الذي ينعدم فيه النوم والراحة والرفيق، ما فتئ كرهي إيّاك وحنقي عليك يتغلغلان في صدري وعروقي، وينهشانني ويؤرّقانني. ولا بدّ من التفريغ هنا.

لم أجد يومًا الشجاعة لمصارحتك بأفكاري. فأنا مجرّد شخصٍ ضعيفٍ، خجولٍ، متردّد، يُلعَنُ ظلّه ويُشكّك في ولائه. ومن شدّة ما أهابك، لطالما حاق بي الخوف ووأدت أفكاري قبل ميلادها على لساني. حتّى المرّات القليلة التي تجرّأت فيها وواجهتك، ندمتُ عليها أيّما ندمٍ لما انتابني بعدها من كوابيس وحشيّةٍ.

أنا هنا في مأمنٍ من حنقك وانتقاصك إيّاي وإعراضك عنّي، ومن أغلالك التي قيّدتني بها (ويا لها من لعبةٍ قاسيةٍ لعبها القدر إذ جعل

ملاذي منك خلف قضبان سجن نوح!). لقد قضّيت عمري في حالة تأهّبٍ لما سينالني من عقوباتك، وكلّها كانت أشنع بكثير من أخطائي، ولا حاجة إلى القول إنّك لم تُراع يومًا سنّي، حتّى صار سماعي اسمي على لسانك مدعاةً للتوجّس وتوقّع أسوأ الاحتمالات! ولكم كان يُقرفني اعتقادك الراسخ أنّ ذنبك الوحيد هو فشلك في هدايتي إلى الصراط المستقيم!

وما دمنا قد فتحنا باب الصراحة على مصراعيه فدعني أعترف لك هنا (وأنا أبصق على وجهك يا أبي!) أنّك سبب نفوري من صراطك المستقيم، فأنت ككلّ عقيمي التفكير تؤمن بأنّ للصراط المستقيم نسخةً واحدةً هي تلك الراسخة في عقلك المُتحجّر، والحال أنّ سبل الصلاح والنجاح متنوّعة، ولا يحدّها حدٌّ.

ولتعلم أيضًا، عليك اللعنة في محياك ومماتك أنّني بذلت كلّ جهدٍ لأتجنّب المشي في صراطك، كي أكون غيرك، لا نسخةً منك ضيّقٌ أفقها.

يا لخيبتك أيّها الغائب الحاضر! فبيديك صنعت ما تكره، وجعلتني نقيضك، ثمّ نبذت ما خلقته. ولم يمرّ بخلدك قطّ أنّ ما يعوزني هو قليل من التشجيع، قليل من الحنان، قليل من التقدير... وبدلاً من التفكير في ذلك ظللت تدّعي أنّني سبب شقائك في حياتك وأنّك بذلت ما في وسعك لإصلاحي بلا جدوى.

لماذا يا ذا القلب الصلد، لم أنل منك يومًا كلمة حنان أو لمسة تودّد

أو حتّى نظرة عطف؟ هل تمنيتني أن أكون مُتديّنًا صارمًا مُتجهّمًا مثلك وخيّبتُ ظنّك؟

لم ترحمني ولم تغفر لأمّي حادثة السرداب حتّى بعد أن صار هو نفسه غرفةً لائقةً. كلّ شيءٍ تغيّر إلى الأفضل إلّا أنت. لقد قصصت ريشي وقلّمت أظافر طفولتي وخصيت رجولتي. كيف طاب لك أن تضرب طفلًا لم يتجاوز الثالثة؟ ولماذا كنت تزجر أمّي كلّما حنت عليّ؟ ما أزال أذكر معاناتي الطويلة من كوابيس مُروّعةٍ كنت أراك فيها تجرّني من السرير إلى السرداب، وعندما أفيق في سريري مُبلّلًا بالعرق والبول، يُجنّ جنونك ولا تهدأ إلّا إذا نلت منّي.

هل يكفيك هذا لتفهم أنّك سبب دنسي؟

أنا أكرهك يا أبي، يا جلّادي، يا حضرة الإمام. وكم أودّ لو أستفيض أكثر، لكنّ الورق محدود، وفيما تنام أنت هانئًا، سيضطرم جمر صدري بكرهك حتّى يصير رمادًا.

الرسالة الثانية:

إلى أبي الغالي،

ها أنا أكتب مُجدّدًا مُحاولًا تجنّبَ ما طغى على رسالتي السابقة من إسهاب وإسفاف... وما كُنت وقتئذ لأكتب غير ذلك وأنا العالم بعزوفك عن زيارتي، وبأنّك ولا شك منعت أمّي الحبيبة من الزيارة،

لكنّي بعدما أفرغت حنقي تأمّلت مليًا في اختلافنا وخلافنا، وبدا لي أن لا أحد منّا يُضمر الشرّ للآخر، وأنّ الجفوة العميقة التي بيننا مردّها إلى تمسّك كلّ منّا بيقينه ومعتقداته. فأنت نشأت على أفكارٍ ومُسلّماتٍ مُعيّنة ولم تُمحّصها، وبمرور الأيّام والسنين والعقود ترسّخ إيمانك بما وقع في روعك من قبل حتّى أصبح في نظرك حقيقةً مطلقةً، بل حقيقةً كونيّةً، لا تُناقش ولا تُقرّظ. وأنا على قناعةٍ بأنّ ذلك ديدن ضعفاء الإرادة معميّي البصيرة، ولستُ أجد صفةً أخرى لمن يرفضون الاعتراف بما تسلّل إلى ضمائرهم وأرعبهم، ويُسقطون خشيتهم على غيرهم أيضًا، وكلّ طموحهم النأي بوعيهم عن أيّ إحراج وحفظ انسجامهم مع ذواتهم. لكن أيّ انسجام هذا؟ إنّه انسجام وهميّ، رخو، عقيم.

وثمّة تفسيرٌ ثانٍ لحالك، وهو أنّك أردت نجاحي حيث فشلت أنت... لكنّي لطالما سألت نفسي عن الأمر الذي فشلت فيه. أتُراه فشلٌ في الواجبات الأبويّة؟ أيعقل أنّك تكتم سرًّا أجهله؟ أم أنّك كنت تحسبني تذكرتك إلى الفردوس الأعلى؟

مهما يكن الأمر، فالثابت أنّ خلافنا أساسه موقفانا المتباينان من الاختلاف! فأنت تحسب قناعاتك الشخصيّة حقائق كونيّة، يجب أن تُعمّم على البشر أجمعين، كقانون الجاذبيّة، ومن يرى غير ما ترى تعدّه مارقًا مآله الدرك الأسفل من الجحيم. أما أنا فلي نظرة مُختلفة إلى الحقيقة أهمّ ما يُميّزها رفضي فرض مُعتقداتي على الآخرين، واكتفائي بأنّها جزء من هويّتي، ونتاجٌ لتجربتي الخاصّة.

مُسلّماتك يا أبي ليست كونيّةً مُثبتةً، بل هي أفكارك وانطباعاتك الشخصية التي وطّدتها بمرور السنين ورفضت مناقشتها ومُقارعتها بأضدادها.

هَلُمّ إليّ . . .

تعال إلى كلمةٍ سواء بيني وبينك...

لنكن يا أبي، كالشمس والقمر، كلّ يسبح في فلكه، ولا يخرج عن مساره السرمديّ.

ألن يكون العالم أجمل، إذا ما أدرك ذلك القانون الكونيّ؟

لقد نفد الورق، وإلى أن يُزوّدوني بورقٍ جديدٍ، ابقَ في أمان الله يا أبي الغالي.

الرسالة الثالثة:

قد شاب صغيرك يا أبتي..

ما عاد بريئًا يا أبتي..

ولكم هادن

ولكم نافق

ولكم داهن!

صدأ الأعوام يغلّفني..

وغبار الرحلة يُعميني..

أبخرة التبغ مع الحسرة

ترشح من صدري الفاني..

حقًا

قد واجهت الدنيا..

حقًا

قد حاربت الدنيا..

هزمتني...

لم أفهم هذا...

سحقتني الدنيا لكنّي

لم أعلن هذا يا أبتي!

قد شاخ صغيرك يا أبتي..

ما عاد صغيرًا يا أبتي...

قد غادر مهدك كي يعرفَ

لكني حقًّا لم أعرفْ

ابتعت فراء الحملانِ...

جرّبت مسوح الرهبانِ..

ولبست دروع الفرسانِ...

لكني

أقسم يا أبتي..

لم أخدع إلا مرآتي...

حتّى في ثوب الشيطانِ

لم أدرك معنًى لحياتي...

ولَعمري هذي مأساتي...

سيموت صغيرك يا أبتي..

أحلام شبابي أضنته...

وقروح الماضي أدمته...

أجتاز مدينة إحباطي

إكليل العار على رأسي!

إنّي أفنى

حقًّا أفنى

وبرغم تخاريفي أحيا

وبكلّ أكاذيبي أحيا..

وبغير طموحاتي أحيا..

والناس جميعًا إن كانوا

قد هُزموا في الدنيا مثلي.

إن كانوا قد كذبوا مثلي..

فبأيّة معجزة ننسى؟

وبأيّة معجزة نحيا؟

أجيالٌ قد هُزمت قبلي..

وسنُهزم أجيال بعدي..

فلماذا

عفوًا

يا أبتي

يكسوني العار أنا وحدي؟

كي أكمل هذي الآيةَ

لا يوجد عمر يكفيني...

أنواء الليل تحاصرني...

وتضيق

تضيق

عباراتي!(28)

الرسالة الرابعة:

أبي الغالي،

لا أفهم عزوفك عن الردّ... لقد أرسلت إليك أكثر من عشر رسائل، واعلَم أنّ هذا ليس بالهيّن، فحتّى يجلب لي السجان الورق والسجائر ودوائي، ثم يوصل الرسائل إليك عليّ أن أرشوه، وتدبّر المال ليس سهلاً، فلولا ما أتلقّاه من المحامي بين الحين والآخر لكنت مُعدمًا بأتمّ معنى الكلمة. لماذا لا تجيبني؟

ألا تحبّني؟ ألا تشفق على حالي؟

المحامي يحبّني! نعم! إنّها الحقيقة يا والدي! وأنا أبادله حبًّا بحبّ!

وكيف لا أُحبّ شخصًا يهتمّ بصحّتي وسلامتي ويسعى لخلاصي؟ أليس ذلك دورك أنت؟! لماذا تجبرني على السعي إلى دفء غيرك؟

لا تسئ فهمي، فحبّي له ليس جسديًا معاذ الله! بل هو عاطفة صافية جيّاشة... وأيّ غرابة في حبّ كهذا، وقد قضّيت أشهرًا في عزلتي المريرة، يجافيني الجميع وأجافيهم، وهذا يشملك أيضًا يا أبي! ثم أتى ذلك الملاك الحامي ليواسيني ويُغدق عليّ من عطفه؟

إنّه انسان خلوق يا أبي.... إنسان أبدى تُجاهي من الاهتمام والرقّة ما لم أجده في غيره، فصرت أشتاق إلى رؤيته، وأنتظر قدومه لينتشلني ممّا أنا فيه. لكأنّه ترياق الشفاء لروحي! لو التقيتَه لفهمتَني. أقول هذا وكلّي خشية من شطحك في التأويل. ولو كان منبع شعوري رذيلًا لما ذكرته لك، وأخالك أعلم الناس بعفّتي وإعراضي عن الفحش. وأنا كما عهدتني، ليس لي أيّ ميولٍ شاذّةٍ أو غير سويّة، كلّ ما في الأمر أنّي مُعجب بشخصٍ مُعيّن وأُحبّ رؤيته والتحدّث إليه، ولو أنّني تعرّفت إليه خارج السجن وقبل الجائحة لجمعتنا صداقة متينة بغضّ النظر عن فارق العمر بيننا. أرأيت يا أبي؟ حتّى مشاعري هذه وجب عليّ تفسيرها وتبريرها لأنّك لطالما نظرت إلى العلاقات المُغرقة في المحبّة بعين الريبة، وما أزال أذكر تلميحك إلى وجود أمرٍ خفيٍّ في علاقة جلال الدين الروميّ بشمس التبريزي، ولست أدري سبب سوء ظنّك الدائم بالرجال المُتحابّين.

لن أستطرد كثيرًا في هذا الموضوع، وإنّما وددت أن أبوح لك بدواخل نفسي وأُطلعك على فيض مشاعري التي لا أستطيع

الخوض فيها مع أيّ أحدٍ هنا، زد على ذلك أنّ الطارق سيقتلني لو عرف ما أقول، ولا قِبل لي بإغضابه.

مع السلامة يا أبي.

الرسالة الخامسة:

أبي العزيز

هذا السجن يضرم النار في عقلي، والجدران حولي تموج وتمور، حتّى إنّني أدوّن هذه الكلمات وقلبي يتحرق وعيناي تدمعان وكتفي يُمزّقها الألم، لكنّني إن شاء الله من الناجين يا أبي.

رحمتك يا الله، لطفك يا الله، عفوك يا الله، فأنا ضعيف ومغبون وكلّ رجائي الرحمة والعفو، يا ربّ السماوات والأرض أنت عالم بما أنا مقبل عليه، ولا ملجأ منك إلّا إليك أدعوك بأسمائك الحسنى أن تشملني برحمتك التي وسعت كلّ ما خلقتَ فلا تنفني من جنّتك كما نفيتني في أرضك.

روحي مزعزعة يا أبي، وقد ذبُلت رغبتي في هذه الدنيا، وعزّ الملجأ والملاذ.

أراني أطوف في صحن الحرم المكّيّ وحيدًا جزعًا أيّما جزعٍ، خطواتي ثقيلة كمن يغوص في وحلٍ، وصدري تُلهبه اللوعة فأصرخ

صراخًا مكتومًا وأسقط منكفئًا على وجهي عاجزًا مذمومًا مدحورًا وأغطي وجهي بكفّي وأبكي.

كلّ شيءٍ من حولي يتغيّر، الشمس تكسف، والهواء يبرد، والسماء تحمرّ، والصحن يضجّ وليس فيه غيري! ثمّ تتنقل أطرافي فجأة وأشعر بالحضرة، ويتعالى الطرق فأحاول الهروب ولساني يتعوّذ من الشيطان الرجيم لكنّ قدميّ تخذلانني فأزحف كالأفعى وعيناي مُعلّقتان بيمام أبيض يُحلّق بسلام فوق البيت المكين.

إنّه يوم الحساب

هَلُمّ إليّ يَا عَرَفَة، هَلُمّ فَأَجعَلك مِن الْمُختَارِين.

أنظر خلفي فإذا اليمام يتساقط مُتفحّمًا، ثم يتشقّق هيكله المحروق وتخرج منه عناكب وعقارب، فأجدّ في الزحف لأبتعد عنها.

هَلُمّ إليّ يَا عَرَفَة، هَلُمّ إلَى مَثوَاكَ فِي فِردَوسِي

أرفع رأسي إلى السماء فوق الكعبة فأرى رجالًا بأجنحةٍ يطوفون في الهواء حول البيت المعمور.

هَلُمّ إليّ يَا عَرَفَة، فَقَد حان الْمِيقَاتُ.

إنّه الطارق يدعوني لأحلّق وأطوف معهم، وها أنا أقترب منهم، لكن

ما أسخن أجسادهم

هَلُمّ إليّ يَا عَرَفَة، وَلا تجزع.

إنّهم يدعونني يا أبي للتطواف معهم فأنجو من عذاب الدنيا

إنّهم ملائكة يا أبي

إنّهم عماليق مجنّحون

ما أجملهم

ما أنصعهم

أريد أن أطوف معهم

أريد أن أتطهر فألحق بهم

إنهم يشتاقون إليّ

هَلُمّ يَا عَرَفَة، تَخَلّص مِنْ عبء بدنك والحقني إلى رِيَاضِ النّاجِينَ.

لِأَدُكّنّ اَلْأَرض دَكًّا، وَأُطَرّقَ اَلسّمَاءَ طُرُقًا، فَيَفْنَى مَا بَيْنَهُمَا إلّا مَن اضطَفِيتُ، حَلِيمَة رَفَضَتْ تِلْكَ المعيّة، لَكِنّكَ أُخيّر مِنْهَا وَأَتْقَى.

هَلُمّ يَا عَرَفَة، حَرِّر نَفسَكَ وَاتّبِع صِرَاطَ النّاجِينَ، تَعَال فَأُوتِيكَ نَعِيمًا وَسَلَامًا، لَقَد كَافَحت طويلًا، وما بذلته يكفي.

إنّني قادم أيّها الطارق ولكن يجب أن أودّع أبي أوّلًا

إنّني مقبل أيها الطارق ولكن يجب أن أتطهّر من جُرمي أوّلاً

إنّني لائذ بك أيها الطارق ولكن يجب أن أحرق بدني لأتحرّر.

انتظرني ولا تغادر.

هَلُمّ يَا عَرَفَة، هَاك شُعلَةَ الْخَلَاص، فَتَكُونُ عَلَيكَ بَرْدًا وَسَلَامًا كَمَا كَانَت عَلَى إِبرَاهِيم.

وداعًا يا والدي الغالي.

القسم الثالث: تدوينات الحاجب

ورد في ما سبق أنّ المُسمّى بـ«الحاجب» ما هو إلّا سجين من سجناء العنبر نفسه الذي يقبع فيه عرفة اكتسب لقبه من رغبته المرضيّة في تدوين كلّ ما يسمعه، بلا تفريق أو ترتيب، وكأنّ عقله مجرّد لاقط لا غير. أمّا اسمه الكامل فهو «معمّر محمّد». وما يُحسّن مُساهمته في الكشف عن حال عرفة فضلًا عن تدوينه المُستمرّ هو تجاور زنزانتيهما. وبالنظر إلى كلّ ذلك ارتأى مأمور السجن أن يُطلعني على جزء ممّا كان يُدوّنه لعلّني بمُطالعته أدرك ما خفي عنّي من أمور وأستجلي ما التبس منها.

وقبل استعراض النص لا بدّ من ذكر ملاحظتين، الأولى أنّي بعدما عاينت فوضى التوثيق وعدم التزام الحاجب قواعد الكتابة السليمة (ترتيب السطور، وعلامات التنصيص، وتشكيل الحروف)، قمت بترتيب ما دوّنه لعرضه مُرتبًا لا كما وصلني. والثانية أنّي اكتفيتُ بعرض الجمل والفقرات المُرتبطة بعرفة وحاله وما أدى إلى انتحاره، وتركت ما سواها -وهو كثير جدًّا- كالمحادثات بين السجناء، والأذان للصلاة، والشتائم، وأوامر الحراس، وغير ذلك... والصيغة النهائيّة لما أنجزته هي التالية:

«استيقظ، هيّا... لقد أضعت فرضك...».

«يا شيخ، أرجوك اتركني واعذرني، فقد وصلت اليوم. وأشعر بتعبٍ

شديد».

«عذرٌ أقبح من ذنب. حين آمرك، عليك الطاعة...».

«ومن تحسب نفسك؟ من عيّنك رقيبًا علي؟»

***

«لا أحد يسودكم في هذا العنبر سواي، كلّكم تحت أقدامي ..... يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ».

«من هذا؟ ولماذا أتيت به معك؟»

«كلّكم تأتون إلى هنا حاسبين الأمر نزهةً، وعليك أن تفهم كما فهم من سبقوك أنّي الآمر الناهي في هذا المكان، والآن سأكسر عينك وأخزيك، حتى لا ترفعها صوبي مرّةً أخرى. ولقد انتدبت لتأديبك واحدًا من أشرس زملائك... هه هه هه».

«ابتعد عنّي يا حقيرا لا تلمسني».

«لن يردّ عليك، ولن تعرف من هو أبدًا...».

«أنا آسف، سأقيم فرضي. سأصلّي الآن...».

«ما عاد هذا يُجدي... فات أوانه...».

«آي ... لا... لا ... أرجوك ... اتركني... آي...».

«لا تلمس وجهه، واطرحه أرضًا لأذلّه مذلّة لن ينساها... هههه».

«ماذا تُريد أن تفعل؟ أتُريد اغتصابي؟ اتركني! اتركني يا حقيرا ابتعد عني... أعلم أنّك تُريد ذلك منذ سنين... اتركني... اتركني».

«أخرِس هذا الخنيث، قبّحه الله. يبدو أنّه من فرط فزعه أصابته لوثة... وسأرجئ تقبيله حذائي إلى حين ارتكابه أيّ هفوةٍ أخرى».

***

«عرفة... ثمة من جاء لزيارتك».

«لزيارتي أنا؟ هل أنت واثق من هذا؟»

«أيوجد عرفة غيرك؟ تحرّك».

«ومن هذا الذي قرّر أن يزورني؟»

«إنّه المحامي الذي أوكل إليه الدفاع عنك... هيّا اجهز بسرعة، واعلم أنّك إذا أخبرته بما كان لن تكسب شيئًا، وستخسر علبة الدواء

التي تُريد...».

«علبة الدواء!»

«أجل، فمن المُفترض أن تكون بين يديّ مساء اليوم، ولقد نويتُ أن أمنحها لك هديّة رغم غلائها لتعلم أنّنا نُحسن معاملة من يلتزمون الطاعة. ولعلّك تغنم بعض المال من مُحاميك هذا فتسهل أمورك هنا...».

«حاضر يا شيخ إدريس».

***

«عرفة أتعلم ماذا تسمي فتاةٌ يهوديّةٌ مهبلها؟ أرض الميعاد... ههه».

***

«لك الحمد يا إلهي، يا من جعلني أجوب المتون القفار، وأخوض لجج البحار، وأخبر مطارح الفلاة. كلّفتني يا صانعي ببذل الجليل في سبيلك وسبيل عبادك الصالحين.

يا جاعلي ميمون الغرّة، حجّة الحقّ، وقِبلة السائلين...

وجدتني ضالًّا فهديتني، ومُرتابًا فمننت عليّ بالكشف العظيم...

مهّدت لي بواطن العلوم المعمورة والنوافل المستورة فتوهّج قلبي وعقلي بمدارك لم تُأتَ إلّا لصفوة الصفوة من عبادك منذ سليمان بن داود، عليهما أتمّ الصلاة والتسليم».

***

«لماذا أحرقتُ بيتها؟ لأنّها أحرقت قلبي... لقد خدعتني ونصبت لي فخًّا مُحكمًا استدرجتني إليه بطُعمٍ لا يخيب اسمه دغدغة المشاعر وإظهار الحاجة إلى المساعدة.... لقد استغلّت طيبتي وعزلتي لتبذر فيّ بذورها وتجعلني أغامر من أجلها ثمّ تبيّن أنّ كلّ ذلك خداع محض... كلّا أنا لم أحرق بيتها ولم أتسبّب في وفاة جدّتها... الطارق من فعل ذلك... هو من سخّرها لاستقدامي فلم ترفض طلبه، وهو بعد ذلك من أمرني بإحراق البيت فسمعت وأطعت... نعم أنا بريء والطارق هو السبب... عفوًا أيّها الطارق لن أكرّر قولي هذا... أرجوك اغفر لي زلّتي... فما عاد ذهني يحتمل طرقك ودمدمتك ... أرجوك...

***

«سأواصل مسيرة الكفاح وسأعيد على أسماعكم الحقيقة التي تتجاهلون، كما قيلت لكم من قبل ولأمّت أنا أيضًا: طبقًا للائحة السجون لكلّ سجين الحقّ في 12 وجبةً أسبوعيًا، لكنّكم لا تحصلون إلّا على فتاتٍ تشمئزّ منه الحيوانات، أنتم بهائم لا ترون أبعد من أنوفكم».

***

«عرفة... ماذا تفعل؟ أطفئ النار، ستحرق نفسك».

«ما الذي يحترق؟»

«إنّه عرفة، لقد أحرق جسده».

«يا شيخ إدريس.. يا شيخ إدريس.. تعال.. إنّ عرفة يحترق ..».

«أيّها الحراس... إنّ عرفة يموت... تعالوا بسرعةٍ...».

الجزء الثالث

خلف السرداب

«ترتيلة عرفة»

خاتمة جديدة

بقلم: د. إرنست دانيلوسكي

لمّا أنهيتُ البحث في «تسجيلات عرفة»، لم يخطر لي أنّ أصداءها ستكون بهذا الانتشار، فمنذ نشرها (قبل 10 أشهر)، استشهد بها المُختصّون والدارسون أكثر من ألف مرّة بحسب الإحصائيّات الأخيرة الصادرة عن المَجمَع العلميّ في تورنتو. وتمّ تداولها في محافل عديدة ومنصّات مختلفة من كلّ أرجاء العالم، وهو ما جلّلني بفخرٍ يندر أن يحظى به من يُمارسون مهنتنا هذه.

لكنّ كل ذلك تكدّر ذات صباح أحدٍ هاديٍ تلقّيت فيه عبر بريدي الإلكترونيّ رسالةً من محامي عرفة، استهلّها بالثناء على بحثي وتحليلي بأدبٍ واضحٍ مُطابقٍ لما بدا عليه في «التسجيلات»، ثمّ أشار إلى أنّه أرفق بخطابه ذاك مجموعةً من الرسائل المترجمة من اللغة العربيّة، بعضها لعرفة، وبعضها لأمّه، ومعها التقرير الطبّيّ الخاصّ بأخيه طارق الذي ذُكر سابقًا باسم زين، وتدوينات مُتفرّقة للسجين المعروف بـ «الحاجب». ولما اطّلعت عليها، أدركت أنّ ما

خلصتُ إليه في تحليلي جانب الصواب.

ما من شكٍّ في أنّي أصبتُ حين وضعتُ عرفة في خانة الشخصيّات النرجسيّة، وكذلك حين قلت إنّه يعاني من «حمّى المقصورة»، لكنّني أغفلتُ جانبًا مهمًّا في تشخيصي كان عليّ استنتاجه من «حوار الثلاثين ثانية»، وعذري أنّ التوصّل إلى استنتاج علميّ وجيه يحتاج إلى أكثر من معطى واحدٍ مهما بلغت قيمته. وها قد ظهرت وثائق أخرى عمّقت فهمي وقوّمت تأويلي.

وفي تقديري الآن أنّ ما شاهده في «غرفة السرداب» أصابه بصدمة نفسيّة ذات طابع هستيريّ رافقته طوال حياته. ومن الواضح أيضًا أنّ مساهمة أبيه في وأد ذكرى تلك الحادثة زاد الأمور سوءًا، إذ ظلّت مُخلّفاتها كامنةً دفينةً، ودفع عرفة ثمن ذلك غاليًا.

سأقدّم مثالًا بسيطًا لشرح ما أقصده، وأستعين في ذلك بالمقال الشهير للشاعر روبرت بلاي(29) «الحقيبة الخفيّة»: تخيّل أنّك في طفولتك ترتدي حقيبة خفيّة، وأقصد بها لا وعيك، وفيها تُخفي عفويّتك، وجراحك، وميولك المُخجلة، وشهواتك المشينة. وكلّ ما رفضه والداك والمجتمع ودينك تُراكمه أيضًا في تلك الحقيبة من دون أن تنتبه... ومع مرور الوقت تنسى ذلك الركام، وما لم يُخرَج إلى الضوء فإنّه سيتعفّن ويزنخ... ويمتزج عفنه وزنخه بكلّ ما يُلحق به هناك... وتلك المكنونات الفاسدة ليست خاملةً ولا في حالة سبات، بل هي لا تنفكّ تنمو مُنتظرةً بعدوانيّةٍ وشراسةٍ ساعة تحرّرها من

الحقيبة، ومُتحيّنةً الفرص لتحقيق ذلك. وفي أحيانٍ كثيرةٍ تنجح في شقّ الحقيبة وتتسرّب خارجها، وفي أحيانٍ أخرى تنفجر داخلها، فيغمُرُ وعيكَ كلّ ما حسبتَ أنّك نسيته أو تجاوزتَه... وإن لم تتحلّ بقوّة الشخصيّة والقدرة على مواءمة نفسك، فإنّه سيُعييك وينخر روحك فتنهار. والأرجح أنّك لن تعرف مصدر بلائك.

وفي حالة عرفة يبدو لي أنّ حقيبته انفجرت حينما كلّمته سميّة، أو على أقلّ تقديرٍ تشقّقت بشدّة عندئذٍ فهجم عليه عفنها وأربك عقله، من دون أن يعرف ما أصابه. وكي يحمي عقلُه روحه الهشّة الحسّاسة خلق سيناريو كاملًا وأعاد صياغة ماضيه وحاضره، وفقًا لإملاءات نرجسيّته الشديدة، ومن أوضح وجوهها ادّعاؤه أنّ مدير الثلوثيّة اتّصل به، والحقيقة عكس ذلك.(إذا سلّمنا بصدق رواية المدير).

وأحسبه إثر تلقّيه مكالمة سميّة، أصابه ارتباك شديد نجمت عنه محاولة لا واعية لطمس الواقع مُجدّدًا، بخلق سرديّة محورها أحد أطياف الشيزوفرانيا (الانفصام)، يُحرّفُ فيها ما جرى ويُدّعى أنّ اتّصال سُميّة لم يكن بشأن طارق، بل لإعانتها في أزمة جدّتها. وتعليلي لذلك أنّ شخصيّة عرفة النرجسيّة حين صُدمت برجوع أخيه من غياهب الذاكرة خلقت تلك الهلوسات، أو بعبارةٍ أخرى لا وعيه رفض الإقرار بعلّته، فحجبها بقصّة جدّة سميّة. ونحن نعلم الآن أنّها لم تتّصل به للأسباب المذكورة في «السجلّات» وأنّه استغلّ معرفته السابقة بها، وخلط ما سمعه منها يوم تحدّثت إلى

المُشاهدين بحكايات اختلقها لتمويه الحقيقة الصادمة. ولقد فعل ذلك بالاعتماد على ذكائه الحادّ ولكن من دون وعي تامٍّ بما أتاه. وبرغم استحالة تمييز الحقيقة من الوهم في «السجلّات» فنحن نعرف أنّ معاناة حليمة حقيقة، وكذلك خرفها وعنفها. أمّا الحوارات المُطوّلة التي ادّعى عرفة أنّها دارت بينه وسميّة فأشبه بمنعطفات اخترعها عقله الباطن لتأجيل مواجهة الحقيقة ما أمكن ذلك. فلمّا قال إنّ سميّة اتّصلت به ليُنجدها من عفريت الطارق الذي هاجمها، كان يقترب أكثر فأكثر من الحقيقة التي أعرض عنها وحاربها عقله الباطن بضراوة مُفضّلًا إنشاء وهمٍ رمزيٍّ على مواجهة ذكرى «غرفة السرداب»... ثمّ بلغ لحظة الذروة أو لنسمّها لحظة انكشاف الرمز وسطوع الحقيقة حين هاجم العجوز المسكينة ليطرد الطارق من داخلها. وهذا الأمر بالذات حتّم عليّ طرح مجموعةٍ من الأسئلة: لماذا جعل عقل عرفة حليمة بالذات محور وهمه وردّ فعله؟ ولماذا لم يُركّز على سميّة مثلًا والحال أنّ الجدّة لم تُسئ إليه بشيء؟

في تقديري أنّ كلّ ذلك من ألاعيب الشيزوفرانيا والانحراف النرجسيّ... فعقل عرفة الباطن ما يزال مُرتاعًا ولا شكّ من كيانٍ اسمه طارق حتّى إنّه أسقط اسمه على عفريت حليمة... لكن يبقى السؤال: لماذا توهّم خطرًا على سميّة ورغب في حمايتها؟ وكان أوّل ما خطر ببالي وأنا أقرأ حديثه عن اتّصالها به ليُنقذها من هجوم العفريت عليها أنّ لا وعيه أراد الانتقام من طارق بترويع سميّة بعدما أخبرته (على ما افترضت) بما بينهما. وهو أمر يبدو منطقيًّا، لكنّني شرعان ما انتبهت إلى هذه الحقيقة: عرفة، لم يؤذِ سميّة لا واقعيًّا

ولا حتّى رمزيًا، بل هاجم جدّتها فحسب لإيمانه بأنّ الطارق سكنها. وعلى ضوء ذلك يُرجّح المنطق أن تكون غايته هي حماية سميّة لا الانتقام.

قد تبدو الفكرة غريبةً، لكن لنتأمّل قليلًا في هذه الفرضيّة: تُخبر سميّة عرفة بأنّها خطيبة طارق، فتستثير في غياهب عقله صورة الشقيق الدنس الذي رضي أن يشهد مع المؤدّب ضدّه مثلما قِبل اللواط! وأصبح بذلك قرينًا للشيطان يجب أن تُحمى سميّة من شره. ثمّ يستغلّ عقل عرفة الباطن معرفته بقصّة حليمة من حديث حفيدتها في الثلوثيّة ليجعلها هي الضحيّة بدلًا منها. وأكاد أجزم أنّ محاولته الوهميّة لعلاج حليمة ما هي في الواقع إلّا محاولة لعلاج نفسه.

ولو صحّ تحليلي فمعنى ذلك أنّ العقل البشريّ ما يزال غامضًا محيّرًا.

لقد أراد عرفة حماية سميّة ممّا صوّره له عقله المريض مصدر أذى، وذلك يذكّرني بقصّة دون كيشوت الإسبانيّة، حين حاول بطل الرواية محاربة طواحين الهواء اعتقادًا منه أنّها تنّانِينٌ ذات أذرعٍ هائلةٍ، فكلاهما رأى ما لا يراه الآخرون، وكما توهّم دون كيشوت رؤية تنّانِين، توهّم عرفة أنّه يرى عفريتًا من الجن. ومن الواضح أن عزلته في الحجر الصحيّ الذي فرضته الجائحة آذته أيّما إيذاء. وبطبيعة الحال، كلّ ما قلته ليس قاطعًا بل هو التأويل الأقرب إلى المنطق بحسب رأيي وفق ما توفّر من معطيات مُتفرّقة.

كلمة الختام:

قد يكون عالمنا الذي شيّدناه منذ قرون انطلاقًا من تمثّلنا الخاص للطبيعيّ والشاذّ، والصحيح والخاطئ، في حاجة إلى هزّةٍ قويّةٍ، تُعيد ترتيب المفاهيم وتُزعزع مضامينها، لعلّنا بذلك نُتيح للحياة أن تتّسع لاختلافاتنا وتنوّعنا. فالأمراض النفسيّة ما تزال خارج المألوف، ولا يُنظر إليها كالأمراض الأخرى، إذ ظلّت مغلّفة بحُجب من الاعتقادات السقيمة والمفاهيم الخاطئة أو الملفّقة. وبالرغم من تطوّر العلم والجهد المبذول في الأبحاث وما نجم عنهما من تنامي المعرفة بهذه الأمراض وسبل علاجها والسيطرة عليها، بقي الجانب الاجتماعيّ شبه مُهمّش بالأخصّ في منطقة الشرق الأوسط وإفريقيا. ويكفي القول إنّ 90 % من المنتحرين في العالم كانوا يعانون من أمراض نفسيّة يُمكن علاجها أو على أقلّ تقديرٍ التخفيف من حدّتها لو تمّ تشخيصها لنُدرك مدى الجهل بهذا النوع من الأمراض! وكم يحزّ في نفسي أنّ إنقاذ حياة الملايين لم يكن يتطلّب سوى زيارةٍ إلى الطبيب النفسيّ، تلك الخطوة التي يتجنّبها أغلب الناس في المناطق المذكورة لأنّها مخجلة ومهينة. ولذا من واجبنا جميعًا نشر الوعي بقيمة العلاج النفسيّ وجدوى استشارة المُختصّين في علم النفس.

الحقيقة وفقًا لسمية

بعد تسرّب «سجلاّت عرفة»، ظللتُ مدّة أتابع باستياء نيل ألسن العامّة من موكّلي وهتكها عرضه وعرض أهله، وكذلك كلّ ما قيل بشأنه على صفحات الجرائد، وفي الشبكات الاجتماعيّة واللقاءات التلفازيّة، وجلّه ذمّ وتحقير، حتّى كان يوم تفاجأت فيه باتّصالٍ من سميّة هي ذي تفاصيله:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام والرحمة.

- حضرة المحامي؟

- نعم.

- أنا سميّة سلامة، خطيبة طارق الذي عرفتَه باسم «زين».

- سميّة! أهلًا وسهلًا! لم... لم...

- لم تتوقّع اتّصالي؟

- الحقّ أنّي أردت معرفة حالك، لكن تعذّر عليّ ذلك.

- مفهوم، لم يكن الوضع سهلًا.

- متى خرجت من الحبس؟

- منذ بضعة أيّام.. لقد ظنّوا أوّل الأمر أنّي مُتواطئة وعرفة بسبب بعض القرائن التي أوّلت خطأً، لكنّ تسرّب «السجلّات» أعانني في إثبات براءتي...

- مصائب قومٍ عند قومٍ فوائد...

- صحيح... أمّا المؤسف في الأمر فهو غياب الترحيب الذي أوِلته... لأنّ سجلّات عرفة أظهرتني بمظهر المراهقة الرعناء...

- أتفهّم انزعاجك من ذلك...

- أخال قلبك يضجّ بالأسئلة!

- تقتبسين من عرفة! أسمعتِ التسجيلات؟

- لقد أطلعني طارق على النسخ الأصليّة...

- ما رأيك فيما احتوته؟

- لا أعرف ماذا أقول... فالأمر يحتاج إلى حديثٍ مُطوّلٍ.

- لكِ كلّ الوقت... وأحسبك علمت من التسجيلات أنّ صبري لا حدّ له.

- لا أستطيع لوم عرفة، فهو مُختلٌّ، والمُختلُّ مرفوعٌ عنه القلم، لكنّي لم أكن على درايةٍ بمرضه. لقد غيّر الواقع وصاغ قصّة تتداخل فيها الحقائق والهلوسات... قضّيت ساعات في فصل بعضها عن بعضٍ.

- إذن حدّثيني أنت عمّا جرى من البداية... أي منذ اتّصالك به.

- أفضّل أن أبدأ من يوم تعرّفي إلى طارق واحتوائي إيّاه وقبولي الارتباط به حتّى بعدما علمت بأنّه قضّى أغلب سنوات حياته في المصحّة النفسيّة، وذلك عائد على ما أعتقد إلى سببين أساسيّين أوّلهما انبهاري بمسيرة شفائه وأنا التي عانيتُ الأمرّين بسبب مرض جدّتي، والثاني تقديري إصراره على المُضيّ في دربٍ جديدٍ. وحين أعلمني بالقطيعة التامّة بينه وبين ذويه خمّنت أنّ إصلاح علاقته بأبيه أمر في غاية الصعوبة بحسب ما ذكره لي عن شخصيّته الشبيهة جدًّا بشخصيّة أبي، ونصحته بأن يُركّز جهده في إحياء صلة القربى على أخيه لعدم وجود سببٍ للقطيعة بينهما من الأصل.

- عفوًا على المُقاطعة ولكن هل أخبرك زين، أقصد طارقا، بسبب وضعه في المصحّة النفسيّة وبقائه هناك سنواتٍ عديدةً؟

- قال إنّه كان مُضطربًا جدًا وعنيفًا بسبب قسوة أبيه عليه، وإنّ معاناته من التأتأة زادت حاله سوءًا.

- حسن، تفضّلي واصلي وأعتذر مُجدّدًا على المُقاطعة.

- يوم شاهدتُ عرفة وهو يتحدّث عن أفلام الرعب اقترحتُ على طارق أن يكون من ضمن المُتدخّلين، فيسهل عليه بعد ذلك طلب رقمه من الأستاذ حمدي. ولقد عمل باقتراحي وتحصّل على رقم أخيه لكنّه لم يجد ما يلزم من الجُرأة للاتّصال به.

- فتطوّعت لتكوني وسيطًا بينهما.

- صحيح. اتّصلت بعرفة وقدّمتُ إليه نفسي، ثمّ أخبرته بأن شخصًا اسمه طارق يعرفه منذ زمنٍ بعيدٍ يريد مُقابلته. ولمّا بدا لي أنّه لم يعرف عمّن أتحدّث أوضحت له الأمر، فغمغم كلمةً لم أفهمها، وظلّ بعدها صامتًا حتّى انقطع الخطّ.

- ألم يُعاود الاتّصال بك؟

- لا، لقد انقطع التواصل بيننا حتّى فوجئت به في غرفة جدّتي حليمة رحمها الله.

- لن أسألك كيف عرف عنوانك يا آنسة سميّة، فأنا واثق من أنّك

جهّزت إجابةً مُقنعةً، لكنّي سأقول لك بصراحةٍ إنّ ما تدّعينه ليس صحيحًا.

- عفوًا لِمَ هذا الكلام؟

- لأنّي أعلم ما هي القرائن التي جعلت رجال الشرطة يحسبونك شريكة عرفة في الجريمة ويُبقونك قيد الإيقاف للتثبّت من ذلك. هذه القرائن هي المُكالمات والرسائل الهاتفيّة العديدة بينكما أليس كذلك؟

- كيف عرفت؟

- هذا جزء من عملي. والآن أرجو أن تُخبريني بالحقيقة من دون تحريف ولنُرجئ الحديث عن أسباب ادّعائك ما ادّعيت إلى ما بعد. تفضّلي.

بعد تلك الكلمات التي نطقتها بنبرة اختلط فيها الحزم بالتشجيع على قول الحقيقة ظلّت سميّة صامتةً لحظاتٍ ثمّ حسمت أمرها وقالت مُذعنةً:

- يوم اتّصلت بعرفة كان في ظنّي أنّه شاهدَ الحلقة التي تحدّثتُ فيها عن حالة جدّتي لكن شرعان ما استشففت عدم اطّلاعه عليها وحدستُ في الآن نفسه من طريقة كلامه أنّه شخص انطوائيّ يصعب إقناعه بأيّ موعد من دون إثارة اهتمامه. ولمّا كنتُ قد عاينت

ولعه بقصص الرعب قرّرتُ أن أحدّثه عن حالة جدّتي، مع بعض الإضافات الجذّابة، وأطلبَ منه مساعدتي على مواجهة الأمر.

- حدّثيني أكثر عن هذه الإضافات.

- أغلبها أشبه بالمؤثّرات السينمائيّة التي تُعمّق الحالة المعروضة وتزيدها غرابةً، كادّعائي مثلًا أنّ جدّتي ذوّبت الشمع وصبّته في أذنيها للتخلّص من أصوات الطرق والدك، والحقيقة أنّي اقتبستُ ذلك من حديث طارق عن أمرٍ مُشابهٍ حصل لجدّة والده.

- وأيضًا حاولتِ استثارة لا وعيَ عرفة باختراع حكاية الطارق ليتكرّر ذكره فيوقظ صدى الاسم في نفس موكّلي ذكرى أخيه.

- كلّا، تخمينك في هذه المرّة جانب الصواب يا حضرة المُحامي، فشكوى جدّتي من الطرق والطارق أمرٌ حصل فعلًا، وذكرته في الحلقة التي استضافني فيها الأستاذ حمدي ويُمكنك التثبّت من ذلك لو شئت.

- أصدّقك ولكنّي أستغرب هذه المُصادفة التي جمعت بين طارقٍ والطارق!

- أفهم استغرابك، فأنا أيضًا لا أميل إلى فرضيّة المُصادفة، والأرجح عندي أنّ تكرّر نقاشاتنا أنا وأبي منذ تقدّم طارق لخطبتي، بسبب اعتراضه عليه وتمسّكي به، جعل اسمه في ذهن جدّتي

الخرف قرينًا للصخب والتوتّر والانزعاج، ولم يلبث خيالها المختلط بوعيها اختلاطًا مرضيًا أن صوّره لها عفريتًا حلّ ببيتنا ليشودَ كلّ من فيه. أمّا أسباب رفض أبي ارتباطي بطارقٍ فكثيرة، وأحسبها لا تخفى عليك، بدءًا بتأتأته وصولًا إلى فارق السنّ بيني وبينه وغياب عائلته... ولستُ أدري ما الذي كان سيحصل لو علم والدي أنّ من تقدّم لخطبة ابنته قضّى أغلب سنين عمره في مصحّة الأمراض النفسيّة!

- إممم، ثمّة أمور من الصعب تجاهلها حتّى من أكثر الناس تسامحًا ورجاحة عقلٍ... ولكن لنعد إلى موضوعنا، فما تفضّلت به ردًّا على سؤالي منطقيّ ومُقنع، وهذا يُشجّعني على طرح ما تبقّى في جعبتي من أسئلةٍ تُثقل ذهني وأرجو ألّا آخذ من وقتك الكثير.

- لا عليك، تفضّل اسأل وسأجيبك بكلّ صراحة.

- ما الحقيقيّ وما المُختلق في قصّة عبد الجبّار الميمون وابنه علّامة؟

- الميمون راقٍ معروف جاء به أبي ليشفي جدّتي فزادها مرضًا على مرضٍ بما أظهره من شدّةٍ أفزعتها وهيّجت مشاعر العداء داخلها، ولقد ذكرتُ الحادثة كلّها يوم استُضفتُ في «العلوثيّة» لكنّي فيما بعد استغللتُ جهل عرفة بما قُلت وحدّثته عن الرجل مُدّعيةً الخوف على الجدّة ممّا قد يفعله بها إذا استقدمه والدي يومًا ما ليرقيها. وإنّما أوهمته بذلك لأُقرّبه منّي تمهيدًا لجمعه بأخيه. أمّا

ما ذكره هو عن الطريقة التي توصل بها إلى عبد الجبّار فلا أعلم أحقيقة هي أم خيال، وأغلب الظنّ أنّه حين بحث عنه في الإنترنت علم بكنيته ونسج حولها تلك القصّة التي وردت في السجلّات وكان بطلاها الراقي وابنه الموجود في الواقع بذاك الاسم ولا شكّ.

- وماذا عن جهاز قراءة الأصوات وفيديو مهاجمة جدّتك لوالدك؟

- كلاهما من اختلاق عرفة وأُقسم على ذلك.

- حسن، بقي لي سؤال أخير.

- تفضّل.

- ما الذي جرى يوم الحريق؟

- صدّقني يا حضرة المحامي ما زلت حتّى الآن غير محيطة بكلّ التفاصيل، ولذا سأذكر الجزء الذي أعرفه يقينًا وأترك لك أن تُخمّن ما يقتضي التخمين.

- أُقدّر صراحتك.

- في صبيحة ذلك اليوم اتّصلت بعرفة وطلبت منه أن ينتظرني مساءً على مشارف بيتنا فأخرُجَ إليه وأسلّمَه شيئًا مُهمًّا وأعود بسرعة البرق لئلّا يكتشف أبي غيابي. ولمّا أصرّ على معرفة كنه ما

سيتسلّمه زعمتْ أنّه خصلة من شعر جدّتي أريد منه أخذها إلى مخبرٍ بعينِه ليُحلّلها أفضل الخبراء، لعلّ التحليل البيولوجيّ يكشف لنا ما أغفله التخمين، فأعجبته الفكرة ووافق عليها بلا تحفّظٍ. وبعد أن أمليتْ عليه العنوانَ وحدّدتْ له وقت اللقاء ودّعته شاكرةً فضله. ولا شكّ لديّ في أنّ ذلك زاده فخرًا وزهوًا بما يُقدّمه لي من مساعدةٍ. وكان المُزمع في حقيقة الأمر أن يمضي أخوه للقائه لا أنا، لكنّه تخلّف عن الذهاب لسبب أجهله. وعبثًا حاولت الاتّصال به في تلك الفترة التي قضاها عرفة منتظرًا، فقد ظلّ صوت المُجيب الآليّ يُكرّر على مسامعي أنّ هاتفه مُغلق. وبطبيعة الحال اضطررت إلى الاتّصال بعرفة أيضًا أكثر من ثلاث مرّات لاستمهاله مُبرّرةً تأخّري في كلّ مرّةٍ بما أمكن لي اختلاقه من أسبابٍ قاهرةٍ. وبمرور الوقت ما عُدتُ أستطيع الاستمرار في التمويه والخداع وقد يئستُ من التزام طارق بما اتفقنا عليه فهاتفتُ عرفة وأخبرته بالحقيقة كلّها. وكم أدهشني ردّ فعله! فطوال استغراقي في السرد والتبرير والاعتذار لم أسمع منه كلمةً واحدةً حتّى إنّي حالما انتهيتُ ناديته باسمه للتثبّت من عدم انقطاع الاتّصال وإذا هو يهتف فُجأةً كمن أفاق مذعورًا من كابوس مُريعٍ: «إنّه الشيطان، كُنتُ أعلم أنّه هو... لقد استحوذ على أخي والآن يستحوذ على جدّتك ولن يلبث أن يستحوذ عليك. ولكنّي لن أسمح له بذلك ... لن أسمح له...» ثمّ أُغلق الخطّ، ولم يمضِ نصف ساعة على ذلك إلّا وصياح جدّتي يتعالى والدخان القادم من غرفتها يُعلن نشوب النار فيها... و..... لستُ أدري كيف تسنّى لعرفة أن يصل إليها...

- آسف لأنّي أيقظت فيك تلك الذكرى الأليمة ...

- لا عليك، هي الآن في عالم الحقّ ونحن في عالم الباطل، رحمها الله وغفر لها وجعل مأواها الجنّة.

- لقد استوقفني قولك إنّك تجهلين سبب تخلّف طارقٍ عن الموعد، فلماذا لم تسأليه عن ذلك؟

- لو لم تتفضّل بطرح الموضوع لتطرّقت إليه من تلقاء نفسي، فمنذ أُطلق سراحي وأنا بين أخذٍ وردٍّ في كلّ ما يتعلّق بطارق، وأوّل أسباب ذلك ولا شك هو عدُه من قبل أهلي المسؤول الحقيقيّ عن هلاك جدّتي وهذا ليس بالأمر الهيّن.

- وماذا عن الأسباب الأخرى؟

- أهمّها في تقديري هو انعكاس ماضيه على حاضرنا المُشترك، فبحسب ما جرى أكاد أجزم أنّ انقطاع علاقته بأخيه لم ينجم عن إقامته طويلًا في مصحّة الأمراض النفسيّة بل عن أحداث ووقائع أجهلها. وأنا لا أريد نبش الماضي وتقليب صفحاته لاعتقادي الراسخ أنّ ذلك يضرّ أكثر ممّا ينفع، لكن من الصعب عليّ المضيّ قُدُمًا مع شخص يغشاه الغموض واللبس.

- معك حقّ، أهنّئك على تجنّبك الخوض في الماضي، فبالرغم من أنّني أكبرك بسنواتٍ عديدةٍ لم أهتدِ إلى هذه الحكمة إلّا منذ وقتٍ

قصير. أتمنّى لك التوفيق.

- شكرًا يا حضرة المحامي، لولا تحدّثي إليك لما تخفّفتُ من شعوري بالذنب. إلى اللقاء.

- في أمان الله.

عقب انتهاء المُكالمة لبحث أُفكّر في مغبّة نبش الماضي وما انتهيتُ إليه جرّاء ذلك. فقبل أيّامٍ، بينما كنت بصدد قراءةِ مُلخّص حالة طارق وبالتحديد ما يخصّ علاقته بالمدعو «سيبويه» تذكّرت قوله لي إنّ ما جعله يختارني للدفاع عن أخيه هو فصاحة لغتي. ولقد أشعرتني تلك الذكرى بقلقٍ مُبهمٍ وكأنّ لا وعيي يُريد أن يُخبرني بأمرٍ ما، ولعلّ مبعث ذلك القلق هو نبرة طارقٍ شبه الساخرة التي اقترنت بقوله واستحضرتها باستحضاره. وبالرغم من كلّ الجهد الذي بذلته لطرد الخاطر المُزعج ظلّ يُعاود القفز إلى ذهني كلّما عاودتُ قراءة الملخّص لتمحيصه، فلم أجد بدًّا من تقصّي كلّ ما يتعلّق بطفولة الفتى المُتأتئ وهويّة مؤدّبه. ولتحقيق مُبتغاي اتّصلتُ بالسيّدة «أمّ راضي» على الرقم المُدوّن في رسالتها إلى عرفة وطرحت عليها أسئلتي، وكانت الحقيقة المُخزية التي اكتشفتُ، وبيّنَت لي مأرب طارق من توكيلي وسرّ نبرته الساخرة، أنّ المكنّى سيبويه ما هو إلّا أخي الأكبر الذي تُوفّي مُنذ عامين.

(1) جاء في معجم اللغة العربيّة المعاصرة جذر «جِنّة»:

- جِنّة (الشياطين): ما خفي شخصه عن البشر، كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: 119]

- جِنّةٌ (الجنون): ما خفي علته عن البشر، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: 70]

(2) ملاحظة المُحرّر: يشير المحامي إلى حادثة تسرّب «سجلّات عرفة» التي أشرت إليها في مقدّمتي وقد اتّفقت وإيّاه على تطعيم النص بالمناسب منها.

(3) ملاحظة المُحرر: بناء على الأبحاث، تبيّن لي أنّ قائل العبارة الأصليّ ليس الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، بل هو العلّامة والأديب عباس محمود العقاد، ويبدو أنّ من اقتبس كلمات الأديب عمد إلى تغيير كلمة «البديهيّ» إلى «الربّانيّ» لأسباب نجهلها لكن في إمكاننا تصوّرها.

(4) ملاحظة المُحرر: أصدر مجمع السدنة أوائل عام 1443هـ برقيةً بعنوان «الهافي في أدب المنافي» على هامش المؤتمر اللغوي السنوي، وتم فيه نقاش أدب ما خلف القضبان (قصائد وقصص قصيرة، ومسرحيّات وسير ذاتيّة)، وتم تناول «سجلّات عرفة» فناقش نخبة من الباحثين اللغويين ميل عرفة لاستخدام بعض المصطلحات الوحشيّة وغير السائدة، ورجّحوا أنّها انعكاس لتكوينه الأصوليّ ورغبته في التميّز من سائر المساجين.

(5) ملاحظة المُحرر: أغلبُ الظنّ أنّ عرفة يستشهد بنصّ جبران الشهير في كتاب النبيّ:

«أولادكم ليسوا لكم

أولادكم أبناء الحياة المشتاقة إلى نفسها، بكم يأتون إلى العالم، ولكن ليس منكم...».

(6) ملاحظة المحرّر: لا يخلو الكلام الوارد على لسان المدعو حمدي وائل من الركاكة التركيبيّة والكلمات الدخيلة لكنّنا خيّرنا ترك جلّها على حالها مُكتفين بالإشارة إليها بالخطّ الغليظ لاقتناعنا بأنّها قد تُمثّل مُعطى إضافيًا يُساعد القارئ في تشكيل ملامح الشخصيّة المذكورة، ومع ذلك التزمنا إصلاح الأخطاء النحويّة وكلّ ما من شأنه أن يحرّف المعنى المُراد أو يشوّش عليه.

(7) ملاحظة المُحرّر: خلال الإعداد لهذا الفصل، ومراجعة العرض، وجدتُ على الصفحة الخاصّة للحلقة تعليقًا كتبه ناقد سينمائيّ محلّيّ مغمور، لكنّ رأيه مثيرٌ للاهتمام، فأضفتُ بعضه هنا:

«ما خفي عن عرفة في مثال دراكولا والدعوة هو رمزيّة عميقة تفوت العابرين غير المختصّين (مع أنّه تكلّم عن الرمزيّة) ... لمّا كتب برام ستوكر روايته الشهيرة، كان يرمي الحصى في المياه الراكدة ليزعزع تابوهات المنظومة الفيكتوريّة وقناعاتها الدينيّة والاجتماعيّة، مُحاولًا إسقاط بعض العناصر الجدليّة المتفشّية في عصره، ومن ضمنها انتشار مخدّر الأفيون. ومن هذه العدسة الرمزيّة، تتغيّر ألوان عناصر الرواية ويتحتّم علينا دراستها من زاوية مختلفة: كاريزما دراكولا تُجسّد إغراء المخدّر (لذلك نجده فاتنًا مُغويًا يأسر من حوله)، وأنيابه تُمثّل تعاطي المخدّر (سواء بحقنة، أو عن طريق خلطه مع الخمر، أو التهامه مباشرة، أو ابتلاعه في حبّة)، أمّا سلوك من امتصّ دراكولا دمه فهو الخمول والطاعة والشحوب، وما تلك إلّا أعراض المدمنين، ورغبتهم في مصّ دماء الآخرين هي رمزية لبحثهم عن الجرعة التالية. وفي هذا السياق، تتنزّل أهمّيّة الدعوة، فالمرء هو الذي يستسلم للمخدّر

ويستخدمه».

(8) ملاحظة المحرّر: يشير عرفة في حديثه إلى قصّة الجاحظ الشهيرة لمّا كان واقفًا أمام بيته، ومرّت قربه امرأة حسناء ابتسمت له وقالت: «بي إليك حاجة». فقال الجاحظ: «وما حاجتك؟»، قالت: «أريد منك أن تذهب معي»، قال: «إلى أين؟»، قالت: «اتبعني ولا تَسَلْ». فتبعها الجاحظ حتّى وصلا إلى دكّان صائغ، وهناك قالت المرأة للصائغ: «مثل هذا!»، ثمّ انصرفت فسأله الجاحظ عن علّة قولها فأجابه: «عذرًا يا سيّدي! لقد أتتني المرأة بخاتم، وطلبت منّي أن أنقش عليه صورة شيطان، لكنّي قلت لها: ما رأيت شيطاناً قطّ في حياتي، فأتت بك إلى هنا لاعتقادها أنّك تشبهه!».

(9) ملاحظة المحرّر: يشير عرفة إلى ثلاثة فلاسفة ألمانيّين وهم:

إيمانويل كانط (1724م – 1804م)

آرثر شوبنهاور (1788م – 1860م)

فريدريك نيتشه (1844م – 1900م)

(10) ملاحظة المحرّر: يشير هنا عرفة إلى الاجتياح والاضطهاد والاستحواذ.

(11) ملاحظة المحرّر: من المفارقات أنّ الدكتور إرنست في وصفه لدقّة عرفة اللغويّة استعمل كلمة تُرجمت «أريحيّة» للتعبير عن الراحة والحال أنّ عرفة يرفض مثل هذا الاستعمال مؤكّدًا أنّ الأريحيّة هي الارتياح للنبل والكرم وليست الراحة على الإطلاق.

(12) ملاحظة المحرّر: يُمكن الاطّلاع على بقيّة الحوار في الجزء الخامس من

الرواية، صفحة 403، الترجمة العربيّة الصادرة عن المركز الثقافي العربي، للأستاذ سامي الدروبي.

(13) ملاحظة المُحرر: خلال صفحات هذا الكتاب، سأعاود الاستشهاد ببحث الفيلسوف إرنست دانيلوسكي المُكثّف، نظرًا لدراسته الأمينة والجادة لشخصيّة عرفة واستخدامه المتمكّن لأدوات علم النفس المهمّة. ولكن للاقتصاد في حجم الكتاب وتجنّبًا لترهّله، لن تكون الاستعارات المقبلة بهذا التوسّع، وسيتم الاقتباس بأمانة واختزال وتصرّف.

(14) ملاحظة المُحرّر: في التسجيل الأصليّ لم يذكُر عرفة من الخطبة إلاّ شذرات علقت بذهنه، لكنّني خيّرت تدوينها كاملةً من المصدر المذكور لتمام الفائدة.

(15) ملاحظة المحرّر: أغلب الظن أن الفيلم المقصود هو «العطر» للمخرج توم تايكور، وقد اقتُبس من روايةٍ بالعنوان نفسه للكاتب الألماني باتريك زوسكيند.

(16) ملاحظة المُحرّر: بعد الاطّلاع والتدقيق، تبيّنَ لي أنّ عبد الجبّار استعان في تلاوته هذه الرقية والتي تليها بنصوصٍ من الكتاب المثير للجدل «شمس المعارف الكبرى» فغيّر فيها قليلًا وزادها من عنده ما رآه مناسبًا لمُقتضى الحال، وعظيمَ وقعٍ على السامعين.

(17) ملاحظة المحرّر: في فصلٍ بعنوان «مدخل إلى عرفة من الأدب والسينما» يفترض المُحلّل النفسي إرنست دانيلوسكي في بحثه الذي أشرنا إليه من قبل أنّ عرفة يجسّد شخصيّةً مكرّرةً في الأدب والأفلام، وهي شخصيّة «الشكّاك» أو «The Skeptic»، ذاك الشخص الذي يغدُ نفسه أذكى ممّن حوله، ويشكّك في ما يراه بأمّ عينه، ولا ينفي دانيلوسكي أنّ استنتاجات عرفة تحتمل الصواب والخطأ، لكنّه يرى في تقمّصه لتلك الشخصية الدارجة واستعراضه لقدراته الفكريّة نافذةً

إلى ما يكمن في سراديب وعيه، ومن ذلك محاولته الانتماء إلى الشريحة الجاذبة الكاريزماتية المتألّقة بذكائها وعمقها الفكريّ والتحليليّ. ويُعدّد دانيلوسكي في البحث المذكور نماذج من تلك الشخصيّات: الدكتور جون مونتاج من رواية The Haunting of Hill House، والمؤلّف ستيفن كراين في نسخة الرواية التلفزيونيّة، والقسّ جريجوري سارجنت من رواية The Case Against Satan، والقسّ داميان كاريس من رواية The Exorcist، والمفتش رستي كول من مسلسل True Detective، وطبعًا لم ينس دانيلوسكي الشخصيّة التي جعلها أساس بحثه: روديون راسكولينكوف من رواية الجريمة والعقاب.

ويقول دانيلوسكي إنّ «سجلّات عرفة»، تُظهر بوضوح، عبر تأويل خطاب صاحبها وطرحه، أنّه يعاني من اضطراب الشخصيّة النرجسيّة أو الشعور بالعظمة، ويؤكّد أنّ هذا الشعور يتجاوز الغرور العاديّ، لأنّ العظمة في هذه الحالة تُمثل شعورًا غير واقعيّ بالتفوّق. ولتمام الفائدة يورد بعض أعراض الاضطراب التي إذا اجتمعت خمس منها في شخص ما يكون ذلك كافيًا (حسب تقديره) ليصنّف مضطربًا نرجسيًا وهي:

- الشعور بأهميّة الذات (ومن أمثلتها الشائعة المبالغة في تقدير إنجازاتها ومواهبها) والإيمان بأنّها تستحقّ الاعتراف بها ذاتًا استثنائيّةً من دون أن تُحقّق إنجازات تُناسب تلك المكانة.

- الإغراق في خيالات عن النجاح اللامحدود، أو السؤدد أو التألّق.

- الإيمان بالتميّز والتفرّد والجدارة بمصاحبة نُخب البشر.

- مراكمة أحاسيس خفيّة بالعار والضعف وغياب الأمان من دون التعبير عنها صراحة.

- الشعور بالصدارة أي التوقّع غير المعقول لمعاملة تفضيليّة خاصّة أو لامتثال

الواقع تلقائيًا للمرجوّ من الأمور.

- استغلال العلاقات الشخصيّة والآخرين عمومًا لتحقيق المآرب.

- محدوديّة القدرة على التفهّم العاطفي، أي عدم إيلاء مشاعر الآخرين وحاجاتهم ما يلزم من الاهتمام.

- الإحساس بالحسد (المُتوهّم) من قِبل الآخرين.

- إتيان أفعال أو أقوال تنمّ عن العجرفة والتعالي.

- تواتر الشعور بالاكتئاب وتقلّب المزاج.

(18) ملاحظة المُحرر: أغلب الظنّ أن الحالة التي يصفها عرفه هي ما يعرف باسم هوس الكتابة، بالإنجليزية: Graphomania، وبالإغريقية: γράφειν، وفي سياق نفسيّ محدّد يُحيل هذا المُصطلح على حالة ذهنيّة مرضيّة تدفع المريض إلى كتابة الكلمات والعبارات بغير نظام، ويكثر أن تكون مجرّد تتابع ألفاظ لا معنى له وتسمّى «graphorrhea».

(19) ملاحظة المُحرّر: القصيدة التي يشير إليها عرفة هي التي غنّاها محمّد عبد الوهّاب وتبدأ كالآتي:

«جئت، لا أعلم من أين، ولكنّي أتيتُ...».

(20) ملاحظة المُحرّر: بحثت عن هذا الخبر في كتب التاريخ المُهتمّة بتلك الحقبة فلم أجد له سندًا صالحًا، وأغلب الظنّ أنّ أبا عرفة ابتدع الحادثة أو اعتمد

في روايته مصدرًا ضعيفًا.

(21) ملاحظة المحرّر: أصل القول «إلى حيث ألقت رحلها أمّ قشعم» وأمّ قشعم تكنية عن الموت، وقد اشتهرت عند العرب لورودها في بيتٍ شعريّ من مُعلّقة زهير بن أبي سُلمى:

«فشدّ ولم تفزع بيوتٌ كثيرةٌ

لدى حيث ألقت رحلها أمّ قشعم».

(22) ملاحظة المحرّر: كلّ المُقتطفات الواردة هنا اختارها المُحامي إمّا لارتباطها على نحوٍ ما بما ورد في السجلّات، أو لتضمّنها ما يكشف عن خبايا نفس عرفة وميوله ورؤيته الوجوديّة أو للسببين معًا.

(23) ملاحظة المحرّر: هذا هو «حوار الثلاثين ثانيةً» المذكور في مقدّمة الكتاب، وإنّما أوردته هنا لدوره الأساسيّ في رواج «السجلّات» وانتشارها. فالحقّ أنّ «سجلّات عرفة» عندما تسرّبت كان تداولها محدودًا ومقصورًا على المُهتمّين بعلم النفس الجنائيّ، لكنّ هذا «الحوار» لفت انتباه عددٍ لا يحصى من الناس ووقع تداوله في منصّات التواصل الاجتماعي أكثر من ثمانين ألف مرّة، فضلًا عن قيام مجموعةٍ من خبراء علم النفس ورجال الدين بتحليله وتفسيره. وقد تم تخصيص جزءٍ من هذا الكتاب لمُجريات برنامجٍ تلفازيّ استُدعي إليه ممثّل لكلّ طرف لتبادل الآراء في الموضوع.

أمّا الباحث دانيلوسكي فقد خصّ هو أيضًا هذه الواقعة بجزءٍ من بحثه كتب فيه:

«هناك أسباب سلوكيّة وعضويّة عديدة قد تفسّر «حوار الثلاثين ثانيةً»، فمن الممكن أنّ علّة عرفة انفصامٌ في الشخصيّة، أو ورم دماغيّ أو اضطراب تعدّد

الشخصيّات... ويُمكن أيضًا أن يكون الأمر مُجرّد هلوسات سببها وهنه وجوعه، فهناك حالة تُعرف باسم «حمّى المقصورة»، تتميّز بانعزال المرء مدّةً طويلةً وإصابته بأرقٍ مُطوّلٍ يزيد من استنزافه، ونتائجها في أغلب الأحيان وخيمة. وهي شائعة جدًا في الحياة ومُتداولة بكثرة في الأدب، فنجدها في روايات مُختلفة منها الرواية المذكورة «الجريمة والعقاب»، ورواية «اللعبة الملكيّة» ورواية «البريق».... ومع تسليمنا بأنّ فقدان الطمأنينة والسكينة، يؤدّي في حالاتٍ كثيرةٍ إلى اتّخاذ قراراتٍ انتحاريّةٍ أو الوقوع في شرك الهلوسات، يجب القول إنّ ذلك لا ينجم حتمًا عن اضطرابٍ ذهنيّ، وفي حالة عرفة نحن نعلم أنّه عانى من الحبس الفرديّ بين أربعة جدرانٍ ضيّقةٍ والنوم على دكّةٍ صخريّةٍ مثلما عانى من هجمات مُمثّل السلطتين الدينيّة والردعيّة المتوحّش إدريس، ومن حملات التفتيش المفاجئ وهي من أكثر الممارسات إتلافًا لنفسيّات المساجين، ولنا أن نُضيف إلى كلّ ذلك سوء التغذية والحرمان من ضوء الشمس وسوء ظروف العيش في السجن عمومًا، وقبلها خضوعه للحجر جزاء الجائحة وخلافه الأبديّ مع أبيه، وجميع هذه العوامل مُتظافرةً أدّت إلى تدهور حالته النفسيّة والذهنيّة».

(24) ملاحظة المُحرّر: تُرجم مُحتوى هذه الحلقة من برنامج «ساعة مع الأمين» مع ترجمة «سجلّات عرفة»، وتطرّق إليها الخبير النفسيّ إرنست دانيلوسكي ضمن فصلٍ بعنوان: «النعيم المفقود» يُحلّل فيه جوانب من نفسيّة عرفة وأفكاره. ولقد أثار انتباهي هذا الجزء بالذات، فقمت بترجمته وإضافته هنا:

«وأنا أتأمّل خطاب عرفة، لاحظت أنّ بين نبراته الهادئة والمحسوبة سخطًا وحنقًا مكتومين... ليس على المجتمع فحسب، بل على ذاته أيضًا، وكنّا قد حلّلنا من قبل علاقة عرفة بوالده، وكيف صار وحيدًا منفيًّا داخل البيت وخارجه. ويبدو أنه تقبّل وحدته وربّما استطابها. وأرسطو وصف مُحبّ الوحدة بأنّه إمّا قدير وإمّا شيطان. ثمّ أضاف فريدريك نيتشه بعد قرون فرضيّةً ثالثةً وهي أن يكون فيلسوفًا، مؤكّدًا أن تحدّي مسلّمات العصر هو أهمّ ما يرنو إليه الفيلسوف، وأنّ العزلة طوعًا كانت أم قسرًا تُيسّر للمرء دراسة المجتمع وعاهاته دراسةً دقيقةً جدًا.

ويبقى السؤال: وفقًا لكلّ ما سلف ذكره هل نصنّف عرفة فيلسوفًا؟

أم أنّ علينا وقد اقترف ما اقترف أن نُصنّفه شيطانًا؟»

(25) ملاحظة المحرّر: يرى الباحث إرنست دانيلوسكي أنّ عرفة يبدو عفويًا في أقواله وغير مفهوم، لكنّه على الأرجح يتصرّف وفق حكمة قديمة: «لمعرفة سبب المُعضلة الخفيّ، يجب على المرء أوّلًا إدراك وجوده» فحين سأل عن اسم العفريت (وهو كيان ميتافيزيقيّ لُقّب بالطارق) إنّما كان يسأل عن اسم مُسبّب الأذى، (وهو شخص حقيقيّ سيتّضح أمره لاحقًا). واستأنس دانيلوسكي في طرحه ببحثٍ علميّ عنوانه:

«Spirit Possession And Spirit Mediumship From The Perspective Of Tulu Oral Traditions».

وثّق محتواه البروفسور بيتر كلاوس من جامعة ولاية كاليفورنيا وفريقه في جنوب الهند (1979م). وكان قد أجرى دراسةً لفهم آليّات التعامل الروحانيّة والنفسيّة والاجتماعيّة لسكّان تلك المنطقة. ومن أهمّ الحالات التي عاينها حالة فتاة مراهقة أُجبرت في سنتها الخامسة عشرة على الزواج والعمل في دباغة الجلد. وكانت محاطة بأقاربها وحمويها المُستائين منها لأنّها لم تهب نفسها لزوجها في السرير. وفيما كان الباحثون يتحدّثون إلى العائلة لفهم الحالةِ تيبّس جسد الفتاة بردًا، وارتجفت وناحت وعشر تنفّسها. واستمرّ الوضع كما هو حتّى بعد أن غطّوها بستّ بطانيّات. وكان التفسير المُقدّم من أفراد العائلة أنّ شبحًا ما تسلّط عليها وملك بدنها. وتبعًا لذلك أحرقوا روث البقر، فثارت الفتاة واهتاجت حتّى إنّ ثلاثةً من الموجودين عانوا الأمرّين لتكبيلها. ثمّ استجوبوا ما بداخلها، سائلين إيّاه عن اسمه وعمّا إذا كان سيغادر الجسد، فأجابهم بأنّه سيُغادر، لكنّه تجاهل السؤال الأوّل فظلّوا يكرّرونه حتّى قال إنّه «كوي ناهين» أو «لا أحد». وعندئذ استبدّ بهم الغضب وكادوا يضربون الفتاة لإيذاء الشبح لولا حضور الشامان وتكفّله بأمرها. وهو أيضًا قضى وقتًا لا بأس به محاولًا معرفة اسم الشبح حتّى أخضعه فأخبره به. ثمّ أوضح

التحرّي أنّه اسم صديقةٍ للفتاة في قريتها الأولى انتحرت بعدما اكتشف والداها أنّها حملت من دون زواج. وكان أهل الفتاة الهائجة مُقتنعين بأنّ ما عاشته صديقتها من ذلٍّ ومهانةٍ وغضبٍ جعلها روحًا عالقةً تطاردها أينما حلّت. وأنّ خطيئة الجنس خارج إطار الزواج لعنة أفضت بمن اقترفتها إلى الانعزال والاكتئاب ثمّ الانتحار، وحالت دون تمكين ابنتهم زوجها من جسدها. فلمّا ذُكر عفويًّا أنّ ما سمعته الفتاة عن الجنس من المتزوّجات وهي في قريتها الأولى أرعبها وأفقدها بصيرتها، وأنّها واجهت الشبح أوّل مرّة ليلة دخلتها، استنتج الباحثون نزوعها إلى حماية نفسها وعقلها الخائف من المضاجعة بخلق ذاك الشبح وإلصاق اسم صديقتها به لارتباطه بالعواقب الوخيمة للجنس. فالباحثون عمومًا لا يبحثون عن كيان ميتافيزيقيّ بل عن فاعلٍ حقيقيّ موجود في الواقع وإن كان خفيًّا.

وما يُستخلص من كلّ ما ذُكر أنّ سؤال عرفة لم يكن اتّباعًا للطقوس الكاثوليكيّة الشائعة، بل محاولةً لمعرفة الشخص الذي أضرّ بحليمة، وقلّبَ حالَها.

(26) ملاحظة المحرّر: ثمّة تماثل واضح جدًّا بين «غرفة السرداب» المذكورة في هذا الفصل وغرفة حليمة الوارد ذكرها على لسان عرفة مرّةً نقلًا عن سميّة ومرّةً وهو يصف ما شاهده في تسجيل الفيديو.

(27) ملاحظة المحرّر: ورد ذكر السطل في موضعين مختلفين من السجلّات وها إنّ وروده في مُلخّص الحالة المرضيّة لطارق يكشف ما خفي من رمزيّته.

(28) ملاحظة المحرر: الكلمات من قصيدة «شرايين تاجية» (مع بعض التغييرات التي أجراها عرفة)، للمؤلف المرحوم الدكتور أحمد خالد توفيق والذي أشار عرفة إلى مكانته العزيزة لديه في يوم العرض.

(29) ملاحظة المحرّر: يشير إرنست دانيلوسكي إلى الشاعر الأمريكيّ القدير روبرت إلوود بلي (23 ديسمبر 1926-21 نوفمبر 2021) وهو أيضًا كاتب مقالات

مشهور. وعنوان مقاله الذي يستشهد به دانيلوسكي باللغة الإنجليزيّة هو: «The Long Bag We Drag Behind Us».